

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة البليدة 2 - لونيسي علي

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الحجاج في كتابات محمد البشير الإبراهيمي

مقاربة معاصرة في ضوء المنهج الأسلوبي التداولي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي

إشراف الدكتور:

علي حميداتو

إعداد الطالب :

محمد عطا الله

السنة الجامعية : 2017 / 2018

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة البليدة 2 - لونيبي علي

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الحجاج في كتابات محمد البشير الإبراهيمي

مقاربة معاصرة في ضوء المنهج الأسلوبي التداولي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب عربي

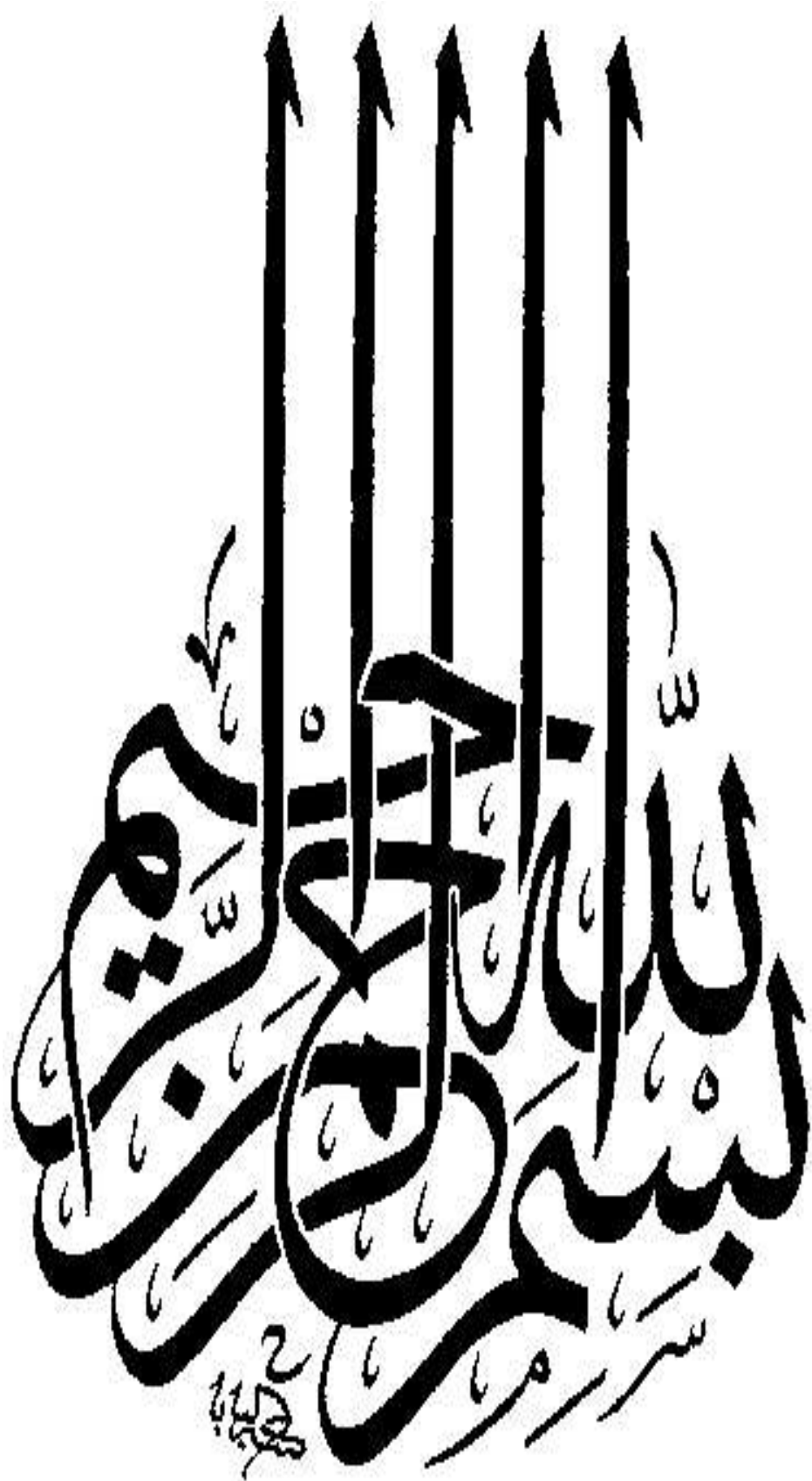
إعداد الطالب :

محمد عطا الله

أمام لجنة المناقشة المكونة من:

رئيساً	جامعة البليدة 2	أستاذ التعليم العالي	عمار ساسي
مشرفاً ومقرراً	جامعة البليدة 2	أستاذ محاضر أ	علي حميداتو
عضوا مناقشا	جامعة البليدة 2	أستاذ محاضر أ	مراد العرابي
عضوا مناقشا	جامعة الجزائر 2	أستاذ التعليم العالي	مشري بن خليفة
عضوا مناقشا	جامعة الوادي	أستاذ محاضر أ	العبد حنكه
عضوا مناقشا	جامعة الوادي	أستاذ محاضر أ	يوسف العايب

السنة الجامعية : 2017 / 2018



إهداء

إلى والديَّ الكريمين

إلى رفيقة دربي زوجتي

إلى بنتاي: نور اليقين وقنوت

أهدي ثمرة جهدي هذا عربون وفاء ومحبة

محمر

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل الوافر إلى أستاذي المشرف الدكتور:
علي حميداتو على ما قدّمه لي من نصائح وتوجيهات، كانت لي
معالم سير في درب إعداد هذا العمل، وله كل الشكر أن كان نعم
الأستاذ ونعم الصديق ونعم الأخ، فلکم كان احتضانه يسبق توجيهه،
ولقد أفدت منه علما وخلقا وأدبا، فله مني كل الود والتقدير والاحترام
والشكر .

كما أتقدم بالشكر إلى كل من كانت له يدا مساعدة أو مشيرة
في إعداد هذا البحث.

الملخص بالعربية

يخضع كل شيء في الخطاب الحجاجي لاعتبارات لغوية، فالحجاج داخل بناء اللغة نفسها، وهو في نظرية الحجاج اللغوية علاقة بين قولين؛ أي علاقة بين حجة ونتيجة. ويكون الخطاب الحجاجي شفهيًا أو مكتوبًا، فهو لا يتصل بضرب من الخطابات مخصوص بل يشمل كل ضروب الخطاب، ووقفنا في هذه الدراسة على عتبات نص مكتوب؛ إذ اتسم بالطابع الحجاجي لكون أكثر نصوصه كانت عبارة عن ردّ قوامه الحجة والبرهان، والمبحث الحجاجي يروم ذلك الأسلوب. واخترنا هذه الكتابات لأنها تخدم موضوع هذا البحث، وهي على تنوعها تشكل في مجملها أرضية خصبة لأن تكون ذا خطاب حجاجي، إضافة إلى شخصية الإبراهيمي الحجاجية.

إن استنطاق النص الحجاجي أسلوبيا وتداوليا، لهو الأنسب؛ لأن خطاب الحجاج لا يتضمن مجرد رسالة إيصالية تبليغية فقط، وإنما يهدف إلى الإقناع والتأثير والتغيير الذي يتوخاه في تداول الخطاب ومقامه بشكل كبير جدا، مما يستدعي قراءته أسلوبيا وتداوليا. إن المقاربة الأسلوبية منهجية معدة لمقاربة الظواهر الأسلوبية البارزة التي تميز كاتبًا ما وتفرده عن الكتاب الآخرين. أما المقاربة التداولية فتفيد في دراسة الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، وهي مفيدة لأحداث الخطاب التي تؤخذ منها الأقوال أو الملفوظات. ومن خلال إحداث مقارنة في تعريف الخطابة بين السوفسطائيين وأفلاطون وأرسطو يكون كفيلا بكشف كثير من المسائل الحجاجية التي يعولون عليها في مخاطبتهم، وقراءة متأملة لتعريفاتهم تكشف لنا الاختلاف فيما يدعو إليه كل طرف. والحجاج في النص التراثي العربي، نلاحظ أنه ليس ثمة تحديدا دقيقا للمفاهيم الخاصة بالحجاج والجدل ولا يوجد ضبط للآليات المستخدمة في عملية الإقناع، وهو الأمر الذي اضطر معه إلى اجتهادات أخرى تنطلق منها بالموافقة أو المخالفة، مُحاولَةً استكمال جوانب النقص فيها.

أما بلاغة القرن العشرين أو ما يسمى بالبلاغة الجديدة، قد ركزت على الخطاب بوصفه مسرحاً للحجاج، وعلى الرغم من اهتمام الفريقين (بيرلمان وتيتيكا وكذا ديكر و شريكه) بالهيكلية الحجاجية إلا أن اختلافاً في سياق البحث قد ظهر بينهما، وهذا يعني أن الكلام عندهما ليس كله حجاجاً، بينما عند ديكر و أنسكومبر كل كلام حجاجي بطبعه، وأن الكلام وظيفته الجوهرية أن يوجه لا أن يدل. في سياق آخر قدّم عدة تدعيمات في سياق أسئلة استكشافية، غرضها إقناع المتلقي من خلال وقوفه على بعض الحقائق من خلال تلك الأسئلة، وهذا ما يسمى بالتوجيه الاستفهامي، وهو ذو قيمة خطابية حجاجية؛ إذ يفترض السؤال شيئاً تعلق به ذلك السؤال ويوحي بحصول إجماع على وجود ذلك الشيء، كما أن اللجوء إلى الاستفهام يهدف أحياناً إلى حمل من وجه إليه الاستفهام على إبداء موافقته إن أجاب على ما يقتضيه السؤال. وقد انطلق تراتب الحجج في " كتابات الإبراهيمي " من إقرار التلازم بين القول (الحجة ق والنتيجة ن)، ومعنى هذا التلازم هنا هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة، مع الإشارة إلى أن النتيجة قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية.

تسهم جل السمات الأسلوبية لكل كاتب في اتساق خطابه، وتلك السمات إذ تتردد وتتكرر في الخطاب بما تحمله من مقتضيات معجمية وتركيبية، فإن هذا التردد والتكرار يخلق نوعاً من الاتساق الذي يضمن وحدة هذا الخطاب وتماسكه. على أن تُؤمّن الاقتضاءات للخطاب، من خلال التغطية الاقتضائية لعناصره، انسجامه ونموه الداخليين. وعلى هذا الأساس تعد الاقتضاءات عنصراً مهماً من عناصر تشكيل البناء الداخلي للخطاب وتحقيق اتساقه كما هو الحال عند الإبراهيمي. وبترتيب تلك المقتضيات المشكلة للبناء الداخلي لخطاب الإبراهيمي، في السلم الحجاجي بدءاً من الأقل حمولة دلالية إلى الأقوى في ضوء خدمة المقتضى الكلي العام، وهو: ضرورة الجهاد والثورة. نجد أنه يرامي إلى مقصد واحد، وهو: تحقيق النصر والتحرير

فهرس المحتويات

1.....	الواجهة
2.....	لجنة المناقشة
4.....	إهداء
5.....	شكر وعرفان
6.....	الملخص بالعربية
8.....	فهرس المحتويات
10.....	مقدمة
19.....	مدخل
20.....	1- الخطاب الحجاجي
28.....	2- الحجاج في التراثين: اليوناني والعربي
28.....	2-1- الحجاج في التراث اليوناني:
36.....	2-2- الحجاج في النص التراثي العربي
47.....	3- أهم نظريات الحجاج الحديثة
63.....	<u>الفصل الأول: استراتيجية بناء النص الحجاجي عند الإبراهيمي</u>
64.....	1- البناء الحجاجي لنصوص كتابات الإبراهيمي
64.....	1-1- بناء النص الحجاجي:
83.....	1-2- البناء الشكلي الحجاجي لنصوص البشير الإبراهيمي:
98.....	1-3- مكونات النص الحجاجية عند الإبراهيمي:
121.....	2- مراتب الحجج في كتابات الإبراهيمي
122.....	2-1- المفهوم والأسس العامة لنظرية السلام الحجاجية:
125.....	2-2- السلام الحجاجية في " كتابات الإبراهيمي ":
132.....	2-3- قوانين الترتيب الحجاجي في " كتابات الإبراهيمي ":
136.....	3- الروابط الحجاجية في كتابات الإبراهيمي
137.....	3-1- مفهوم الروابط الحجاجية:
139.....	3-2- دراسة تحليلية لأهم الروابط في " كتابات الإبراهيمي ":

153	 3-2 - 4 - واو الحال :
156	 <u>الفصل الثاني: أسلوبية الحجاج التداولي في كتابات إبراهيمي</u>
157	 /1- حجاجية الأسلوب في كتابات إبراهيمي:
158	 /1-1 - خطابات إبراهيمي في ضوء نظرية المساءلة:
200	 /2-2 - الاستعارة الحجاجية في كتابات إبراهيمي:
207	 /2- تداولية الخطاب الحجاجي في كتابات إبراهيمي:
207	 /1-2 - الاشتغال الحجاجي لأفعال الكلام في كتابات إبراهيمي:
228	 /2-2 - الحوار الاستلزامي في كتابات إبراهيمي:
251	 <u>الفصل الثالث: الاقتضاء في كتابات إبراهيمي ووظائفه الحجاجية</u>
253	 مفهوم الاقتضاء :
260	 /1- حجاجية المقتضى المعجمي لبعض الكلمات:
286	 /2- المقتضى التركيبي ووظائفه الحجاجية:
321	 /3- الاقتضاء واتساق الخطاب:
351	 الخاتمة
356	 المصادر والمراجع
373	 Resume

مقدمة

سعت الدراسات اللغوية واللسانية منذ نشأتها إلى دراسة اللغة، وعملت على وصفها بمختلف الوسائل والمناهج المتاحة لذلك، وبتطور اللسانيات الحديثة تم الإسهام في إبراز حقيقة اللغة بشكل كبير، وكشفت عن مناهج جديدة لتحقيق ذلك.

واللغة من أهم مظاهر السلوك الإنساني؛ خاصة في جانبها التواصلية والتداولية؛ على أن التيار التداولي للخطاب أكثر ما يهتم بالعوامل اللغوية الدلالية؛ بل هو مقتصر على مقارنة النص لغويا ودلاليا بغرض الوصول إلى سبر الأبنية اللغوية وما فيها من إمكانات حجاجية فالحجاج داخل بناء اللغة نفسها وكل شيء فيه _ أي الخطاب الحجاجي _ يخضع لاعتبارات لغوية أساسا، وهو في نظرية الحجاج اللغوية علاقة بين قولين؛ أي علاقة بين حجة ونتيجة.

والحجاج كآلية تواصلية تبليغية إقناعية حظي بالعديد من الدراسات في محاولة لتفعيله

في الدرس اللغوي واللساني العربي الحديث. والخطاب الحجاجي يكون شفهيًا أو مكتوبًا، ولكل منهما تقنياته الخاصة به في البناء والأداء، بما يقتضي الإشارة إلى بناء وحبك النص الحجاجي، وإن كنا في هذا المقام - أي الدراسة - سنقف على عتبات نص مكتوب وبالطبع له حدوده الخاصة؛ إذ يتسم بالطابع الحجاجي لكون أكثر نصوصه كانت عبارة عن ردّ قوامه الحجة والبرهان، والمبحث الحجاجي يروم ذلك الأسلوب.

واختيار كتابات الإبراهيمي كان لأسباب تخدم موضوع هذا البحث، منها شخصية الإبراهيمي الحجاجية، لكونه رائدا في الحركة الإصلاحية، ثم إماما فعضوا ورئيسا لجمعية العلماء المسلمين، ثم هو خطيب، وذلك كله يقتضي متكلما مُحاججا بهدف تحقيق الإقناع والتأثير على المتلقي.

تشكل هذه الكتابات على تنوعها إجمالاً أرضية خصبة لأن تكون ذات خطاب حجاجي، فهو يسعى لتحقيق هدف، وبلوغ مقصد وتغيير معتقد، بالنظر إلى الظروف التي قيلت فيها تلك النصوص ومقام قولها؛ أي فترة الاستعمار الفرنسي إلا قليل منها بعد الاستقلال بقليل. الشيء الذي يلزم الإبراهيمي بأن يقف مدافعاً عن الحرية للوطن بالحجة والدليل المقنعين. وموضوعات الكتابات ومضامينها مختلفة ومتنوعة، من دينية إلى فكرية واجتماعية وأدبية وسياسية وغيرها، مما يسهم في طرح عدة أشكال لاستقاء طبيعة الحجاج وقدرة المحاجج من خطاب لآخر.

وحتى يحقق ذاك الخطاب ككل خطاب باعتباره منظومة من العلاقات اللغوية التأثير في المتلقي بغية إقناعه عليه أن يتخذ مجموعة من الأدوات الحجاجية التي تحمل المتلقي على التأثير والإقناع بما يتضمنه الخطاب، ومن ثمة تحقيق صورة تواصلية ناجعة بين المتلقي والمرسل وما حملته الرسالة من شفرات أو مضامين.

ومن ثم جاءت فكرة البحث عن مقارنة الحجاج أسلوبيا وتداوليا من خلال كتابات البشير الإبراهيمي، في محاولة لاعتبار كتابات البشير الإبراهيمي خطاباً حجاجياً تسعى الدراسة إلى إثبات ذلك، وعليه فقد وسم عنوان هذا البحث بـ:

" الحجاج في كتابات محمد البشير الإبراهيمي - مقارنة معاصرة في ضوء المنهج الأسلوبي التداولي "

وتتضوي دراسة من هذا الشكل على أهمية متمثلة في استنطاق النص الحجاجي أسلوبيا وتداوليا، وهو الأنسب له؛ لأن خطاب الحجاج لا يتضمن مجرد رسالة إيصالية تبليغية فقط، وإنما يهدف إلى الإقناع والتأثير والتغيير الذي يتوخاه في تداول الخطاب ومقامه بشكل كبير جداً، مما استدعى قراءته أسلوبيا تداوليا.

تبيين أهمية المكونات اللغوية في بناء النص الحجاجي، ومن ثمة الكشف عن عملية الاتصال والتداول اللغوي، وكذا محاولة استنتاج النص العربي الحديث خاصة الحجاجي منه ومقارنته أسلوبيا وتداوليا، ومحاولة التعرف على شاكلة الحجاج في ضوء نظرة حجاجية معاصرة من خلال مناهج معاصرة، واستكناه ما في النص الحجاجي العربي الحديث من حضور للفعاليات الحجاجية، ودورها الفعّال في عملية تبليغ الخطاب، ودورها الأدائي الحجاجي، في ضوء تداولية الخطاب وتميز أساليب الكتاب واختلافها.

ولعلّ أول سبب في اختياري لهذه الدراسة - المقاربة المعاصرة في ضوء المنهج الأسلوبي التداولي - كان ذاتيا رغبة في مقارنة الدراسات اللغوية واللسانية خاصة الحديثة منها، وما تعلق بنظرية الاتصال والتداولية وتحليل الخطاب، ثم أنّ طبيعة الموضوع - أي الحجاج - يتسم بشيء من العقلية والبرهان مما يسير وميولاتي، وهناك أسباب موضوعية عدة لاختياري هذا الموضوع، لعلّ أهمها العمل بما قدمته النظريات التداولية والتأويلية والمعرفية والأسلوبية وعلم اللغة وعلم التواصل، ومن مجموعة المناهج والمفاهيم والآليات الإجرائية التي استفاد منها دارسوا الخطاب عامة والخطاب الحجاجي خاصة.

حيث ساهمت في تطوير طرائق تحليل الأقوال الإقناعية في إطار العمليات التخاطبية والتواصلية، ومنها التداولية والأسلوبية، مما لا يمكن حصره في مقارنة واحدة تكون كفيلة بأن تجتمع حولها جميع نظريات تحليل الخطاب الحجاجي. ومنه كذلك المساهمة التطبيقية في الدراسات اللغوية الحديثة والتي غالبا ما تُعاني من شحّ في الكتابة والتأليف.

ولعلّ أهمية هذا البحث الذي يهدف إلى استنتاج النص حجاجيا من خلال التعامل مع خطاباته وتحليله أسلوبيا وتداوليا، تكمن في:

- أن المقاربة الحجاجية للخطاب أضحت من أهم المداخل التي يمكن التوسل بها لاستتطاق النصوص، واستخلاص نتائج متعددة منها، خاصة تلك التي تتخذ من الإقناع غاية، ككتابات الإبراهيمي التي بين أيدينا.

- أن هذه الآثار (كتابات الإبراهيمي) انتزعت مكانتها نظرا لمكانة صاحبها وجودة أسلوبها، فاستحقت بذلك الدراسة والاهتمام.

- أن صاحب هذه الكتابات بناها على أسس حجاجية، مردها إلى اقتران الخطاب بالادعاء والاعتراض، وتوافر جملة من المؤشرات التي تدعم القصد التبليغي من الخطاب.

ولمعالجة هذا الموضوع طرحنا إشكالا أساسيا، وهو ما المظاهر الأسلوبية الحجاجية البارزة في كتابات البشير الإبراهيمي؟ وكيف خدمت تلك الظواهر المقصد الإقناعي والحجاجي لدعوى تلك النصوص في ضوء النظرية التداولية المعاصرة؟

على أن هذا يقودنا إلى طرح عدة أسئلة فرعية، منها: ما ماهية الحجاج قديما وحديثا غَرَباً وَعَرَباً؟ وكيف كان بناء النص الحجاجي وما هي أهم مكوناته وما مدى تجسدها في نص المدونة المقترحة للدراسة في هذا البحث؟ وهل الخطاب التحواري في الكتابات هذه خطاب يحتكم إلى كل الآليات الخطابية من حجاج وتصريح وتلميح ؟ ثم هل استغرقت النظريات التداولية المعاصرة كل ما يحيط بالخطاب الحجاجي؟

وهذا الأمر يستدعي طرح عدة فرضيات متوقعة ومتصورة لهذا الموضوع من خلال الإشكاليات المطروحة، لعل منها:

- انبناء نص المدونة على شاكلة النصوص الحجاجية المألوفة ، من حيث استراتيجية البناء والمكونات.

- حسن استغلال آليات الإقناع اللغوية أسلوبيا وتداوليا، بشكل ملائم في النص الحجاجي العربي الحديث، خاصة وأن موضوع المدونة قائم على البرهان والإقناع.

— انسجام واتساق خطاب نصوص كتابات الإبراهيمي بشكل ساهم في الأداء الحجاجي إبلاغيا وإقناعيا.

ووصلا بما سبق اقتضت خطة الدراسة أن ينهض البحث بفصول ثلاث تسبقها مقدمة ومدخل وتذيّل بخاتمة لرصد أهم النتائج.

بيّنت في المقدمة طبيعة الموضوع وإشكاليته الأساسية التي يتمحور حولها، ثم بينت ما سأتناوله في هذه الدراسة وكذا المنهج المتبع فيها، مع ما يستحسن توضيحه من عناصر أخرى في المقدمة.

وخصصت المدخل للكلام عن الحجاج لغة واصطلاحا، ولمن تناول الحجاج بالدراسة خاصة التنظيرية قديما وحديثا إن غربيا أو عربيا، مع أفراد الكلام عن أهمية نظريات الحجاج الحديثة.

بعد المدخل جاء الفصل الأول الموسوم بـ " استراتيجية بناء النص الحجاجي عند الإبراهيمي "، وقد اشتمل على ثلاثة عناصر أساسية: الأول منها لبناء الشكل الخطابي للنص الحجاجي، وذلك محاولة لمقاربة كتابات الإبراهيمي في ضوء معايير النص الحجاجي عموما، ثم دراسة الحجج التي وظفها الإبراهيمي في ضوء نظرية السلام الحجاجية للنظر في منطقية بناء

الحجج عند الإبراهيمي، وختم الفصل بالكلام عن بعض أهم الروابط الحجاجية التي تدلل عادة إذا توافرت في الخطاب على حجاجيته وحسن بنائه.

ثم كان الفصل الثاني والذي وسم بـ "أسلوبية الحجج التداولي في كتابات الإبراهيمي"، والذي حوى عنصرين رئيسيين، الأول: حجاجية الأسلوب في كتابات الإبراهيمي، وقمت فيه بدراسة الاستعارة الحجاجية وخصص الجزء الكبير منه لمقاربة خطاب الإبراهيمي في ضوء "نظرية المساءلة" ذلك أن الاستفهام كان سمة أسلوبية بارزة في كتابات الإبراهيمي، فبالكاد خلا منه نص، وذلك ناجم عما انطوت عليه هذه الظاهرة اللغوية - الاستفهام - من طاقة حجاجية، بحيث بات تكرارها ينشأ عنه تكرار المعنى الحجاجي.

أما العنوان الثاني فهو: تداولية الخطاب الحجاجي في كتابات الإبراهيمي، وتمت فيه مقارنة بعض أفعال الكلام حجاجيا، كالاستفهام والأمر والنهي والنداء، ثم عنصر ثان خصص للحوار الاستلزامي والصور التي كان عليها في كتابات الإبراهيمي.

ليأتي الفصل الثالث الموسوم بـ "الاقتضاء في كتابات الإبراهيمي ووظائفه الحجاجية"، وجاء استكمالا للفصلين السابقين، خاصة الاقتضاء سواء المعجمي أو التركيبي ودور هذا الأخير في اتساق الخطاب؛ إذ شكلت بعدا أسلوبيا مقتضيا لمقام تداولي يفضي إلى اتساق خطاب متميز.

لأنهي الدراسة بخاتمة أرصد فيها النتائج المستوحاة من الدراسة بعد أن أجيب عن الإشكال ومدى صدق الفرضيات المتوقعة فأعمل على إثباتها أو نفيها.

ولا يخفى على الدارس أن طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوع المنهج المتبع في الدراسة، والمنهج الذي اقتضته هذه الدراسة هو المنهج الأسلوبي التداولي، فالمقاربة الأسلوبية منهجية معدة لمقاربة الظواهر الأسلوبية البارزة التي تميّز كاتبها ما وتفرده عن الكتاب الآخرين. أما المقاربة

التداولية تفيد في دراسة الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، وهي مفيدة لأحداث الخطاب التي تؤخذ منها الأقوال أو الملفوظات، وترتكز المفهومات الأساسية لمثل هذه المقاربة على وجود نظامين مختلفين: نظام الكلمات ونظام الأشياء، حالة الحدث والفعل الكلامي، على اعتبار أن الأول يعدّ صورة للثاني.

كما تمت الاستعانة بالمنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي، فالاستعانة بالمنهج التاريخي لتتبع حركة التطور الحاصلة في الدرس الحجاجي عبر التاريخ، أمّا الوصفي التحليلي فنعمل من خلاله على رصد الظواهر اللغوية الخاصة بالحجاج في هذا الموضوع سواء ما تعلق بالعوامل أو الروابط الحجاجية أو وسائل الإقناع اللغوية قصد الكشف والتبيين، كما يساعد على كشف تداخل المكونات اللغوية وترباطها، وتبيين كيفية إسهامها دلاليا في عملية الإقناع وكيفية استعمالها كوسيلة إقناعية حجاجية.

ليذيل البحث بقائمة المصادر والمراجع التي لها وثاقة الصلة بالبحث، حاولت الإفادة منها والتوفيق فيما بينها قدر الإمكان، وذلك لثراء هذا الموضوع - أي الحجاج -؛ إذ يرتبط بعدة مجالات معرفية، ولعلّ أهم تلك المصادر والمراجع التي اعتمدتها " آثار محمد البشير الإبراهيمي "، وهي مدونة الدراسة، " الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية " لعبد الله صوله، ولقد اعتمد الباحث في كتابه هذا على الاهتمام بالجانب الأسلوبي أكثر من الحجاجي التداولي، إلا أنه يشكل ركيزة أساسية في مقاربة الحجاج أسلوبيا.

وكذا " اللسان والميزان أو التكوثر العقلي " لطفه عبد الرحمن، و " كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته " لمجموعة من المؤلفين بإشراف حافظ إسماعيل علوي، وهو مهم في تقديم مجموعة من الدراسات كان أكثرها تطبيقيا في الحجاج بمختلف مقارباته الأسلوبية والتداولية واللسانية وغيرها. ثم

كتاب " التحليل الخطابي للحجاج " لمجموعة من المؤلفين كذلك، بإشراف أحمد قادم وسعيد العوادي، والذي حوى مجموعة من الدراسات المحكمة في صلب تداولية وأسلوبية الحجاج مع مباحث تتعلق ببناء النصوص الحجاجية.

أما الصعوبات التي واجهتنا في هذه الدراسة، فهي افتقارنا إلى المصادر النوعية التي تختص في مقارنة الحجاج، إن أسلوبيا أو تداوليا، مع قلة الدراسات الأكاديمية المختصة في مثل هذه المقاربات.

فضلا عن المصطلحات الخاصة بهذا الميدان وهي مصطلحات غير قارة، خاضعة لاجتهادات الترجمة واجتهادات الباحثين أحيانا أخرى، وذلك لتناولهم الحجاج فلسفيا وتداوليا وبلاغيا، الشيء الذي جعلهم لا يتفقون على رؤية واحدة، وقد حاولت الأخذ بالمتداول أكثر والمتقاربة في مفهومها، كما بددت توجيهات المشرف ونصائحه كثير من تلك الصعوبات.

وختاما لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر لأستاذي المشرف الدكتور علي حميداتو الذي حباني برعايته الخاصة بتوجيهاته ونصائحه ومتابعته الأطروحة، والشكر موصول وموفور أيضا إلى كل الأساتذة الذين استأنست بهم في إعداد هذه الأطروحة.

مدخل

- 1- الخطاب الحجاجي
- 2- الحجاج في التراثين: اليوناني والعربي
- 3- أهم نظريات الحجاج الحديثة

1/- الخطاب الحجاجي

الحجاج في اللغة يعني الغلبة بالحجة، فقد جاء في لسان العرب: حاججته أحاجّه حجاجا ومحااجة حتى حَجَّجْتَهُ أي غلبته بالحجج التي أدليت بها. وهو رجل مُحَاجِّجٌ أي جَدِلٌّ. والتَّحَاجُّجُ أي التَّخَاصُم... وحاجّه محااجة وحجاجا: نازعه الحجة وحجه حجا غلبه على حجته...والحجة : الدليل والبرهان.¹ واحتج بالشيء اتخذه حجة. وقال الجرجاني: الحجة ما دلّ على صحة الدعوى وقيل الحجة والدليل واحد.²

ويمكن استخلاص عدة معطيات ومفاهيم أولية حول الحجاج من خلال هذه المعاني اللغوية وهي:

- أ - إن أساس الحجاج الارتكاز على دليل معين قصد إثبات قضية من القضايا، وبالتالي بناء موقف ما على اعتبار وجود اختلاف بين المرسل للرسالة والمتلقي لها.
- ب- تكون المحااجة عبارة عن إنتاج مجموعة حجج مرتبة بطريقة ما، قصد إثبات أو تفنيد قضية من القضايا، وقد تُعنى المحااجة بتوسيع دلالتها بكل وسائل الإقناع باستثناء العنف والإكراه.

وقبل أن نعرض لمفهوم الحجاج في عموم ما اصطلح عليه بين البلاغيين خاصة الجدد منهم واللسانيين، نرى أن نعرض لمعنى الحجاج كما جاء في بعض القواميس الحديثة.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ح، ج، ج) .

² - ينظر: الشريف علي محمد الجرجاني، التعريفات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2003، ص 67.

فالحجاج (Argumentation) جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو

إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستقادة منها³.

وفي قاموس لالاند الفلسفي، المحاجة أو الحجاج:

أ - مسرد من الحجج تنزع كلها إلى الخلاصة ذاتها.

ب - طريقة عرض الحجج وترتيبها.⁴

يشير هذا القاموس إلى أمرين مهمين في النظرية الحجاجية:

الأولى: الحجاج كمجموعة من الحجج أو سلسلة من الحجج يؤتى بها لدعم أطروحة معينة.

الثانية: طريقة انتظام الحجج في الخطاب، وكيفية عرضها على المتلقي.

فكأنما الخطاب يستمد قوته من أمرين: الحجة كقوة داعمة أو نافية، وطريقة الانتظام

والعرض كقوة مؤكدة⁵، وعليه نرى دائما أن هناك قسما من الشك في العملية الحجاجية، مما

يدفعنا دائما إلى البحث عن حجج من أجل تحقيق درجة أعلى من الإقناع، ومن هنا فالحجاج من

حيث البناء يبنى على منطلقات غير يقينية، فميدانه هو الاحتمال وغير المؤكد والمتوقع، وليس

الحقائق البديهية المطلقة.

³ - ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العلمية للكتاب، دار الكتاب العالمي، بيروت، (د.ط)، 1994،

ج1، ص 446.

⁴ - ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط3،

2001، ص 94.

⁵ - ينظر: علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج - رسائله نموذجا -، معهد البحوث

والدراسات العربية، القاهرة، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، 2007، ص 82. (405 صفحة).

وفي الحجاج يكون الحكم على النتيجة إنما هو حكم على الحجج المقدمة - على اعتبار أنها منطوقات تعبر عن قضايا محددة - بأنها صالحة أو فاسدة، لا حكم عليها بالصواب أو الخطأ.⁶

وذلك أن الحجة مركبة من أقوال، ولا تكون هذه الأقوال مترابطة عن طريق موضوع مشترك فحسب بل تكون مترابطة منطقياً، وأن النتائج مبنية في الحكم على صلاح أو فساد المقدمات أو الدليل، هذا لأن الحجة " لا بد أن تحتوي على قولين مختلفين على الأقل: أحدهما يمثل المقدمة، وهي ما تقتض الحجة صدقه أو يتقرر على أنه صادق، والآخر هو النتيجة، وهي التي يكون صدقها مبرهنًا عليه في نفس الحجة."⁷

فالأمر الأساسي في الحجة إذن هو البرهنة على صدق القول المسمى بالنتيجة باعتباره الغاية والهدف من الحجة، على أن المقدمات أو الدليل تبقى مما يبدأ به النتيجة.

وأنجع حجة هي تلك التي تتجح في تقوية حدة الإذعان عند من يسمعها، وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو الإحجام عنه⁸، ومن ثم كان التعريف المفهوم أو المتداول للحجاج بين الدارسين هو القائم على أساس وظيفي؛ إذ أن الخطاب الحجاجي موجه للتأثير على آراء المخاطب وسلوكياته، وذلك بجعل أي قول مدعم صالحاً أو مقبولاً (النتيجة) وذلك بمختلف الوسائل بالنظر إلى قول آخر (الحجة - الأسباب)⁹، وغالباً ما نجد هذا التعريف متداولاً

⁶ - ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط1، 2005، ص 190.

⁷ - محمد مهران رشوان، مبادئ التفكير المنطقي، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، 1994، ص 33.

⁸ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية - الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004، ص 456.

⁹ - J.M.Adam, les texts: types et prototypes, nothan, Paris, 1992, p104.

وهو (الخطاب الحجاجي هو خطاب موجه)، وبناء عليه فإن كل خطاب يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة بعدا حجاجيا.

وإن كان هناك من يعتبر الحجاج متضمنا في الحقل التداولي، مع الأخذ في الاعتبار أنه منبثق عن ثلاثة مجالات أساسية: المنطق، والبلاغة، والفلسفة، رابطا مفهومه بالفعل؛ إذ يكون قائما على ترجيح اختيار من بين عدة اختيارات قائمة، ضمن مقام معين قصد دفع طرف ما إزاء ذلك الخيار¹⁰، وإن كان الحجاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق، وبتعريف مختصر هو طريقة عرض الحجج وتقديمها¹¹، وعليه فالحجاج يتعلق بالخطاب الطبيعي من جهتي الاستعمال والمضمون، فهو ذو فعالية تداولية جدلية، ولا يتوقف دوره كأداة تسعى إلى إفحام الخصم وإقناعه بمشروعية وصلاحيية الموقف فقط.

في العملية الحجاجية لا بد أن يكون المستمع في نفس مرتبة المتكلم، باعتبارهما عضوين فاعلين في التفاعل الخطابي، الشيء الذي يوافق مفهوم التفاعل L'interaction ومن ثمة إلى التداول، دون أن يكون السامع كائنا سلبيًا يقع عليه فعل الحجاج، كما في بعض التعريفات التي تذهب إلى أن " الحجاج هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية"¹².

¹⁰ - ينظر: محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة (مقال)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج28، ع يناير - مارس 2000، ص 57 ، 58.

¹¹ - ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 106.

1- C. Plantin, Essais sur L'argumentation, Paris, Éditions Kimé, 1990, p 146

وكما قيل فلا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل باللسان¹³، فقد ذهب البعض، إلى أن الحجاج ما هو إلا انتهاج طريقة معينة في الاتصال غايته الاستمالة والتأثير¹⁴، فليس الحجاج سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، والإفضاء إليها ثم محاولة حيازة انسجامها الايجابي والتحامها مع الطرح المقدم.

وعلى صعيد آخر يمكن القول بأن الحجاج في ارتباطه بالمتلقي يؤدي إلى حصول عمل ما أو الإعداد له، ومن ثم سيكون فحص الخطابات الحجاجية المختلفة بحثا في صميم الأفعال الكلامية وأغراضها السياقية، وعلاقة الترابط بين الأقوال التي تنتمي إلى البنية اللغوية الحجاجية¹⁵، على أن الحجاج هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها، وتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع.

وقد عرف طه عبد الرحمن الحجاج بأنه " كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"¹⁶. ومع الإقرار بصحة هذا التعريف نرى أنه وقف عند الحد الشكلي الظاهري للحجاج، أي التلفظ، ومن ثم مجرد الإفهام، ولكنه لم يتجاوز ذلك إلى الغرض التداولي من الحجاج بغية حصول الإقناع .

¹³ - ينظر: طه عبد الرحمن، التواصل والحجاج، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (د ط)، 1993-1994، ص5.

¹⁴ - ينظر: عبد الحليم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم - سورة الأنبياء نموذجا - مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع102، السنة السادسة والعشرون - نيسان 2006، ص 49.

¹⁵ - ينظر: نعمان بوقرة، نظرية الحجاج، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع407، آذار 2005، ص 56.

¹⁶ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص 35.

فنواة الحجاج وجود خلاف جزئي بين تمثيلات المخاطبين لنفس القضية، تعمل الأطراف المتحاجة بواسطته على تعديل أو تحويل جهة النظر المختلفة إلى وجهة أخرى، بهدف الإقناع بها داخل إطار احتمالي غير ملزم، مشروط باحترام القواعد الأخلاقية والمعرفية للمحاجة¹⁷.

أما طريق الحجاج فهو أسلوب يتجه نحو مخاطبة العقل وآلياته العقلية، إعمالا للحواس والإدراك والتدليل على الممكن¹⁸.

وتطول القائمة بالتعريفات إن مضينا في إيرادها ضمن النظرية الحجاجية، حتى نراها تدنو كثيرا من جوهر الحجاج تارة وتتأى عنه قليلا تارة أخرى، إلا أنه يمكن حصر منطلقات تلك التعريفات باعتبار " الحجاج لا يتصل بضرب من الخطابات مخصوص بل يشمل كل ضروب الخطاب الشفوي والمكتوب الأدبي وغيره "¹⁹.

فأساس كل تلك التعريفات كون الحجاج طريقة تستخدم للتحليل العقلي، أو كون الحجاج طريقة من التحليل والتعليل يستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين، أو هو طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين، أو كونه فعلا لغويا أو عملية اتصالية أو جنسا من خطاب تفاعلي، أو هو سياق من الفعل اللغوي تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلفة في شأنها.

¹⁷ - ينظر: أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص 170.

¹⁸ - ينظر عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير - مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل -، إفريقيا الشرق، (د.ط)، 2006، ص 19، 20.

¹⁹ - محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، سلسلة آداب كلية الآداب منوبة، تونس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية (د.ط)، (د.ت)، ص 394.

وخلاصة كل تلك التعريفات " أن الحجاج جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً، قاصداً إلى إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"²⁰.

يبقى أن نشير إلى أن الحجاج قد يرد بمعنى الاستدلال، البرهان، الإقناع، والجدل؛ إذ يطلق على الحجاج الذي يحمل معنى الاستدلال اسم (الاستدلال الحجاجي)، وهو يوظف في الحالة التي يرتقي فيها المعروض عليه إلى درجة من يتعارض مع " العرض " في إنشاء معرفة نظرية مشتركة من خلال تقويم العرض وتحقيق الإقناع.

ويستلزم الاستدلال الحجاجي مقتضيات الحال أو المقام وكذا التفاعل مع المجال التداولي، بسطاً للآليات الاستدلالية، كإخفاء الكثير من المقدمات والنتائج، بحسب المعارف المشتركة والمعتقدات الموجهة والمطالب الإخبارية، والأغراض العملية بين " المعارض " و " المعارض عليه "، وقد يكون النص الاستدلالي من الصنف البرهاني إذا كانت علاقاته قابلة للحساب الآلي، أو من الصنف الحجاجي إذا كانت هاته العلاقات تأبى الخضوع لمثل هذا الحساب²¹.

كما أن الاستدلال عملية ذهنية " متصلة " Discursive ، بها يتم الانتقال من مقدمات إلى نتائج بالاستناد إلى علاقة منطقية تربط الأولى بالثانية، وهذه العلاقة هي الاستنباط أو الاستدلال، كما يتحقق الاستدلال في أقاويل الإنسان جميعاً بشكلين جامعين: القياس والاستقراء.

²⁰ - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 189.

²¹ - ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 36.

ويمتد مجال هذا النشاط البرهاني للخطاب (الحجاج)، كما يمتد إلى أي شكل من النصوص الاحتجاجية كالسياسي مثلاً²².

وهناك الجدل وقد عرّفه ابن منظور على أنه " مقابلة الحجة بالحجة " حيث يفسر الجدل بجعله مرادفاً للحجة، والدليل قوله: هو رجل محاجج أي جدل، وقد سبق تبيين ذلك.

كما يطلق على الجدل في التراث العربي الإسلامي " علم الكلام " أو " المناظرة"، بحيث تصبح الحجة حاملة لصفة الجدل، ذلك أن معنى الجدل تقرير الخصم على ما يدعيه من حيث أقر، حقا كان أو باطلاً أو من حيث لا يقدر الخصم أن يعاند مجادله لاشتهار مذهبه ورأيه فيه، لأنه يزري على مذهبه ورأيه فيه²³.

وباعتبار الحجاج ينتمي إلى عائلة الأفعال التي تهدف إلى الإقناع، فإنّ " العديد من الوضعيات التواصلية تستدعي وجود شخص مرسل إليه، أو جمهور يتبنى سلوكاً معيناً أو يقتسم وجهة نظر معينة"²⁴، ونفهم منه أن الإقناع أعم من الحجاج، إذ الحجاج محتوي في الإقناع، و " الإقناع حمل السامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك"²⁵، كما أنه صيغة

²² - ينظر: هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائي لتحليل النص -، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط)، 1999، ص 25 ، 26.

²³ - ينظر: عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط)، 1991، ص 254.

2- Philippe Breton, L'argumentation dans La communication, 3..édition, La découverte. Paris, 2003, p3.

²⁵ - علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، مكتبة رحاب، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص 13.

اتصالية مهمة إذ يقصد إلى التعبير عن شعور أو حالة أو نظرة فردية ، أو وصف وضعية ما بطريقة موضوعية إقناعية، بتقديم براهين جيدة للمخاطب لكي نلحقه برأي²⁶.

2/- الحجاج في التراثين: اليوناني والعربي

2-1- الحجاج في التراث اليوناني:

نرى أنه من الضروري النظر في أوليات أو جذور الحجاج، وهذا قبل الخوض في النظريات الحجاجية الحديثة، وذلك بالرجوع إلى التراث اليوناني الذي عرف العديد من أنواع الخطابة، سياسية، قضائية، أو تلك التي عُرف بها السفسطائيون وهي الخطابة الجدلية، ثم الخطابة عند أرسطو كفن ذي مضمون وهدف، على أن كل هذه الأنواع المختلفة من القول الخطابي اعتمدت الحجاج والجدل طريقة في المناقشة والاستدلال، وذلك بغية الوصول إلى أهداف بعينها.

2-1-1- الحجاج السوفسطائي:

السوفسطائيون يمثلون تيارا فكريا ظهر في العالم الإغريقي وقوي بأثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، والصفة " سوفيستاس " (Sophists) كانت في الأصل لقب تقدير، وهي تعني في معناها الاشتقاقي " الحكيم والرجل ذو الكفاءة المتميزة في كل شيء"²⁷.

هذا وقد ترجمت كلمة " Sophists " في الدراسات العربية القديمة بمعنى المغالطة والتمويه والقياس والخداع²⁸، هذا لأنهم لا يبحثون عن الحقيقة والعدل وإنما همهم النجاح وإفحام الخصم وإحراجهم، وسبيلهم في ذلك زيف القول والحجج الواهية وبراعة القول.

1- Philippe Breton,op.cit.p3.

2- Moreau (josph):Platon devant les sophists of chop: qu'est ce qu'un sophiste?
Paris 1987, p7.

ومع ذلك فقد كان لهم دور فعال في الممارسة الحجاجية، وساعدهم في ذلك براعتهم في الحجاج والجدل، الشيء الذي يجعلهم يخوضون في ذات المسائل الفلسفية.

وهم يزعمون أن الخطيب البليغ يستطيع أن ينصر الحق كما يستطيع أن ينصر الباطل بقوة حجته أو براعته بالأقيسة والقضايا الظاهر منها والمضمر ، ومردّ ذلك عندهم أن الحقيقة شيء نسبي والمُحكّم هو الإنسان، كما استعملوا أغاليط القياس Pralogiesme وألوانا من الحجاج للإفحام والإقناع وكذا الإثارة العاطفية²⁹.

وتأكيدا لأهمية السوفسطائيين وضرورة رفع الغبن المسلط عليهم، ذهب المتخصصون في الحجاج إلى أنه لامناص من الاعتداد في كل دراسة بمكتسباتهم ومزاياها والتي منها:

أ - القول بتضاد الأصوات، بمعنى أن لكل خطاب خطابا مضادا، ولكل حجة حجة تنقضها لأنها تتبني على رؤية مخالفة للأشياء وتصف واقعا مغايرا.

ب- التنبيه إلى ما قد يرشح على الأقيسة من أغاليط وضرورة بناء نظام لجرح القياس وتعديله، وذلك بزرعهم الحيرة والمفارقة في المشهورات، وهذه الشعبة من الدرس ستزدهر فيما يسمى بالقياس المغالطي.

ج- رسمهم مفهوم الاحتمال أفقا لتعامل الناس وتفاعلهم مع بعضهم.

²⁸ - ينظر: هادية فضل الله، السوفسطائية من وجهة نظر منطقية، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ع99، السنة21، شتاء 2000، ص 149.

²⁹ - ينظر: محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 2006 ص 104.

د - إتقانهم المجادلة وكل صنوف المحاورات التي تقوم على الاستدلال المنظم بقواعد مضبوطة³⁰.

ومع ذلك تبقى الخطابة السوفسطائية عبارة عن حجاج استهواء، فهي قول يعقده صاحبه على الظن لا على العلم، ويقصد به إلى الإقناع معتمدا في ذلك على ما يوافق " اللذة " لذة السامع والقائل، لا الخبر، لذة الاستهواء بالنسبة إلى المقول إليه، ولذة النفع بالنسبة إلى القائل. ولعل أول من تصدى لهم سقراط إذ اتهمهم بتمويه الخطأ بالمنطق المزخرف وقوة البلاغة، واختلف معهم لقولهم بأن الإنسان معيار الحقيقة، واختلف معهم في مفهوم الأخلاق، والتي تعني عنده السعادة في حين تعني عند السوفسطائيين سيطرة الإنسان على غيره³¹.

كما رأى أفلاطون أن الحجاج السوفسطائي يزيّف استعمال القول بما هو فضاء للتواصل بين الإنسان والإنسان، فهو حجاج يقوم على التملّق (Flatterie)، والتملّق تسلط بالقول ماكر مقنع³².

2-1-2- الحجاج عند أفلاطون

آمن أفلاطون بضرورة تأسيس خطابة بديلة أراد أن يجعلها جدلية فلسفية تهدف إلى بلوغ الحقيقة، فالجدال عنده لا يختلف عن العلم، إلا اختلافا يسيرا، فهو _ أي الجدل _ " الوسيلة التي أراد بها أن ينقل _ في تصوره _ الحجاج عموما من مجال الظن والاحتمال إلى مجال الحقيقة

³⁰ - ينظر: حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد...، ص 45.

³¹ - ينظر: هادية فضل الله، السوفسطائية من وجهة نظر منطقية، ص 158.

³² - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 84.

«³³؛ أي أنه أراد أن يُخلص الخطابة من المحتمل والظن، وهو كما نعلم عمدة الخطابة السوفسطائية.

إلا أننا لو ناقشنا هذه الفكرة التي ذهب إليها أفلاطون لوجدناها تختلف عما يقول به الحجاجيون الآن، إذ أن الحجاج قائم على المحتمل والمتوقع لا اليقيني، فهو مطابق لما قال به السوفسطائيون على الأقل في هذه النقطة، وربما ذهب أفلاطون إلى ذلك بحكم أن القدامى كان الظن عندهم يقوم على الممكن والمحمّل.

وقد رأى أفلاطون أن الأركان التي تُبنى عليها صناعة الخطابة ثلاثة* وهي:

أ - اعتماد المنهج الجدلي في بناء القول الخطبي، وقد بيّنا كيف أنه يرى بأن الجدل صناعة ووسيلة يبلغ بها إلى الحقيقة.

ب - معرفة أنواع النفوس وما يوافقها من أنواع الأقاويل، ومداره مبدأ التناسب بين

القول والسامع، وذلك بأن النفوس تختلف في درجات تهيئتها لقبول التأثير.

ج - مراعاة مبدأ التناسب في مستوى الأسلوب أي ما يناسب المقامات من أساليب³⁴.

وقد فحص أفلاطون موضوع الخطابة في ضوء المقابلة علم/ ظن وذكر أن الإقناع نوعان:

إقناع يعتمد العلم وإقناع يعتمد الظن، وهذا الثاني هو موضوع الخطابة في رأيه، وهو موضوع

الخطابة عموماً حسب أرسطو، ولما كان العلم يقوم على مبادئ صادقة وثابتة وأزلية في تصور

³³ - المرجع نفسه، ص 81.

* - لم يذكر أفلاطون هذه الأركان الثلاثة مجتمعة، وإنما استخلصت من مجموع ما قال.

³⁴ - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 83.

القدامى كان الإقناع المعتمد عليه مفيدا، يكتسب منه الإنسان معرفة ولما كان الظن يقوم على الممكن والمحتمل كان الإقناع المعتمد عليه غير مفيد³⁵.

كما قيّم أفلاطون وظيفة الخطابة في ضوء المقابلة خير/ لذة، وجعل هدف الخطيب الوحيد هو أن يولد في نفوس أبناء وطنه العدل وينزع عنها الظلم، وأن يكسبها الفضائل كلها ويمحو عنها الرذائل كلها³⁶، فقد بنى تقييمه لهذه الممارسة القولية في إطار تصوره لما يحقق سعادة الإنسان، ومما سبق يمكن القول بأن أفلاطون كان يعتقد أن فن الإقناع يأتي من جوهر المعرفة الحقّة لأي موضوع سواء أكان سياسيا أو قانونيا أو غير ذلك³⁷.

ومن ثم نرى أن تصور أفلاطون للجدل يختلف عن تصور سائر الفلاسفة الإغريق له، فالجدل عنده يقترب من العلم، وهو وظيفة أخلاقية في المقام الأول والغرض منه الوصول إلى الحقيقة، لا الممكن أو المحتمل كما هو الحال في الجدل السوفسطائي وكما هو الحال في الجدل الأرسطي كما سنرى.

2-1-3- نظرية الحجاج عند أرسطو

خالف أرسطو أستاذه أفلاطون في أن الجدل سبيل إلى الحقيقة وذلك أن أرسطو في تصنيفه للأقوال بحسب قدرتها على قول الحقيقة جعل القول البرهاني في المقام الأول فالقول الجدلي فالقول الخطبي ثم الشعري.

³⁵ - ينظر: هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، (د ط)، 2002، ص 20، 21.

³⁶ - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 67 .

³⁷ - ينظر: عبد الله حسن المسلمي، أفلاطون: محاوره متكسينوس أو عن الخطابة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ط1، 1972، ص 36.

فالجدل والخطابة عند أرسطو يقعان في مجال الممكن والمحتمل، أي يقبل الخلاف والاختلاف وتعدد الآراء من حوله، وقد ذكر أن الجدل ليس المطلوب منه الحقيقة بالأساس خلاف أفلاطون، وإنما المقصود منه هو امتحان ما هو خلاف في المشهورات، أي في عوالم الاعتقاد كما يقال اليوم، للاقترب أكثر ما يمكن من الحقيقة³⁸، دون البقاء في منطقة الممكن أو المحتمل، والمحتمل كما يقول بارت تقبل الأضداد³⁹.

ويرى أن الجدل أقرب إلى دائرة الحق لاعتماده على العقل، في حين أن الخطابة صناعة مدارها " الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان"⁴⁰، وهذا التعريف للخطابة شبيه جدا بتعريف الحجاج، خاصة وأن العلاقة بين أطرافها " تتأسس على اللغة والخطاب، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل جنسا من التأثير يوجه به فعله أو يثبت لديه اعتقادا أو يمليه عنه أو يصنعه له صنعا "⁴¹.

وبذلك حوّل أرسطو مركز الثقل في صناعة الخطابة من التأثير إلى الإقناع، وهو أحد سبل الحجاج، كما نبّه أرسطو إلى شيوع استعمال الحجاج في عملية التواصل الكلامي عموما، على أن الناس _ حسب رأيه _ يمارسون الخطابة والجدل بنسب متفاوتة لأنهم إنما يحاولون نقد قول أو تأييد رأي أو الدفاع عنه ونحو ذلك.

³⁸ - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 155.

³⁹ - رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط)، 1994، ص 55.

⁴⁰ - أرسطو، الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986، ص 59.

⁴¹ - حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 12.

فالخطابة عند أرسطو تداولية في صميمها Pragmatic مع أخذنا في الاعتبار الاختلاف الكبير في السياق المعرفي المنتج لآليات كل منهما _ يعني الخطابة والتداولية _، فالتداوليون يرون أن التداولية عبارة عن دراسة استعمال اللغة دون أن تنحصر ضمن الكينونة اللغوية بمعناها البنيوي الضيق، وإنما تتجاوزها إلى أقوال الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة حسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين⁴²، كما نجد في خطابة أرسطو الاهتمام بذات الأطراف الثلاثة (القائل - القول - والمقول له) ومحصلة التفاعل بين هذه الأطراف الثلاثة هي التي تحقق حسب أرسطو عملية التأثير والإقناع بالقول.

بقي أن نشير إلى بناء الخطاب الحجاجي عند أرسطو، إذ جعل المكونات النصية للخطاب أو أجزاء الخطاب الرئيسية ثلاثة:

أ - الإيجاد: الحجج، مصادر الأدلة.

ب - الترتيب: وضع هذه الأدلة في مواضعها على امتداد الخطاب حسب نظام معين.

ج- الأسلوب: (العبارة، الصياغة)، وضع الحجج في شكل قول على مستوى الجملة.⁴³

أي يمكن أن نستخلص حسب مقولات أرسطو عناصر الخطابة متمثلة في النقاط المذكورة نلخصها فيما يلي:

- عنصر الإقناع أو البراهين.

- الأسلوب أو التنظيم.

⁴² - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص 28.

⁴³ - ينظر: محمد العمري، الخطابة أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (دط)، 1999، ص 273.

- ترتيب أجزاء القول.

إلا أن أرسطو في خطابه كان لا يهتم من لغة النص والخطاب إلا ببعض المظاهر المساعدة وبالقدر الذي حدده هو⁴⁴؛ أي منطقية الأساليب والطرق المعتمدة لإقناع السامع أو جعله يقتنع لما يُروَّج من آراء.

وكما رأينا فقد كان أرسطو ينطلق من كون البلاغة (الخطابة) إنما هي " الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع"⁴⁵، وهذا الإقناع يتوقف على ثلاثة أركان: الايتوس، والباتوس، واللوجوس.

وقد قال في هذه المكونات الثلاثة: " أما اللاتي ينبغي أن يكون القول فيهنّ على مجرى الصناعة فثلاث، إحداهن الإخبار من أي الأشياء تكون التصديقات، والثانية ذكر اللاتي تستعمل في الألفاظ، والثالثة أنه كيف ينبغي أن ننظم أو ننسق أجزاء القول "⁴⁶.

ويطلق على الثالثة القول نفسه من حيث هو يثبت أو يبدو أنه يثبت، وهو ما يمكن أن نطلق عليه في اليونانية بحجة " اللوجوس " "Logos" أي الكلام أو العقل، وهو ما يبينه الخطاب من سياسة قولية تعتمد وجوه الاستدلال المتمثل في القياس والاستقراء.

أما دلالة القول هذه فقد درسها أرسطو في ثلاثة فضاءات هي: القول، والاعتقاد، وجهة الوجود، فإذا كانت المقدمات صادقة أولية سمي القياس برهانيا، وإذا كانت المقدمات ذائعة مشهورة

⁴⁴ - ينظر: حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 34.

⁴⁵ - أرسطو، الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، ص 29.

⁴⁶ - المرجع نفسه، ص 181.

سمي القياس جدليا⁴⁷، وإذا كانت المقدمات مظنونة سمي القياس خطابيا، وإذا كانت المقدمات من التي لا يظن أنها مشهورة وليست مشهورة، أو يظن أنها صادقة وليست بصادقة سمي القياس سوفسطائيا.

وأظن أن مقارنة في تعريف الخطابة بين السوفسطائيين وأفلاطون وأرسطو كفيلة بأن تكشف عن كثير من المسائل الحجاجية التي يعولون عليها في مخاطبتهم، فهي عند السوفسطائيين " صناعة إقناع " وعند أفلاطون " صناعة قيادة النفوس بالقول " وهي عند أرسطو " الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان "، وقراءة متأملة لهذه التعريفات تكشف لنا الاختلاف فيما يدعو إليه كل طرف.

فكلمة إقناع لم ترد في تعريف أفلاطون ووردت في تعريف السوفسطائيين وأرسطو على ما بين هذين الأخيرين من تباين في الغاية، وقد وردت بدلا منها " قيادة النفوس "، فـ " أفلاطون لا يهتم من الحجاج كسب القضية أو إحراج الخصم أو تحقيق نجاح، وإنما يهتم تحقيق الفضيلة للنفس⁴⁸ ".

2-2 - الحجاج في النص التراثي العربي

1-2-2 - الجدل والمناظرات:

ربما بدا الحجاج في النص التراثي العربي بادئ الأمر في شكل جدل ومناظرات في علوم ومعارف شتى، والمناظرة كما وجدت في تراثنا، عادة هي حوار بين طرفين وجدل بين خصمين

⁴⁷ - ينظر: أبو الوليد بن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، تح: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980، ص 34.

⁴⁸ - علي محمد علي سليمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، ص 37.

حول موضوع واحد من وجهتين مختلفتين في النظر، ولكل طرف آلياته وحججه التي يدافع بها عن موقفه أو يهاجم بها موقف الآخر⁴⁹.

في العصر العباسي شهدت المناظرة قمة ازدهارها وارتقائها وذلك لطبيعة المجتمع العباسي آنذاك، حيث عرف انفتاحاً عقلياً ومعرفياً على أكثر من صعيد في المعارف والأديان والمذاهب والفلسفات، فكانت هناك عدة مناظرات عقائدية، وفقهية، وفلسفية، ونحوية، وأدبية، كما ابتدعت مناظرات على ألسنة المناظرين كتلك التي ابتكرها الجاحظ، ونضيف إليها المناظرات التي ابتدعها أبو حيان التوحيدي، وتم فيها تحويل الأفكار إلى أشخاص متحاورة وتحويل المعاني المجردة إلى تجارب حيّة⁵⁰.

وكان خطاب المناظرة في التراث العربي وما زال من أهم أنواع الخطاب الذي ينتجه المرسل للإقناع؛ إذ برزت وتبرز فيه سمات الكفاءة التداولية والقدرة على توظيفها طبقاً لما يتطلبه السياق، من أجل بلوغ هدف الخطاب الكلّي الذي يصبو إليه " فالإقناع هو المطلب الأساسي من الخطابات التي تدور بين هؤلاء الذين تختلف توجهاتهم"⁵¹، سواء أكان مجال المناظرات المذاهب الدينية أو اللغوية أو الفلسفية أو غير ذلك كله.

وقد كان مجتمع العصر العباسي على صعيد الممارسة الحجاجية أشبه بالمجتمع الأثيني القديم في انفتاحه على التعدد والاختلاف، وممارسته الحجاج على كل المستويات، حتى أنه _ أي الحجاج _ أصبح بمثابة لعبة احتقالية يمارسها الكثيرون من أجل إظهار البراعة والافتقار على الاستدلال الصحيح أو الاستدلال الفاسد تماماً كما كان يحدث في الحجاج السوفسطائي.

⁴⁹ - ينظر: هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، ص 44.

⁵⁰ - راجع تفصيل ذلك: أحمد أمين، المناظرات في التراث الأدبي العربي، ص 28 وما بعدها.

⁵¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 449.

والمناظر إما أن يكون خصما مناصبا للقائل في القول الذي يقصد به إقناع السامع عائقا له أن يقنعه فيه ، أو يكون خصما في الظاهر يتعقب ما يقوله القائل ويستقصي عما يأتي به، وقصده في الباطن ليزداد قوله عنده إقناعا⁵².

ثم ما لبث أن نشأ " علم الكلام " وهو علم قائم بذاته، كان قد نشأ من الاختلاف حول أصول الاعتقاد، وكان مما يطلب من المنتمين إليه أن تكون لهم قدرة عالية على المخاصمة والمقارعة، والظهور على الخصوم لبيان فساد رأيهم معتقداتهم⁵³.

وقد تجلّى الجدل أظهر ما يكون عند أصحاب هذا العلم، وذلك فيما أدخلوا من طرق حوار وسفسطة وأدلة وبراهين ومقدمات وأقيسة، فالجدل هو أساس علم الكلام وركيزته.

في الجدل الظاهري يستعمل المجادل الأساليب المغالطية، كما قد يحرف المجادل القول ويخرجه عن سياقه، أو يعمل على قلب الحقائق، بمعنى " أن يحتجّ للمذموم حتى يخرجه في معرض الممدوح، والممدوح حتى يصوّره في صورة المذموم، وهذه هي براعة الجدل الصوري الفارغ"⁵⁴، وقد مورس الجدل الصوري الفارغ من قبل المتكلمين، وغيرهم من خطباء القرنين الأول والثاني الهجريين.

⁵² - ينظر: أبو نصر الفراءى، كتاب في المنطق: الخطابة، تحقيق: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (د ط)، 1976، ص 29.

⁵³ - ينظر: حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص24.

⁵⁴ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ع164، أغسطس / آب 1992، ص 155.

هذا وإن من الأشياء التي من شأنها أن يكون بها الإقناع؛ الضمائر والتمثيلات، فالضمائر منزلتها في الخطابة منزلة البراهين في العلوم والمقاييس في الجدل.

والضمير قول مؤلف من مقدمتين مقترنتين، ويكون الإقناع بحسب النتيجة التي تنتج عنها، وإنما يصير مقنعا بأن يضمير المتكلم إحدى مقدمتيه ولا يصرح بها ولهذا سمي الضمير مضمرا⁵⁵.

وذهب ابن رشد إلى المشكلة بين الجدل وصناعة الخطابة وجعلهما متناسبتين إذ قال بأن: " صناعة الخطابة تناسب صناعة الجدل وذلك أن كليهما ترومان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير...⁵⁶، وإن كانت الخطابة العربية في جانب منها ما هي إلا صناعة قياسية غرضها الإقناع وما يحصل في نفس السامع من قناعة هي الغرض الأقصى من أفعال الخطابة⁵⁷.

وبنظرة سريعة في تراثنا العربي يمكن أن نميز ألوانا عدة للحجاج، ربما اتحدت فيما يلي:

أ - ثمة حجاج يعتمد أساليب مغالطية، وغرضه الإيقاع بالخصم وإدانتة ويدل على سوء طويّة المحارب، ولعلّ من أبرز أمثله المناظرة الشهيرة التي جرت بين الأوزاعي العالم السني (175هـ) وبين غيلان الدمشقي الذي يعتبر من أوائل المتكلمين في قضية القدر، وفي المقابل هناك جدل أو حجاج يعتمد أساليب مغالطية، وتتم فيه المداورة بالمعاني المختلفة، ومدح الشيء ونقيضه إلا أن القصد منه حسن، فمن أغراضه الضحك والسخرية، وأبرز نماذجه ما نجده في كتاب البخلاء للجاحظ.

⁵⁵ - ينظر: أبو نصر الفارابي، كتاب في المنطق: الخطابة، ص 31.

⁵⁶ - ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، (د ط)، (د ت)، ص 3.

⁵⁷ - ينظر: أبو نصر الفارابي، كتاب في المنطق: الخطابة، ص 7.

ب- ثمة حجاج يهدف إلى مجرد إظهار البراعة والاقتدار في الاستدلال،

كحجاج " عبد الملك بن صالح " في ذم المشورة.

ج- كما أنّ ثمة نوعاً آخر من الجدل والحجاج يقوم على العقل والمنطق،

ويهدف إلى البحث عن الحقيقة والانتصار لرأي دون آخر دون تعسف، فالحجة التي

يعتمد عليها هي حجة العقل، وتمثل محاورات التوحيدي ذروة هذا اللون من الحجاج⁵⁸.

2 - 2 - 2- البلاغة العربية القديمة والحجاج

انطلق حمادي صمود في نظريته لهذه المرحلة على اعتبار أن بلاغة الحجاج " أدقّ مواضيع

الدرس البلاغي اليوم وأكثرها أهمية بالنسبة إلينا "⁵⁹، لأنها تعدّ أهم مظهر تتجلى فيه خاصية

التداخل المعرفي؛ إذ إن بلاغة الحجاج تقوم على استغلال جميع العناصر المجاورة المساعدة في

فهم الخطاب وتوصيله.

غير أنّ البلاغة العربية ظلت لفترة طويلة مختزلة في باب العبارة والأسلوب ولم تعمل على

توسيع وتحليل المحاولات التي تناولت الحجة والبرهان منذ الجاحظ وحتى الجرجاني.

لكن إعادة قراءة هذا التراث كفيلة بإعادة ترتيب عناصر النظرية البلاغية العربية بطريقة

مختلفة عن السابق، بحيث يبرز تصور واضح لبلاغة الشعر وآخر لبلاغة الحجاج، لأن البلاغة

⁵⁸ - ينظر: هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، ص (48 - 50).

⁵⁹ - حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1999، ص 8.

العربية في عصر التدوين كانت تستجيب لحاجات معينة نجمت عن سياقات فكرية ومذهبية واجتماعية بالغة الخصوصية⁶⁰.

كما أن البلاغيين العرب القدامى عندما درسوا مآتي إعجاز النص القرآني أرجعوه إلى الشكل والهيئة وتصاريف الكلام، ولم يدر بخلدهم أن يأتي إعجاز القول أيضا من الحجج التي بينها، والسياسة التي ينتجها في ترتيبها للتضافر مع الشكل والهيئة فيبلغ النص من سامعه قصده⁶¹.

والبلاغة العربية نشأت في " أحضان الشعر " والشعر فضله في هيئة القول فيه لا في قدرته على قول الحقيقة والمقارعة بالحجة، فإذا كان الشعر وهو النمط الغالب عليهم ومعقد القيمة الأدبية لديهم، يستمد كونه من شكله وفضله من بنيته، لم نعجب أن كان الإعجاز في الخطاب مناط أساليب القول لا مناهج لأدلة.

فالبلاغة العربية بالمفهوم الكلاسيكي أو التراثي لها _ من أنها عرض للأسباب المتصلة بظاهر القول _ إنما هي " بلاغة عبارة وجملة لا بلاغة خطاب وسياسة القول وأساليب ترويجه ونفاذه إلى النفوس "⁶²، ليطرح تساؤلا، هل أن البلاغة العربية انحصرت في هذا المجال _ العبارة والشكل _ دون الإحالة على خصائص الخطاب الأخرى _ أي محتواها الخطابي والسياقات الأدبية المتعلقة به _ ؟ أم أن القضية تكمن في إعادة النظر والبحث في نصوص البلاغة التراثية؟ أي إشكالية قراءتها، من ثَمَّ جاءت فكرة البحث في البلاغة والحجاج " بل في الحجاج و علاقته

⁶⁰ - ينظر: محمد سالم ولد محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، 2002، ص 287.

⁶¹ - ينظر: حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، ص 110.

⁶² - حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 5.

بالبلاغة لأنه هو الذي يبدو في نهاية الأمر مغموراً في التراث البلاغي حسب النظرة السائدة إليه⁶³.

وعلى الرغم من وعي بعض البلاغيين - كالجاحظ كما سنرى - بقضية الحجاج في القول وأهميتها إلا أن الذين جاؤوا بعده من البلاغيين والنقاد لم يعطوا هذه النظرية حقها من الدرس والتحليل وانشغلوا عنها بالتفكير في العبارة وما يتبعها من تقليبات ووجوه، حتى غدت البلاغة بلاغة عبارة لا بلاغة نص، وبلاغة جمل لا بلاغة خطاب⁶⁴، وعلى الرغم من أن البلاغة معنية بدراسة الخطاب بوصفه متوالية من الجمل، ويقوم على استراتيجيات تأثيرية تبدأ من الإيقاع " الصوت "، وتنتهي بالنص، بحيث تتضافر الحجج وفق منظومة فكرية، واستراتيجية قولية، تشكّل في مجملها الخطاب.

فلماذا أهملوه هذا الإهمال علماً بأن في مقدورهم جمع قضاياها وتحليلها، وبيان كيفية اشتغاله في الخطاب، يرجع ذلك لأسباب عدة لعل من أهمها:

أ - ارتباط الحجاج بالخطابة عند اليونان من قبلهم، والغاية من الحجاج هي تحقيق نجاحات ومكاسب آنية، خاصة عند السوفسطائيين، بغض النظر عن صحة الحجج والوسائل وهذا يتنافى مع المبادئ الإسلامية.

ب - إن قضايا الحجاج اهتم بها المتكلمون والمناطق في إثبات صحة معتقدهم وإبطال معتقدات المذاهب الأخرى، ولهذا درس عندهم من الجانب البرهاني والجدلي.

⁶³ - المرجع نفسه، ص 6.

⁶⁴ - ينظر: المرجع السابق، ص 20.

ج- أنهم يعرضون لمباحث الحجاج تحت مسميات مختلفة، وبصورة مقتضبة، فلم يحددوا له مصطلحا واحدا يعرف به كما حددوا مصطلحات مباحث البلاغة الأخرى كالتشبيه والاستعارة وغيرهما، فهم لم يجمعوا مسائله تحت مسمى واحد، وهذا دليل على عدم وضوح الرؤية عندهم بالنسبة للحجاج بوصفه إستراتيجية تشتغل في الخطاب عبر وسائل وأساليب قائمة فيه.

أضف إلى هذا أنهم جعلوا الإخبار هو الغاية الأولى للخطاب، أما الإقناع الذي هو نتيجة الحجاج وغايته الكبرى فقد جاء في مرتبة ثانوية، لهذا حصروه في مباحث الجدل والاستدلال⁶⁵، فهذه أهم مباحث الحجاج عند البلاغيين العرب القدامى، وقد تناولوها كما قلنا آنفا من منظور نظرية الفهم والإفهام، وأن تلك الإشارات الحجاجية لا تشكّل وعيا تاما بنظرية الحجاج.

2 - 2 - 3- تصورات نظرية في الحجاج والجدل

أ - الجاحظ والنظرة الخاصة للحجاج:

التقت الجاحظ في عدة مواضع من كتبه إلى الحجاج والمسائل الحافلة به، فمن ذلك أنه قالت بعض الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. وقال في موضع آخر " كان سهل بن هارون يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة "⁶⁶.

والمأمل في مسرد تعريفات البلاغة التي أوردها الجاحظ في البيان والتبيين يقطع في غير شك أن البلاغة هي الحجاج، وذلك أن كل حد من هذه الحدود التي عرض لها الجاحظ تتناول

⁶⁵ - ينظر: علي محمد علي سليمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، ص (53 - 56).

⁶⁶ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج1، ص88.

قضية من قضايا الحجاج الكبرى، وآلية من آليات اشتغاله في الخطاب: الفصل والوصل، وتصحيح الأقسام والبصر بالحجة، والتماس حسن الموقع إلى غير ذلك من القضايا.

ومعلوم أن غاية الحجاج هي استمالة القلوب، وقد أحاط الجاحظ هذه الغاية بالخلق الإسلامي الذي يضمن عدم انحرافها عن الحق والصدق، حتى لا تستغل الوسائل الحجاجية في تحقيق هذه الغاية بصورة مخادعة، فيتوهم صدق القضية وهي كاذبة ف" لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يُحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعمل المواربة"⁶⁷.

كما يمكن أن نستخلص بعض الآراء للجاحظ في ضوء القول الخطابي الحجاجي، خاصة من خلال كتابه " البيان والتبيين " فيما يلي:

أ - أرجع الجاحظ وظائف البيان إلى ثلاثة وظائف أساسية:

- الوظيفة الإخبارية المعرفية (حالة حياد) وفيها يتم إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام.

- الوظيفة التأثيرية: (حالة الاختلاف) وفيها يتم تقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.

- الوظيفة الحجاجية: (حالة الخصام) وفيها يتم إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار، وقد كان تركيزه على الوظيفة التأثيرية.

ب- تناول الجاحظ قضية جوهرية في الخطاب الحجاجي وهي قضية المقام

الخطابي؛ إذ يرى أنه " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين

⁶⁷ - المرجع السابق، ج1، ص 197.

وبين أقدار الحالات "68، فهو في الأول أراد أن يبين بأن لكل طبقة معينة في المجتمع حسب المستوى التعليمي أو الوظائف يجب أن يراعى فيها المعنى المتكلم به فكل طبقة معجمها الخاص والذي لابد أن يراعيه المتكلم، أمّا حديثه عن أقدار الحالات فيتصرّف إلى مناسبات القول، فقد يكون المستمع واحدا ولكن تختلف المناسبة فتختلف لذلك المعاني.

ولا شك أن اجتهادات الجاحظ وتصوراته النظرية الخاصة بالحجاج لها أهميتها في حدود السياق الزمني الذي قيلت فيه " القرن الثالث الهجري "، إلا أنها مجرد تصوّرات جزئية لا ترقى إلى مستوى النظرية المتكاملة، أو إلى مستوى مشروع نظرية⁶⁹.

كما أنّه لم نجد في الثقافة والتراث العربي ما يلفت الانتباه بعد الجاحظ، وذلك في المستوى النظري، بل ذهب الدراسات البلاغية إلى منح شكلية أخرى و " قد جنى هذا الاختزال كثيرا عن البلاغة، إذ جعلنا ننسى جانبها التداولي المرتبط بنظرية الإقناع المعبر عنها بالمحاجة والمخاصمة والمجادلة والمناظرة... "70، وقد ذهب د. محمد العمري إلى أنّ أكمل قراءة لتصورات الجاحظ هي التي قام بها ابن وهب في كتابه " البرهان في وجوه البيان ".

ب - الحجاج عند ابن وهب (الجدل والمجادلة):

الجدل خطاب تعليلي إقناعي، إذ يقع في العلة من بين سائر الأشياء المسؤول عنها على حد تعبير أبي الحسن إسحاق بن وهب (ت 337 هـ)، وبما أن الجدل يقع فيما اختلف فيه من

68 - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 213.

69 - راجع تفصيل ذلك: هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، ص 62 ، 63. وكذا: علي محمد علي سليمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، ص (53- 56).

70 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 454.

اعتقاد المتجادلين مع التأكيد على أهمية الاعتبار الأخلاقي لضبط مقامات الجدل⁷¹، إلا أنَّ التمييز بين الجدل المحمود، والجدل المذموم الذي يمكن أن نفهمه من كلام ابن وهب ما هو " إلا تمييزاً ينظر فيه إلى حضور هذا الاعتبار أو غيابه"⁷²، وقد اشترط ابن وهب في أدب الجدل شروطاً هامة تحمل الملتزم بها إلى السمو والرفعة والغلبة. وعَمَلُ ابن وهب في الحجاج يعدّ في نظر الكثير من المعاصرين، من أهم المحاولات في دراسة الحجاج فهو أقرب إلى مشروع نظرية.

هكذا وبعد هذه الإطلالة على الحجاج في النص التراثي العربي، نلاحظ أنه ليس ثمة تحديداً دقيقاً للمفاهيم الخاصة بالحجاج والجدل ولا يوجد ضبط للآليات المستخدمة في عملية الإقناع، وهو الأمر الذي اضطر معه إلى اجتهادات أخرى تنطلق منها بالموافقة أو المخالفة، محاولة استكمال جوانب النقص فيها.

فليس ببعيد عن ابن وهب نجد حازم القرطاجني (ت 684هـ)، الذي لم يذهب بعيداً في نظريته لهذه القضية الحجاجية، ومن أهم ما يمكن أن يستخرج من نظريته العامة " التخيل والإقناع"، أمران: تمييزه بين جهتين للكلام ويتعلق الأمر بطريقة إظهار أو عرض الموضوع فهو إما أن يكون إخبارياً أو احتجاجياً استدلالياً، وكأن به يميز بين نوعين من النصوص سردي وحجاجي. ثم تمييزه بين طريقتين لإقناع الخصم، التموهيات والاستدراجات، فالتموهيات تكون فيما يرجع إلى الأقوال، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله.⁷³

⁷¹ - إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، طباعة ونشر جامعة بغداد، ط1، 1967، ص 225.

⁷² - محمد العبد، النص الحجاجي العربي: دراسة في وسائل الإقناع، فصول، مجلة النقد الأدبي، ع60، صيف - خريف 2002، ص 46.

⁷³ - ينظر: أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1936، ص 61.

بقي أن نشير إلى أن النص التراثي العربي وسائل إقناع استُخدمت كحجج وهي وسائل متعددة، بعضها ينتمي إلى ما يسمى بالوسائل المنطقية الإقناعية كالقياس والمثال والشاهد، والبعض الآخر ينتمي إلى ما يسمى بالوسائل اللغوية الإقناعية.

3- أهم نظريات الحجاج الحديثة

في مثل دراسة هذا النمط اللغوي ذي الميزات الخاصة ألا وهو الحجاج، والذي يدخل في صلب الخطاب اللغوي، فإن الأمر يتطلب من الدارس تحديد الإجراءات اللازمة لدراسة موضوعه، هذا لأنه سيقف أمام كم معرفي واسع ومتشعب في دراسة مثل هذه المواضيع، ومن ثمة كان لا بد من التطرق إلى النظريات التي تساعد في الدراسة، وتساعد في بناء الإطار الإجرائي للموضوع، وإلا تشعبت الأمور دون ما طائل منها، وإن كانت الدراسات السابقة التي حوت هذا الموضوع تُعدّ "امتدادا للموروث البلاغي الجم وتحويلا لوجهته في ذات الوقت، إنّه حقل دراسي في أوج التجدد"⁷⁴. مع أن ذلك الموروث والفضاء البلاغي قد بدأ يتلاشى في العصر الحديث ، وهذا لسببين:

السبب الأول: اقترانها بالخطابة والجدل الذي جعل الناس لا يميزون فيها بين الإقناع والإغراء، حيث اتهمت بـ "المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور وب عقله أيضا ودفعه دفعا إلى القبول باعتباطية الأحكام ولا معقوليتها"⁷⁵.

⁷⁴ - إيف جانزي، نظريات المحاجة، اكتشاف جديد خصب، ترجمة محمد يحياتن، مجلة اللّغة والأدب لمعهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 1997، ع 11، ص 280.

⁷⁵ - عبد الله صولة، الحجاج، أثره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 229.

أما السبب الثاني: فيعود إلى طغيان العقلانية التي عملت على محاربتها، بحجة أن الروح العلمية ترفض الاستدلالات التي لا يمكن أن تخضع للبرهنة، وقد كان ديكارت أول متزعمي هذه النزعة.⁷⁶

وقد عادت البلاغة ممتزجة بـ " نظريات الاتصال " حسب مقولة جان ميشال آدم باعتبارها "الوظيفة السابعة من وظائف اللغة"⁷⁷، وعلى اعتبار اللغة - أيضا - نظاما لرسم الواقع، حسب التصور الجديد للسانيات، وهو كونها - أي اللغة - نظاما تتحول به الأقوال في الواقع إلى أفعال.

3-1- البلاغة الجديدة : (بيرلمان وتيتيكا):

يعتبر العمل الذي قدّمه العالمان ش.بيرلمان وأ.تيتيكا ذا فضل كبير في استعادة البلاغة لصيتها في عصرنا هذا، ويعد عملهما دحضا لحجج واستدلالات العقلايين الذين أجهزوا على البلاغة القديمة والخطابة، بإعادة الاعتبار لما هو محتمل مقارنة بالضروري أو الحتمي، وإعطاء الأهمية للآراء على حساب الواقع، فقد عمّمت "البلاغة الجديدة" على جميع أنواع الخطابات.⁷⁸

وسنعمل في هذا الإطار على إعطاء عرض مختصر " للنظرية الحجاجية " أو " البلاغة الجديدة " لبيرلمان وتيتيكا، استئناسا ببعض المفاهيم التي سنعمل على توظيفها خلال هذا البحث، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وضع النظرية الحجاجية الحديثة في إطارها النظري.

⁷⁶ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب- دراسة تداولية - كتاب (مخطوط)، (394 صفحة)، ص.165

4 - J. M. Adam, Les textes : types et prototypes, p. 103.

⁷⁸ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص.166.

فقد ارتبطت البلاغة فيما سبق بتأدية المعنى من ناحية، وبالطريقة المخصصة بتأديته من ناحية أخرى؛ إذ يقصد بذلك تبليغ المعنى للسامع وإفهامه إيّاه، وتمكينه في نفسه، " وكان هذا سبيلا لامتزاج وظيفة التبليغ أو التوصيل مع وظيفة الإقناع (أو الحجاج) والتأثير في مفهوم البلاغة.⁷⁹

كما أنّ كلمة بلاغة في اللغة العربية تلنقي مع ما يقابلها من مصطلحات في التراث البلاغي الغربي (rhetoric في اللغة الانجليزية، و rhétorique في الفرنسية) في الدلالة على فن القول، فن الخطاب: إنتاجه وتفسيره وتحليله، أو بحث في تقنيات الخطاب، أي فن الإقناع والتأثير، إنّها " بذلك تنتقل بالتعبير اللغوي من مجرد الوظيفة التوصيلية أو الإفهامية، إلى الوظيفة الإقناعية الحجاجية والوظيفة الجمالية الفنية "⁸⁰.

وهذه النظريات عبارة عن تصورات وإجراءات خاصة، نفيذ فيها من منجزات علوم اللغة والتداولية اللسانية والفلسفية والمنطق الرياضي الحديث، والحجاج عندهما - بيرلمان وتيتيكا - سليل الخطابة والجدل من المغالطة والمناورة، والتلاعب بعواطف الجمهور وعقله، ودفعه دفعا للقبول باعتبارية الأحكام ولا معقوليتها إلى دائرة الحوار العقلاني.⁸¹

ثم أن نظرية الحجاج عندهما أقرب إلى الخطابة منها إلى الجدل، وذلك أن الخطابة همها الأساس العمل على ما يمارسه الخطاب على الجمهور؛ فلا حجاج بدون جمهور يرمي الخطاب

⁷⁹ - شكري الطوانسي، البلاغة العربية والأسلوبيات الحديثة، دار الوفاء، المنصورة - مصر، ط1، 2004، ص16.

⁸⁰ - المرجع السابق، ص13.

⁸¹ - هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، ص81.

إلى جعله يقتنع ويسلم ويصادق على ما يعرض عليه⁸²، ومع ذلك فهما يفرقان بينهما _ أي
الخطابة والحجاج _ من جهتين:

أ - من جهة نوع الجمهور، تقف الخطابة على جمهور مجتمع في ميدان أو مكان محدد،
أما الحجاج يمكن أن يكون حاضرا أو غائبا، كما يمكن أن يكون الحجاج بين شخصين
متحاورين.

ب - من جهة نوع الخطاب، فغالبا ما تحصر الخطابة الخطاب فيما هو شفهي، على أن
الخطاب الحجاجي عندهما يمكن أن يكون شفويا أو مكتوبا، بل إنهما يلحّان على النص
المكتوب⁸³.

أضف إلى هذا فقد عمل بيرمان وتيتيكا على إخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل الذي
ظل لفترات طويلة في القديم مرادفا للمنطق نفسه، وعملا على تخليص الحجاج من صرامة
الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب⁸⁴، فالحجاج عندهما حوار
من أجل الوصول إلى الاقتناع دون حمل على الإقناع.

⁸² - ينظر: عبد الله صولة، الحجاج : أطره ومنطقاته وتقنياته...، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...،
ص306.

⁸³ - ينظر: هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، ص 82.

⁸⁴ - ينظر: عبد الله صولة، الحجاج : أطره ومنطقاته وتقنياته...، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص
298، 299.

وأوضح بيرلمان في كتابه " البلاغة الجديدة " أن نقطة التقاطع بين البلاغة القديمة ونظرية المحاجة إنما هي المستمع، إذ هناك من يرى أن " ما ينبغي أن يحتفظ به من البلاغة التقليدية إنما هو فكرة المستمعين التي تنبثق مباشرة من فهم طبيعة الخطاب ."⁸⁵

ومن الواضح أن فن البلاغة بهذا المفهوم ليس مجرد نظرية في أشكال الخطاب ووسائل الإقناع بل انتظم فن البلاغة مع الطابع العام المباشر الخاص بعمل الخطاب.

ويلاحظ عموماً على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللغة التواصلية، وأنها ليست منبثقة الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية، على اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان⁸⁶.

إنّ الصور البلاغية إذا ما طرحت في الخطاب، فذلك يعني أن سؤالاً طرح فيه، والسؤال يستدعي بالضرورة جواباً، وتأتي الإجابة بتجاوز ظاهر اللفظ الحامل، فالجواب سؤال في حد ذاته، لأنه يحدد وجهاً واحداً من الجواب وتبقى بقية الوجوه متعلقة بأسئلة جديدة قد تُطرح، تهدف الوجوه البلاغية إلى إبراز حضور ما وتوكيده أو تلطيفه كما تحلو للعيان ما قد نفهمه أو نعتبره غير مفيد، فالوجوه البلاغية _ عند بيرلمان _ تكون ضرباً من الزخرف إذا لم توظف في خدمة الحجاج⁸⁷.

وإذا كان مجال الحجاج المفضل هو الخطابة، فإن الخطابة بهذا الشكل مفاوضة المسافة القائمة بين الأشخاص حول مسألة أو مشكلة ما ، ويقصد بمفاوضة المسافة كيفية تعامل

⁸⁵ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 69.

⁸⁶ - ينظر: المرجع نفسه، ص (44 - 66).

⁸⁷ - علي محمد سلمان علي، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، ص 397.

المتخاطبين فيما بينهم إزاء المسائل المطروحة عليهم وما ينجر عن ذلك من اختلاف أو اتفاق أو رغبة في التقارب⁸⁸، وهذه القضايا في صلب الحجاج تؤدي إلى استعمال أساليب بلاغية تحدد أشكال بروز المتخاطبين اللغوية.

ويرى البعض " أن البلاغة تداولية في صميمها، إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما"⁸⁹.

وهذا التقارب مرده أن البلاغة تعالج قوة التأثير في الآخر وكيفية إقناعه وبيان كل المقاصد التي يهدف الباث إلى تحقيقها، وهذه النقطة تعد من أهم مباحث التداولية التي تدرس التفاعل الاتصالي بين الخطيب والمخاطب، وما يحدثه الفعل الكلامي من تأثير⁹⁰.

بمعنى أنه كي يتحقق الحجاج بصورة صحيحة ومؤثرة لا بد أن يكون المتلقي حاضرا بالقوة في الخطاب والملقي حضر فيه بالفعل⁹¹، هذا لأن مراعاة المنتج لنفسية المتلقي وذوقه تحدث التوزيعات والتلوينات والتحويلات في أشكال التعبير وبناء ودلالاته.

وإن كانت التداولية تعنى بدراسة علاقة العلامات باستعمالاتها، ومقاماتها، وأطرافها، أو هي تعنى بدراسة العلاقة بين اللغة وبين الناطقين بها، والمؤولين لها، وبتعبير آخر يمكن أن يكون

⁸⁸ - ينظر: المرجع نفسه، ص 397، 398.

⁸⁹ - سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004، ص23.

⁹⁰ - ينظر: سامية بن يامنة، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، العدد الأول ماي 2008، الجزائر، ص53.

⁹¹ - ينظر: محمد السويرتي، اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، عالم الفكر، مج28، ع3، " يناير - مارس 2000"، الكويت، ص29.

موضوع التداولية هو نفس موضوع الدلالة الثابت، مضافا إليه سياق الاستعمال⁹²، فإن من الدارسين المحدثين من لم يفرّق بين التداولية والبلاغة معتبرا البلاغة تداولية في صميمها، وحديثا أعيد الاعتبار إلى البلاغة العربية في الدراسات السيميائية تحت عنوان جديد هو التداولية.

على أن الحجاج في نظرهما مبعث الاختلاف وشرطه أن يقوم على موضوعية الحوار، حيث يقف فيه الآخر المحاجج موقف الشريك المتعاون، لا موقف الخصم العنيد، وهذا حتى تتحقق الغاية من الحجاج، فهو ينظر في حقائق متعددة ومتدرجة لا حقيقة ثابتة ومحددة، وهذا عن طريق تقنياته " التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بالموضوعات المعروضة عليها أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"⁹³، وغاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، ولفظ الحجاج هنا يطلق على العلم وموضوعه أي على النظرية وعلى المحااجة أيضا.

وإن كانت تلك الملامح الحجاجية المبرزة لبعض من مميزات الخطاب الحجاجي عند بيرلمان _ غير كافية لإبراز طبيعة البعد الحجاجي أثناء التخاطب، على اعتبار أن الحجاج إستراتيجية لغوية تكتسب بعدها من سياق الخطاب، أي دور المقام والأحوال المصاحبة للخطاب غير جلية في هذا التصور.

ولا يقف الحجاج عند حدّ الإقناع، لأن في ذلك محاولة المخاطب في لعب دور الممثل حتى يجعل جمهوره واثقا فيه... ومادامت اللغة المحتجّ بها كامنة في الأذهان _ مفهوم دو سوسير _ فلا شك أنها عمليات استنتاجية ذهنية متوقفة على ما يصدر من المتكلم من مقدمات

⁹² - ينظر: نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص 23.

⁹³ - عبد الله صولة، الحجاج : أطره ومنطقاته وتقنياته...، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 299.

وتحليلات، وربما افتراضات من الناحية اللغوية⁹⁴؛ إذ لابد وأن يكون المخاطب مشاركا وفَعّالا وليس مجرد متلقٍ.

وما البلاغة إلا وسيلة تأثيرية في الجمهور باستعمال وسائل خطابية غير البرهان وغير العنف، والاستعارة إحدى هذه الصور البلاغية، فقد نختار استعمال " كلمة مجازية لكي ندخل السرور أو الفتنة في قلوب المستمعين إلينا، وتعكس هذه العملية للصور البلاغية جانبا من الجوانب المركزية للوظيفة العامة للبلاغة، وهي تحديدا الإقناع ".⁹⁵

فبقاء دوران البلاغة حول العبارة فحسب، كاد أن ينتهي بها إلى أن تنحصر في مجرد نظرية للاستعارة تقوم في صلبها على تحديد الانحرافات وطرائق تصويبها، فالاستعارة وسيلة بلاغية " من حيث إنها تساهم في الإمتاع والتأثير، ولكنها أيضا حجاجية من حيث إنها تعبر عن حجج بطريقة مركزة مع جعلها أكثر تأثيرا وإصابة".⁹⁶

لقد كان ينظر للاستعارة على أنها مجرد زخرفة فنية، على الرغم من وجود شبه إجماع من العلماء قديما وحديثا، على أن الاستعارة تضطلع بوظيفة أصلية في الخطاب، هي دورها الحجاجي؛ يقول عبد القاهر الجرجاني في تعريفه للاستعارة : " اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية"⁹⁷، ورأى بأن "

⁹⁴ - ينظر: ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 125.

⁹⁵ - بول ريكور، نظرية التأويل، تر: سعيد الغاني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006، ص 87.

⁹⁶ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 456.

⁹⁷ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991، ص

الاستعارة إنما ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء⁹⁸، فالادعاء كفعل حجاجي يتوجب إدخال المستعار له في جنس المستعار منه على وجه الحقيقة، وذلك بخلق عالم ثالث هو عالم الممكن، حيث يمكننا أن نجمع فيه بين عالمين ذوي بنيتين ونسقين مختلفين فنصيّر المستحيل ممكناً عن طريق الخيال.

فالجرجاني نظر إليها من وجهة حجاجية فقد أعطاهما مفهوماً على أنها ذات دور فعال في العملية الحجاجية نافياً بذلك مسألة النقل التي قال بها البلاغيون قبله، فهي عنده أداة من أدوات الإقناع.⁹⁹

ومن ثمة فالاستعارة تدخل ضمن الوسائل التي يوظفها المتكلم للإجهاز على خصمه، فهي بالتالي أسلوب حجاجي لا يمكن لأي مخاطب مهما كانت نوعية خطابه الاستغناء عنه، وعليه فقد فرضت الاستعارة نفسها ووجودها على المتكلم والدارس باختلاف العصور والأنواع الخطابية.

3-2- نظرية الحجاج في اللغة

تُقرن هذه الجملة المشكلة للعنوان بالأعمال التي قام بها الفرنسيان "أوسوالد ديكر" و"جان كلود أنسكومبر" في السبعينات من القرن الماضي، وقد انبثقت نظرية الحجاج في اللغة داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها "أوستين".

⁹⁸ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: أحمد مصطفى المراغي، المكتبة المحمودية، القاهرة، ط2، (د) ص 280.

⁹⁹ - ينظر: أحمد السيد الصاوي، الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين _ دراسة تاريخية فنية _ منشأة المعارف الإسكندرية، (د ط)، 1988، ص 86.

وتتعلق هذه النظرية من الفكرة الشائعة التي مؤداها ((أننا نتكلم عامة بقصد التأثير))، وهي تحاول أن تبين أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، أي أن هذه الوظيفة مؤثر لها في بنية الأقوال نفسها، وفي المعنى وكل الظواهر الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والدلالية.¹⁰⁰

والحجاج في هذه النظرية ظاهرة لغوية نجدها في كل خطاب، باعتباره - أي الحجاج - آليات لغوية محضة، وذلك لأن نظرية " ديكر " اللسانية تتطرق من ثلاثة مبادئ أساسية هي:

أ - أن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج.

ب - أن المكون الحجاجي في المعنى أساس والمكون الإخباري ثانوي.

ج - عدم الفصل بين الدلالات والتداوليات.

ومن ثم لا يكون الهدف إخبار المتلقي وإنما التأثير فيه، قصد اتخاذ موقف، ومن هذا المنظور نعتبر اللغة فعلا وحاجا وليست نقلا للمعلومات والإخبار عنها.

ومجال البحث في هذه النظرية هو الجزء التداولي المدمج في الدلالة، ويكون موضوع البحث هو بيان الدلالة التداولية - لا الخبرية الوصفية - المسجلة في أبنية اللغة وتوضيح شروط استعمالها الممكن¹⁰¹، معنى ذلك أن المفترض في هذا الموقف أن التخاطب العادي لا يتم بتبادل أخبار عن حالات الأشياء في الكون بقدر ما يتم بتبادل الأعمال اللغوية.

¹⁰⁰ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، (د ط)، 2009، ص 7.

¹⁰¹ - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 351.

ويمكن اعتبار الحجاج اللغوي أو الحجاج في اللغة (l'argumentation dans la langue) جانبا أساسيا من جوانب منطق اللغة، ويمكن كذلك اقتراح صياغات أخرى لهذا المنطق، وعموما فإن منطق اللغة هو القواعد الداخلية للخطاب التي تحكم تسلسله وتناميه، وتحكم تنامي الأقوال وتتاليها¹⁰²، وذلك بشرط أن يكون ضمن وظائف اللغة الطبيعية العديدة.

فموضوع الحجاج في هذه النظرية هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية ما، وهذا التوجه مصوغاته موجودة في البنية اللغوية للأقوال وليس رهينة المحتوى الخبري للقول ولا رهينة أي بنية من خارج نظام اللغة، أما القول الحجاجي فمجاله الخطاب نفسه الذي تسيره قوانين داخلية، تفرض استئناف القول فيه على هذا الوجه أو ذلك¹⁰³، وفي جلّ الأقوال هناك بعض السمات التي تحدد قيمتها التداولية بالاستقلال عن محتواها الخبري.

فإذن يُلح المؤلفان على قضية القواعد الداخلية للخطاب والتي تتحكم في ترابطه وتسلسله، وهذا يعني أن الحجاج المعني هنا ليس عنصرا يضاف إلى اللغة، بل يسري فيها سريانا طبيعيا¹⁰⁴.

فالحجاج حسب هذه النظرية هو آليات لغوية محضة، نجدها في كل قول وخطاب، سواء كان هذا الخطاب أدبيا أو فلسفيا أو دينيا أو سياسيا أو غير ذلك، ومن ثم فإن أشكال الحجاج في الخطاب متعددة بمعنى أننا نجده في كل ظواهر اللغة إن بشكل أو بآخر¹⁰⁵.

¹⁰² - ينظر : أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص22.

¹⁰³ - ينظر شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 352.

¹⁰⁴ - ينظر: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري، عالم الفكر، الكويت، مج

30، ع1، يوليو - سبتمبر 2001، ص 105.

ويعرف ديكر و أنسكومبر _ صاحباً هذه النظرية _ بأن الحجاج يكون بتقديم المتكلم قولاً
 ق1 (أو مجموعة أقوال)، يفضي إلى التسليم بقول آخر ق2 (أو مجموعة أقوال أخرى) ويمثل
 ق1 أو مجموعة الأقوال حجة منها يكون الانطلاق إلى ق2 أو مجموعة الأقوال، ويكون ق2 إما
 قولاً صريحاً أو ضمناً، بمعنى أن القول الأول يمثل المعطى على حد تعبير تولمين والقول الثاني
 يمثل النتيجة¹⁰⁶.

هذا ويرتبط الأمر في هذه النظرية بما يسمى " بالمبادئ الحجاجية " وهي عبارة عن ضامن
 يضمن الربط بين الحجة والنتيجة، وهي مجموعة من المسلمات والأفكار والمعتقدات المشتركة بين
 أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة والكل سلم بصدقها وصحتها¹⁰⁷.

كما أن هذه المبادئ ترتبط بأيدولوجيات جماعية " فإنه من الممكن أن ينطلق استدلالان
 من نفس المقدمات، وأن يعتمدا نفس الروابط والعوامل، ومع ذلك يصلان إلى نتائج مختلفة بل
 متضادة¹⁰⁸، ولن يفسر هذا إلا باعتماد مبادئ حجاجية تنتمي إلى أيدولوجيات متعارضة، ولهذه
 المبادئ الحجاجية خصائص عديدة منها: أنها مشتركة بين أفراد مجموعة بشرية معينة، وكذا
 العمومية والتدرجية والنسبية.

¹⁰⁵ - ينظر: أبو بكر العزاوي، الحجاج والشعر _ نحو تحليل حجاجي لنص شعري معاصر _ دراسات سيميائية
 أدبية لسانية، صدر عن دراسات سال، ع7، 1992، ص100 ، 101.

¹⁰⁶ - ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج1، منشورات كلية
 الآداب، منوبة، 2001، ص36. وانظر كذلك: عز الدين الناجع، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، (بحث لنيل
 شهادة الدراسات المعمقة)، إشراف د. عبد الله صولة، جامعة منوبة، كلية الآداب بمنوبة، السنة الجامعية
 2003/2004 (مخطوط)، ص10.

¹⁰⁷ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص39.

¹⁰⁸ - المرجع نفسه، ص39.

وهذه النظرية تنضوي تحت ما يسمى في اللسانيات الحديثة بالتداولية المدمجة، والتي تتموضع في الإطار القائل بوجود تعارض بين علم الدلالة والتداولية، فالعلاقة بين العلامات تقضي بنا إلى علم التراكيب، والعلاقة بين العلامة ومعناها تقضي بنا إلى علم الدلالة، أما العلاقة بين العلامة ومستعملها فتقضي بنا إلى التداولية¹⁰⁹، وهذا يستلزم تحليل ملفوظ معيّن يتوقّف على:

أولاً: تحديد المحتوى الإخباري الذي يخضع بدوره للبنية النحوية.

ثانياً: إنّ شروط البناء النحوي السليم تخضع هي الأخرى للمحتوى الإخباري "الدلالة".

ثالثاً: لا يمكن للمحتوى الإخباري أن يتجاوز النشاط الكلامي للملفوظات، ومعنى هذا كلّه، أنّ التحليل التداولي يستلزم تحليلاً نحوياً، و آخر تركيبياً، مع الحرص على هذا الترتيب وليس عكسه¹¹⁰.

وإذا تحدّثنا عن موقع الحجاج ضمن هذه النظرية، فإنّنا نقول إنّ الحجاج " هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب وتنتج عن عمل المحاجة، ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغوية، فلا بدّ أن تتوفّر في الحجّة ق1 شروط محدّدة حتّى تؤدي إلى ق2، لذلك فإنّ الحجاج مسجّل في بنية اللّغة ذاتها وليس مرتبطاً بالمحتوى الخبري للأقوال، ولا بمعطيات بلاغية مقامية"¹¹¹، فالخطاب وسيلة للحجاج، وهو في الوقت نفسه منتهى هذه الوسيلة، وهذا ما جعل ديكرو يميّز بين نوعين من الأفعال: الفعل الحجاجي المتمثّل في حمل الطّرف الآخر، بمقتضى

¹⁰⁹ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص. 179.

3 - O. Ducrot, J.C. Anscombre, L'argumentation dans la langue, Pierre Mardaga, Bruxelles, 1980, p 17 .

¹¹¹ - شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللّغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 360 ، 361.

إصدار قول ق1، على فهم ق2، وفعل الاستدلال الذي يعرف بأنه فعل يتوقّف تحقيقه على إنتاج

ملفوظ¹¹²، مثال ذلك، الحوار التالي:

أ: اتّصل بي علي ودعاني لزيارته.

ب: إذن أنت هو زيد ؟

يعتبر ما قاله (ب) فعلا استدلاليا ارتبط بما قاله (أ).

أمّا في الحوار التالي:

ج: إنّهُ صغير.

د: رغم ذلك فهو قوي.

لا يوجد في قول (ج) ما يشير إلى النتيجة التي توصل إليها (د)، وعليه يخلص ديكر إلى نتيجة مفادها أنّ الحجاج والاستدلال شيئان مختلفان تماما، فالحجاج يقع على مستوى الخطاب، أمّا الاستدلال فهو يرتبط بالمعتقدات المتعلقة بالواقع¹¹³، أي الطريقة التي تحدّد بها الوقائع.

أما في مستوى المكون البلاغي فيقع ربط دلالة القول بسياقه حيث تدخل اعتبارات التخاطب بين القائل ومخاطبه ومكان القول وزمانه وعموما جميع المعطيات المقامية البلاغية من مجتمع ونفسيات بغية الوصول إلى إسناد قيم دلالية ثابتة للمتغيرات التي ضبطتها القواعد في اللغة¹¹⁴، فموضوع الملاحظة في التداولية هو الطريقة التي تؤول بها الأقوال في السياقات

¹¹² - ينظر: المرجع نفسه، ص 352.

¹¹³ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص 180.

¹¹⁴ - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 359.

المخصوصة التي تستعمل فيها، إذ يمكن لأي قائل - سامع أن يسند معنى ما إلى قول معين كأن يفترض أن معنى " أنا صائم " هو الإثبات أو الاعتراض.

مما تقدّم يتّضح لنا بأنّ بلاغة القرن العشرين أو ما يسمى بالبلاغة الجديدة، قد ركّزت على الخطاب بوصفه مسرحاً للحجاج، وعلى الرغم من اهتمام الفريقين (بيرلمان وتيتيكا وكذا ديكر وشريكه) بالهيكل الحجاجية إلّا أن اختلافاً في سياق البحث قد ظهر بينهما، وذلك أن بيرلمان ألحّ على تقنيات الخطاب، فحجاج بيرلمان يعد من الحجاج العادي، الذي يتحدد بقدر الملفوظ على توجيه الأذهان إلى الإذعان، وهذا يعني أن الكلام عندهما ليس كله حجاجاً، بينما عند ديكر وأنسكومبر كل كلام حجاجي بطبعه " وأن الكلام وظيفته الجوهرية أن يوجه لا أن يدل" ¹¹⁵.

وقد حصر بيرلمان وتيتيكا الحجاج في الوصل والفصل، وهذا " من شأنه أن يجعل أفق الدرس الحجاجي في أي نص من النصوص أو قول من الأقوال أفقاً ضيقاً جداً، ذلك أنه من الحجاج في الكلام ما يرد على غير هذين المظهرين" ¹¹⁶.

وفي المقابل نجد مفهوم ديكر وزميله مفهومهما واسعاً جداً، لأن كل قول بحسب هذه النظرية - مهما كانت الغاية منه - هو حجاج، لأن وظيفة الكلام - أي كلام - الرئيسية هي الحجاج، ومن ثم فإن أي كلمة يفوه بها الخطيب، أو يكتبها الكاتب هي ذات طاقة حجاجية؛ لهذا وقف الدكتور عبد الله صولة موقفاً وسطاً بين هذين الطرفين، باعتبار "ما كل حجاج بفصل أو وصل، كما أنه ما كل قول بحجاج" ¹¹⁷.

¹¹⁵ - عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، إدارة المناهج، مملكة البحرين، مؤتمر مناهج اللغة العربية، أبريل 2004، ص 7.

¹¹⁶ - عبد الله صولة الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ج1، ص 43.

¹¹⁷ - المرجع نفسه، ص 43.

كما أن كلتا البلاغتين بلاغة بيرلمان وتيتيكا وكذا بلاغة ديكور وأنسكومبر تخضعان لقانون واحد هو قانون الأنفع والأجدى، وأن بلاغة بيرلمان وتيتيكا تركز على التكنيك الذي يستخدمه المتكلم لتحقيق الإقناع، أما الحجج التي ليست عائدة إلى التقنيات البلاغية فلا يعنيهما أمرهما¹¹⁸.

ومفاهيم الحجاج تلك على أهميتها بالنسبة إلى بحثنا، فيها ما من شأنه أن يثير مشاكل منهجية في مجال الدراسات الحجاجية عامة، ومنها دراستنا هذه، وعليه سنقف موقفاً وسطاً بين تلك الأطراف، في مقاربتنا لخطاب الإبراهيمي، فالرأي أنه ما كل حجاج بفصل أو وصل، كما أنه ما كل قول بحجاج، وليست اللغة بكل وحداتها المعجمية ذات طاقة حجاجية في ذاتها، وفوق هذا أو ذاك فإن لطبيعة النص دوراً في اكتساب لغته بعدا حجاجيا من عدم اكتسابه.

¹¹⁸ - ينظر: عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، ص 7.

الفصل الأول:

استراتيجية بناء النص الحجاجي عند الإبراهيمي

1- البناء الحجاجي لنصوص كتابات

الإبراهيمي

2- مراتب الحجج في كتابات الإبراهيمي

3- الروابط الحجاجية في كتابات الإبراهيمي

1- البناء الحجاجي لنصوص كتابات الإبراهيمي

في هذا الفصل سنحاول إثبات حجاجية نصوص الإبراهيمي من حيث البناء والمكونات، فأما البناء فقياساً على بناء النص الحجاجي العربي، وأما المكونات فمن حيث مساهمتها الاستراتيجية في بناء النص الحجاجي، وسنقف من ذلك على الروابط والعوامل الحجاجية ثم تراتبية الحجج في ظل السلم الحجاجي وقوانينه.

1-1- بناء النص الحجاجي:

إن الحديث عن حجاج محتمل في كتابات البشير الإبراهيمي يطرح العديد من الإشكاليات. ما هي الطرائق التي يتوصل بها النص الإبراهيمي إلى الحجاج؟ وكيف يمكن أن يقوم حجاج بين الكاتب ومتلقي خطابه دون أن يجمعهما مقام واحد؟ وإذا سلمنا بهذه الإمكانية فكيف يمكن أن يقوم حجاج بين النص وقراء لم يعاصروا نشأته وكتاباته وثقافته حتى؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة لمن شأنها الكشف عن ملمح أسلوب حجاجي مبطن يستهدف توريث المتلقي في شرك حدية المقول. ولا مجال لفهم ذلك واستكناه الملامح الأسلوبية الحجاجية الحاضرة في خطاب البشير الإبراهيمي إلا من خلال استبطان ما يدل على أن خطاب الإبراهيمي يتماشى ومقتضيات النص الحجاجي.

وإذا ما حاولنا النظر المسبق إلى أسس ومنطلقات الإبراهيمي الحجاجية من خلال كتاباته - أو ما يسمى بالمقدمات عند شايم بيرلمان - فإننا نجد أقدام حجاجه من خلال الوقائع والحقائق والافتراضات والقيم والهرميات المحسوسة والمجردة وذلك بغية الرفع من مستوى درجة الإذعان والتسليم.

والمبدع أو الكاتب يستشعر الحاجة إلى الوسائل التي تسوغ الرأي وترجحه، وهنا تلتقي البلاغة بالحجاج، لأن الإقناع والاستمالة يتطلبان عناصر حجاجية مثل الشاهد والاستدلال والحجة، لدعم الرأي وتبريره¹.

على أن وسيلة الحجاج عادة التبرير والتعليل، كما يستخدم البرهنة لصالح الأطروحة أو الفكرة التي يدافع عنها، بطريقة لا تتم عن فرض أو قوة².

وهكذا وأمام كتابات البشير الإبراهيمي وأسلوبه وتميزه سنجد أنفسنا أمام مستوى تلفظي متميز، يتطلب فك شفراته من القارئ كفاءة لغوية عالية وذلك للمستوى اللغوي الذي يتميز به خطاب البشير الإبراهيمي.

والحجاج يبني على جملة من التصورات والمقدمات والفرضيات التي ينتج منها المحاجج خطيباً كان أم كاتباً خططه البرهانية، فهذه المقدمات سيستمال المعنيون. كما أن المحاجج ينطلق من تصويره لطبيعة المخاطب/ المستمع الذي يوجه إليه الخطاب، الشيء الذي يمكن من تحديد ملامح الحجاج من خلال مجموعة من المعطيات.

¹ - ينظر: الغرافي مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 40، يوليو - شتبر 2011، ص 282.

² - بنعيسى أزابيط، البعد التداولي في الحجاج اللساني (استثمار التداولية المدمجة) مناظرة متى ابن يونس وأبي سعيد السيرافي نموذجاً، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته - دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة -، مج2، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013، ص 1020.

ويرى بيرلمان أن مقدمات الحجاج هي التي تؤسس نقاط الانطلاق للحجاج

les faits l'agumentatiomPoints du depast de
والحقائق Realites والافتراضات Presomptions والقيم Valeurs وهرميات القيم Hierarchies
des valeurs والمواضع Lieux.

فالوقائع بما أنها ثابتة لاشك فيها فإنها تصلح لتأسيس نقطة البداية، " فهي تمثل ما هو مشترك بين
عدة أشخاص أو بين جميع الناس ... والتسليم بالواقعة من قبل الفرد ليس إلا تجاوبا منه مع ما
يفرض نفسه على جميع الخلق؛ إذ الوقائع يقتضي إجماعا كونيا ¹.

إن مستعملي اللغة لا يستدلون بالمعنى الشكلي، بل يستدلون بمقدمات يختارون إظهارها
حسب ما تقتضيه مقامات القول، أو عدم إظهارها، اعتمادا على ذكاء القارئ أو لاعتبارات
تداولية أخرى، فقد يسخرون من بعض المقدمات أو النتائج ولا يأبهون بها، إنهم يستدلون بصفة
سليمة في كثير من الأحيان دون أن يستعملوا لهذه الغاية قواعد المنطق الشكلي، لانطلاقهم من
مقدمات احتمالية مقبولة كما هي: إما لأنها واضحة وهو قليل، أو لأنها قبل أن تكون مقبولة
كانت موضوع حجاج ².

¹ - Traité De Largumentation, op. cit, p89, 5em, Ed. نقلا عن: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مفهوم
الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته...، مج1، ص
893.

² - Essais sur l'argumentation, p172. نقلا عن: عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير مقارنة تداولية
معرفية لآليات التواصل والحاج، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2012، ص 93.

كما تعد الفرضيات التي هي مسألة خيال إبداعي بمثابة المقدمات في القياس، يقدمها المتكلم انطلاقاً من ذاكرته وانطلاقاً مما يتم بناؤه واستنتاجه¹، وذلك بتطوير الفرضيات الموجودة في ذاكرته.

وهكذا فكل قول أو فرضية هو بمثابة إثارة تقدم مؤشرات حول القصد الإخباري للمتكلم وتثير انتظارات، وتحدد مواقف اتجاه تلك التمثيلات التي تعبر عنها الرغبة والاعتقاد القائمة في هندسة العقل البشري، حيث يقوم تفاعل بين المعلومات القديمة والجديدة في قول ما كمقدمات، بحيث لا ينحصر دور الفرضيات فيما يتصوره الناس عن الأشياء والأحداث التي يواجهونها باضطراب، بل حتى تلك التي يتوقعونها عن سلوك الأفراد أو الأحداث أو الأشياء.²

ومن ثمة كانت عناية الباحثين بأجزاء القول، فعدوا المقدمة لحظة من لحظات الاستمالة " أو " مشروع إغراء الجمهور "، أو لحظة للاستهواء، وكلها مصطلحات تقيم صلة بين المقال والمقام وتتحضر المتلقي من خلال التركيز على التأثير العاطفي ومقتضيات الاستدراج. والاستهلال فرصة لعرض الخطوط الكبرى والمسلمات التي تجعل المخاطب على بينة من مسار الحجاج.

¹ - D. La pertinence, p66. Sperper .D et Wilson .D, عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير..، ص

107.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 107.

وعُدَّ النثر الحجاجي وفاء لتثبيت الدعوى ودعم الإقناع وإزالة الغشاوة على الطرح الإشكالي موضوع القول لذلك كان النثر الحجاجي مقرونا بالحجاج والبرهنة ووسائل الإثبات على أساس أن البراهين والاستدلالات تأتي بعد عرض القضية¹.

إن الغاية من الانفتاح هي كسب المخاطب لمصلحة الأطروحة التي ندافع عنها. وللانفتاح على وجه العموم وظائف ثلاث هي²:

- 1- إثارة انتباه المتلقي.
- 2- تهيئته لأجل الاستفادة.
- 3- استمالته، وأهمية هذه العناصر تختلف باختلاف أجناس الخطابة.

إن تأكيد الفرضيات هو ظاهرة معرفية وليس قواعد منطقية، ففي تفاعل المعلومات القديمة والجديدة يمكن للمعلومات الجديدة أن تؤكد الفرضيات القديمة وتدعمها أو تضعفها أو تستبعدنها، ويبقى مع ذلك أن كل تأكيد لفرضية ما ليس سوى فرضية أخرى، يمكن للواقع أن يعززها أو يضعفها.

ويمكن استخلاص مجموعة من الأفكار التي انتهى إليها " ولسون وسبيرير " حول الفرضيات وتأكيدها، نذكر أبرزها:

- 1- أن أحكامنا هي فرضيات على فرضيات.
- 2- أن أحكامنا ذات طبيعة مقارنة.

¹ - ينظر: أحمد قادم، رسالة ابن غرسية مقارنة بلاغية حجاجية، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته...، مج 2، ص 1290.

² - ينظر: الحسين بنوهاشم، آليات الحجاج في كشف ما هو في الحقيقة لجاج، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 40، أكتوبر - ديسمبر 2011، ص 45.

- 3- إن قوة الفرضية لا يمكن حسابها كمياً بل تكتسب قوتها من مقارنتها بغيرها.
 - 4- إن قوة الفرضية ترجع إلى مفهوم سيكولوجي أساسي لدى الإنسان.
 - 5- لا يكفي التمسك بالتعميم الذي يطبع تفكيرنا التجريبي بالاستدلالات التي نعيها والتي لا نعيها، بل لا بد من معيار حاسم يقدم للسامع المعطيات التي تؤكد الفرضية أو تنفيها.
 - 6- إن الفرضيات التي يتصورها الناس عن الأشياء والأحداث التي يواجهونها كتلك التي يتوقعونها عن سلوك تلك الوقائع والأحداث، من غير أن يتقاسموا حولها الفرضيات نفسها.
 - 7- إن العملية التي تحدد التضمينات هي استراتيجية عقلانية لحل المشاكل وليست نظاماً منطقياً استنباطياً سورياً.
 - 8- ليست الفرضيات بالضرورة حقيقية (مسلمات برهانية)؛ إذ لا يمكن البرهنة عليها، لكن يمكن تأكيدها أو رفضها أو دعمها أو التقليل من شأنها.
 - 9- يسمح نظام الاستنباط المعرفي ببناء الفرضيات دون أن يكلفنا حفظ كل التضمينات التي تضمها في الذاكرة.
 - 10- تعتبر الحجج في هذه النظرية مجرد فرضيات ذات درجات معينة بحسب السياق.
- نؤثر هنا أن نطرح تساؤلاً يتعلق بالمسار الذي يسير فيه بحثنا، والذي نحاول أن نبين فيه العلاقة بين الحجاج كإجراء وكمجموعة من التقنيات - على حد تعبير بيرلمان - والخطاب كنظام من المعطيات اللغوية، في سبيل تحقيق العملية التبليغية والتواصلية، وبأسلوب آخر، كيف يتجسد الحجاج في الخطاب؟

مصدر الخطاب فردي وهدفه الإفهام والتأثير، وهذه الخصيصة تقرر المصدر الفردي للخطاب بكونه نتاجا يلفظه الفرد، ويهدف من ورائه إلى إيصال رسالة واضحة المرمى ومؤثرة في المتلقين، والحال أن الحجاجيين لا يسلمون بأن مهمة الخطاب تقوم على وصف العالم وإنما تقوم على تحفيز المخاطب على سلوك ما.

ولا تتوقف وظيفة المتكلم في مجرد توجيه كلامه للغير لإفهامه معنى مخصوصا - كما في العلاقة التخاطبية- وإنما تتحول وظيفته إلى وظيفة تأثيرية " فاللغة ما لم تنقل إلى الغير ما يحمله على الحركة، فلا عمل تحتها "¹، لأن حقيقة الخطاب لا تتوقف عند حد التوجيه والإفهام؛ إذ يصرح " جان ميشال آدام " بأننا حينما نتكلم فنحن نسعى من جهة إلى حمل المخاطب على أن يتقاسم آراءنا أو التمثيلات المتعلقة بموضوع معين، ونسعى من جهة أخرى إلى حمل الآخرين (المستمعين) على الاقتداء بأكبر عدد ممكن من آرائنا². وهذا ما ذهب إليه " إيميل بنفينيست " في حد قوله عن " الخطاب في أعم مفهوم له هو كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا مع توفر مقصد التأثير بوجه من الوجوه عند المتكلم في المستمع "³.

كما أن تسلسل الأقوال والجمل في الخطاب لا يعتمد المعنى الإخباري أو المحتوى الإعلامي، وإنما يعتمد بالأساس المعنى الحجاجي أو القيمة الحجاجية للقول⁴، باعتبار أن الخطاب

¹ - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005 ص 248.

² - J.M.Adam, les texts: types et prototypes,p 103.

³ - Emile Benveniste: Problèmes de linguistique générale. Editions Gallimard, 1966, p242. نقلا عن: عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ميسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص 143.

⁴- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 48.

تلفظ يفترض وجود متكلم ومستمع وعند الأول هدف التأثير في الثاني، الشيء الذي يؤدي إلى أن يقول البعض بأن الخطاب لا يتحقق إلا في ضوء الفضاء الحوارى محققا قيمة حوارية¹.

فالحجاج كممارسة وسلوك لا يمكن أن يتم مع أي كان وفي أي مكان وفي أي موضوع، فهو يعد جمعا بين المعطيات اللغوية ومعطيات السياق ولا يمكن لهذا الجمع بين المعطيات أن يصنع خطابا حجاجيا إذا لم تراعى فيه عمليتان:

أ- عملية التبرير التي تتلخص في تبرير ملفوظ بملفوظ آخر.

ب- عملية التفاوض التي تسمح للمخاطب بالابتعاد عن خطابه ليوفر للمخاطب فضاء للتفاوض².

ويحق لنا بل ويجب علينا الافتراض المسبق لإرادة حجاجية مقابلة تروم تحقيق تفاهم متبادل، ومن يرفض اللعبة مبدئيا لا يمكنه أن يحتاج³، لتبقى قضية أساسية وهي القواعد الداخلية للخطاب، هي التي تتحكم في ترابطه وتسلسله، وهذا يعني أن الحجاج المعني هنا ليس عنصرا يضاف إلى اللغة بل يسري فيها سريانا طبيعيا.

والملاحظ عند استعراض مختلف التعريفات التي وضعت للخطاب*، أنها أكدت الدور التفاعلي والتأثيري للخطاب، وهذه الوظيفة هي الفارقة بينه وبين سائر النصوص باعتباره نصا

¹ - ينظر: فاتح زيان، مصطلح الخطاب في الثقافة الغربية، مجلة كتابات معاصرة، تونس، مج18، ع70، تشرين الأول - الثاني 2008، ص 96 ، 97.

² - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب - دراسة تداولية -، ص 226 ، 227.

³ - ينظر: محمد أخريف، التداولية الترنسندنالية: إيتيقيا المحاججة، مجلة كتابات معاصرة، تونس، مج18، ع70، تشرين الأول - الثاني 2008، ص29.

* - لم نتوسع في تعريفات الخطاب وما دار حولها من نقاشات، واكتفينا بما يقتضيه المقام - ما تعلق بالحجاج -، للتوسع راجع: سارة ميلز، الخطاب، تر: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004.

لغويا، من ذلك - مثلا - التعريف الذي يقول بأنه كل قول يفترض متكلما ومستمعا، ويكون لدى المتكلم مقصد التأثير في الآخر على نحو ما¹.

والخطاب في حد ذاته كمجموعة من العبارات لها قوة مؤسساتية؛ أي أن لها تأثيرا عميقا على الطريقة التي يفكر بها الأشخاص وعلى الطريقة التي يسلكونها، ومع ذلك تبقى للخطاب - أيا كان - حدود تحكم ذلك النمط المعين من الأقوال²، كما في الخطاب الحجاجي الذي لا بد وأن تتوفر فيه بعض الضوابط التي تسهم في تداول عملية المحاجة، من ذلك ما يأتي:

أ - توفر المعارف المشتركة بين طرفي الخطاب، مما يسوغ قبول المرسل إليه لحجج المرسل، أو إمكانية مناقشتها أو تنفيذها وإلا انقطع الحجاج بينهما، وتوقفت عملية الفهم والإفهام بل الإقناع، وذلك أن اختيار الحجج وترتيب أولويتها تتوقف على تلك المعرفة، وكذلك تركيب الخطاب.

ب- ألا يقع المرسل في التناقض بقوله وفعله، وكذا موافقة الحجاج لما يقبله العقل، وإلا بدا زيف الخطاب ووهن الحجة.

ج- مناسبة الخطاب الحجاجي للسياق العام، لأنه هو الكفيل بتسويق الحجج الواردة في الخطاب من عدمها، فقد يكون الحجاج صحيحا من الناحية النظرية، ولكنه غير مناسب للسياق.

د- لا بد من خلو الحجاج من الإيهام والمغالطة والابتعاد عنهما، لأن الحجاج لا يخلو منهما إذا كان معنى الخطاب غير محدد؛ إذ يصبح من قبيل الخطاب العام الذي لا يكتشفه المرسل إليه إلا بعد حين.

¹ - ينظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظرية الخطاب، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001، ص 31.

² - ينظر: سارة ميلز، الخطاب، تر: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004، ص 49.

وعلى الرغم مما توفره اللغة من فرص للتلاعب والمناورة، إلا أن الحجاج المقصود هو ما يتكئ على الكفاءة التداولية لإيضاح الحجج وكشف الأمور، وإبعاد اللبس، ليصبح بذلك فعلاً تأثيرياً¹.

وفي المفهوم الذي ذهب إليه الأمدي يسقط مبدأ التأثير والإقناع في العملية التخاطبية، وإن كانت مجرد إشارة - لمن هو متهيئ لفهمه - إلى أن الخطاب هو اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه²؛ إذ توحى بشيء من الاستعداد للتفاعل وهو ناتج عن التأثير طبعاً، ثم أن " لكل أفعال التلفظ Actes d'enonciation وظيفة حجاجية Fonction Argumentative ، تؤدي إلى حمل المستمع إلى نوع من الاستنتاج، وربما تحريفه عنه، وظيفة تظهر كعلاقة في بنية الجملة ذاتها.³"

وقد كان لطفه عبد الرحمن رأي مهم في هذه القضية - الخطاب والحجاج - فقد عالجهما بصفة شاملة ومحكمة ، معتمداً في ذلك على اطلاعه الواسع على التراث العربي والغربي في آن واحد، يلخص طه عبد الرحمن العلاقة بين الخطاب والحجاج في ثلاث " دعاوى " جاءت متسلسلة وشكلت الأعمدة التي بنى عليها ما سماه بتكوثر* الخطاب:

- الدعوى الأولى هي أن الأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابية، والقصد منه أن ليس الكلام مجرد وحدات مرتبة بأسلوب ما، بل هو البناء ذاته الذي تقوم عليه العملية

¹ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص (466 - 468).

² - ينظر: الأمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، لبنان، (ط)، 1980، ج 1، ص 136.

³ - ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 125.

* - في تحديده لمفهوم التكوثر والتكوثر العقلي، يرى أن الكوثر يشكل إحدى مشتقات التكاثر والكثرة، فالتكاثر يتعلق بما هو مادي محسوس كتكاثر النسل والمال والبناء...، أما التكوثر فهو خاص بالعقل الذي هو دائم التجدد ومتقلب دون انقطاع، فهو يتسم بالفاعلية، بل هو أسمى الفعاليات الإنسانية وأقواها، وهو أيضاً فعل قصدي وطالب للمنفعة، فالعقل يسعى دائماً إلى القصد وإلا تعطل، وإذا قصد فلا بد أن يطلب ما ينتفع به وإلا انحط.

التواصلية، والخطاب بهذا المعنى قائم على قصدتين اثنتين، على اعتبار الخطاب أصلا في كل تواصل وهما:

- القصد الأول هو التوجه إلى الغير، ومعناه ما ذهب إليه ياكبسون وبنفنيست من ألا وجود للتواصل إلا بوجود قطبي الخطاب (المرسل والمرسل إليه)¹.
- القصد الثاني هو إفهام الغير، " فلا يكون المنطوق به كلاما حتى تحصل من الناطق إرادة إفهام الغير، وما لم تحصل منه هذه الإرادة فلا يمكن أن يعد متكلما حقا، حتى ولو صادف ما لفظ به فهما ممن النقطة، لأن المتلقي لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد أفهم ما فهم، سواء أوافق الإفهام الفهم أو خالفه"²؛ أي أن يكون المستمع إيجابيا فعلا في العملية التخاطبية.

والمحدد للعملية الكلامية هو العلاقة التخاطبية لا اللفظية المنفردة؛ إذ لا يدرك المخاطب مدلول المخاطب من خلال ما في المعاجم، وإنما اعتمادا على " قصد المخاطب منه عند النطق به والذي يدعو المستمع إلى الدخول في تعقبه مقاميا، لا تحقيق حده معجميا"³.

- الدعوى الثانية هي أن الأصل في تكوثر الخطاب هي صفته الحجاجية؛ إذ أنه لا خطاب بدون حجاج، فالخطاب أصل في كل تعامل ويتأسس على ذلك قصدان: قصد الادعاء وقصد الاعتراض:

- أما قصد الادعاء فهو ألا يكون الخطاب خطابا، حتى يكون الناطق به معتقدا بما يقوله، ويكون أيضا على استعداد لإقامة الحجة على ما يقول، عملا على إقناع غيره

¹ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص 191.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006، ص 214.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 215.

بما دار عليه الخطاب، فخلو الخطاب من هذا القصد يجعل المخاطب غير ملزم

بالاعتقاد بما يقوله أو كاذبا في كلامه، وهو بذلك عابث باعتقاد غيره¹.

• وأما قصد الاعتراض فإنه يرتبط بالمخاطب الذي له حق مطالبة المتكلم بإيراد الدليل

على ادعائه " ذلك لأن فقد المنطوق له لهذا الحق يجعله إما دائم التسليم بما يدعيه

الناطق فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه، وإما عديم المشاركة في مدار الكلام"².

على خلاف العملية التواصلية القائمة على التبادل والتفاعل، وكذا عرض الحجج ودحضها

والإتيان بحجج أخرى مغايرة، فالمعتراض هو " المخاطب الذي ينهض بواجب المطالبة بالدليل على

قول المدعي"³.

ومن خلال القصدين السابقين يمكن أن نستنتج أن حدّ الحجاج عند طه عبد الرحمن هو

كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق الاعتراض عليها.

أما الدعوى الثالثة والتي يعتبر فيها أن الأصل في تكوثر الحجاج هو صفته المجازية، فإنه

يتجاوز فيها التصريح الثاني (القائم على الادعاء والاعتراض)، إلى أن الحجاج منطوق على شيء

من الالتباس يميزه عن البرهان من ناحية وعن الحجاج المغالطي " الدليل الفاسد" من ناحية أخرى،

ولا يقصد به التباس اللفظ الواحد في تعدد معانيه أو خلطا في تركيب الجملة، وإنما لاشتماله على

اعتبارين اثنين: اعتبار الواقع واعتبار القيمة، بمعنى ازدواجية طلب معرفة الواقع وطلب الاشتغال

بقيّمته في الحجاج⁴.

¹ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص 192.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 215.

³ - المرجع نفسه، ص 226.

⁴ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب - دراسة تداولية -، ص 194.

أما عن أسبقية القيمة على الواقع، فإن الأصل هو أن القيمة هي الأصل الذي يتفرع عنه الواقع والعكس غير صحيح، وذلك أن القيم قائمة في الأشياء ذاتها، غير الواردة على الإنسان من الخارج، إنما الإنسان هو الذي أقامها في الأشياء، فهو الذي وضعها وهي علامة ظهوره في الوجود، ومعنى الواقع هو نفسه أحد هذه القيم التي هي ثمرة عمل الإنسان¹.

ونظرا لطبيعة مدونتنا التي نشتغل عليها، ارتأينا أن نبين أن الحجاج لا يتم شكلا إلا إذا استطاع المتكلم أن يبني الوحدات اللغوية وفق نسق مضبوط ومحكم.

هذا النسق لا نكاد نجده في الخطاب الشفهي الذي يخضع أكثر لاعتبارات خارجة عن اللغة (هوية المستمع، السياق المتعدد الأبعاد، الوضعية النفسية التي تجري فيها العملية الحجاجية...)، غير أن الخطاب الكتابي هو الذي يخضع خضوعا تاما لمجموعة محددة من القواعد والعلاقات، تجعل من الخطاب ينحو منحى واضحا يدركه المتكلم كلما تقدّم في قراءة النص².

والحجاج كي يؤدي وظيفته الأساسية من إقناع وتأثير في الغير، لا بد أن يكون شاملا غير منقوص في بنائه كي لا تتعطل العملية الحجاجية، لذا رأى البعض ضرورة خضوع الحجاج لمقتضيات بنيوية وتركيبية، ولتنظيم خاص غير مشروط بالضرورة لما جسده ج.م.آدام فيما يلي:

الحجة ————— الحجة المضادة ————— الخاتمة³.

بمعنى أنه على المخاطب أن يبني كلامه ضمن سلسلة محكمة تؤدي بالمخاطب إلى فهم مقصده، ودلالات وحداته المعجمية دون ترك مجال لتأويل قد يبعده عن مقصده.

¹ - ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 231.

² - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص 196.

2- C.Golder, ledéveloppement des discours argumentatifs, lausameDelachaux et niestlé, 1996, p155.

ومعنى هذا كله أن المحاجج يتوخى في خطابه عنصرين:

- عنصر الحوارية الذي يساهم في استمرار الحجاج من نقطة الابتداء إلى النهاية.
 - عنصر التجانس الذي يسمح بإدراج أنواع متضادة من الحجج، وذلك بخضوعه لمقتضيات البناء اللغوي للغة المكتوبة¹.
- ويتجسد هذان العنصران في وحدة شكلية هي النص، ولا يهمننا العنصر الأول في هذا المقام، لأننا نعتقد أننا تعرضنا فيما سبق لعنصر الحوارية، فما يهمننا في هذا المجال هو كيف يتجسد الحجاج في النص باختلاف مظاهره وأنواعه ومكوناته؟

القيمة التي تُعزى إلى النص ليست بالضرورة شيئاً كامناً فيه، بل يتمثل معظمها في استجابة القارئ أو السامع له؛ إذ أن الأخير لا يكتفي بأن يتلقى بياناً جمالياً محسوساً، لكنه يتأثر ببعض المثيرات - وهذا التأثير في طبيعته تقييم - ومن هنا فإن فكرة التأثير ذات طابع سيكولوجي في المقام الأول².

وإذا اعتمدنا في عملية البحث على قواعد النظام اللغوي فحسب، فإن العناصر اللغوية وغير اللغوية التي هي في الأصل لغوية تتمثل في قصد المؤلف، ومدى التأثير على القارئ، أو بشكل أدق مدى الإقناع الذي يكون أثناء التلقي في إطار محدد، يطلق عليه عملية الاتصال اللغوي³، وهو أمر هام بالنظر لمثل هذه النصوص.

¹ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص 197.

² - ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 121.

³ - ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، لونغمان، القاهرة، ط1، 1997، ص 118.

ويتعلق الأمر في هذه النصوص في الغالب بالنسبة للمرسل بإقناع المتلقي من خلال ذكر أسباب رؤيته، وتقويمه لحالة ما، وتحفيزه إذا اقتضى الأمر إلى فعل مناسب، ويكون هذا البسط الحجاجي مميزا خاصة في نصوص الاستشارة¹.

فالتكلم عن النصوص الحجاجية يفترض أننا نعتقد في الإمكانية النظرية وفي الفائدة التعليمية في تصنيف النصوص وتحديد " الأجناس " و " الأنواع " أو " النماذج " التي من المستحسن معرفة خصائصها.

ويمكن تعريف النص الحجاجي في نقطتين اثنتين: الأولى أنه لا يختصر في نموذج البرهنة المنطقية على الرغم من استعماله لبعض نماذجه، والثانية هي اعتبار النص الحجاجي مركزا حواريا بين " المتلقين "؛ إذ يركز على العلاقة مع الآخر²، يبدو أن هذا التعريف مبني وفق منظور " برلمان " وهو ذو وجهة تعليمية صرفة.

كما يمكن تحديد الملامح الأولية لطراز النص الحجاجي فيما يلي:

أ - العلاقة بين أجزاء النص الحجاجي علاقة منطقية، أكثر من كونها علاقة تصويرية كما هي الحال في النص غير الحجاجي³، على أن العلاقة التصويرية صادرة عن تجربة محددة ومقيدة بزمن وحدث التصور أما المنطقية فاستتباطية.

ب- يبنى النص الحجاجي _ في شكله الرئيس _ على مكونات ستة هي: الدعوى (أو النتيجة)، والمقدمات أو تقرير المعطيات، والتبرير، والدعامة، ومؤشر الحال، والاحتياطات.

¹ - ينظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2005، ص 105، 106.

² - ينظر: الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم - سورة النمل نموذجا - ، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع 12، شعبان 1418هـ، ديسمبر 1997، ص 275.

³ - ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 189.

فالدعوى/ النتيجة (conclusion): إذ تمثل نتيجة الحجاج، وهي مقولة تستهدف استمالة الآخرين، وقد تذكر الدعوى صراحة أو قد تضمّن.

المقدمات (les donnees): وهي تقرير يصنعه المجادل عن أشخاص أو أحوال أو أحداث، ويرتبط بالدعوى ارتباطاً منطقياً حتى تصلح لتدعيمها.

والتبرير/ الضامن (la garantie)^{*}: وهو بيان للمبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى وفقاً لعلاقتها بالمقدمات.

والدعامة / السند/ الأساس (le support): وهو كلّ ما يقدّمه المجادل من شواهد وإحصاءات وأدلة وقيم... إلخ، وذلك لتقوية مصداقية المقدمات والتبريرات عند المستقبل.

ومؤشر الحال/ الموجه/ علامة القوة (le qualificateur): كل ما يقدم من تعبيرات تظهر مدى قابلية بعض الدعاوى للتطبيق نحو: من شبه المؤكد، من الممكن، من المحتمل، على الأرجح... إلخ.

والتحفظات / الاحتياطات / الاستثناء/ التقييد (la restriction): وهو الأساس الذي ينهض عليه الحكم بعدم مقبولية النتيجة، أي شروط رفض القضية¹.

^{*} - الضامن عند علماء الحجاج ومنهم تولمين، هو القاعدة التي على أساسها يحصل العبور من المعطى (م) إلى النتيجة (ن) : وقد استخدم بلونتين (Plantin) في حديثه عن " الضمان " عند تولمين مرادفاً له مصطلح (قانون العبور) (Loi de passage)، لكون ذلك الضامن هو الذي يسمح قانونياً بالمرور من (م) إلى (ن). علماً بأنّ تولمين يميز بين المعطى والضامن على أساس أن المعطى يكون مصرحاً به في حين يكون الضامن ضمناً. ولنا أن نستخدم أيضاً مفهوم " الضمان " أو " قانون العبور " هذا فنقول إنّ المرور من المنطوق إلى المفهوم الدلالي عندنا وهو ذو طبيعة ضمنية أيضاً شأن طبيعة " الضمان " عند تولمين، وتحديدًا هو مقتضى أو شيء من هذا القبيل. وكونه مقتضى يعني أنه محل إجماع أو على الأقل يقدم نفسه على أنه كذلك. [راجع: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص 289].

¹ - ينظر: المرجع السابق، ص 190، 191.

ج- النص الحجاجي نص تقويمي، والقيمة مفهوم يستتبط مما يقوله الناس، ومما يفعلونه، ومما تشيده المجالات.

كما تعددت المقاربات المتعلقة بتحديد أنواع النصوص، منها ما بني على دورة التخاطب المشهورة لجاكوبسون، ومنها ما بني على " نظرية القول " خاصة بنفسيت بين "القصة" (السرد التاريخي) وبين " الخطاب "، إلا أنه يمكن التمييز بين خمسة أنواع من النصوص: الوصفي، والسردى، والعرضي، والحجاجي، والأمري، وهو التقسيم الذي قام به إ. ويرلايك وتم تطوير هذا التقسيم من طرف آدام وكومبيت¹، وإن كان يبدو أن أكثر مزاياه في المجال التعليمي حيث يفيد أكثر.

إنّ النص الحجاجي مثل النص السردى الذي يمر من مرحلة أولية إلى مرحلة نهائية بواسطة مسار تحويلي، يمر أيضا من مرحلة التفكير الأولى (الأطروحة المرفوضة) إلى مرحلة التفكير النهائي (الأطروحة المقترحة) بواسطة مسار حجاجي²، هذا من الناحية المثالية لأننا نجد في الواقع تداخلا بين المراحل في التقديم والتأخير وذلك حسب الاستراتيجية الحجاجية، غير أن النص الحجاجي يتميز عن النصين السردى والوصفي بخاصيته التحاورية.

ومع خصوصية هذا النوع من النصوص فإنه يمكننا استخراج عدة نماذج منها :

أ - النصوص الحجاجية المختلطة: وهي نصوص " متفجرة " (المقال الصحفى).

ب - النصوص الحجاجية محكمة البناء: وفيها عدة نماذج:

- نصوص ذات توجه برهاني: كثرة الروابط المنطقية، الاستقراء، الاستنتاج،

والقياس.

¹- ينظر: الحواس مسعودي، النصوص الحجاجية، ص 278.

²- ينظر: المرجع نفسه، ص 279.

- نصوص ذات توجه عرضي: ويركز على مدى سير " الخبر " في النص.

- نصوص ذات توجه حوارى: ذات طابع جدلي¹.

ويحدد بيرلمان وتيتيكا موضوع الحجاج في " دراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من إثارة وتعزيز وانخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة "². وعليه فإن الانسجام الإيجابي مع الفروض والمواقف المطروحة هو محور الحجاج، فالغاية إذن هي إحداث التأثير العملي الذي يمهد له التأثير الذهني، وهكذا فإن الحمل على الإقناع إذ يتوسل بالخطاب يستعين بالعقل³. والخطاب الحجاجي في عمومته يحتوي حسب " ديكرود " و " أنسكومبر " على ملفوظين اثنين على الأقل [م 1] و [م 2]، حيث يقوم أحدهما بتعزيز الآخر، ويسمى الأول حجة والثاني نتيجة.

أما العلاقة التي تربط بين الحجة والنتيجة فهي " العلاقة الحجاجية " ورمزها الكتابي:

ح ← ن

حيث ح حجة ون نتيجة

وتمثل شرط العلاقة الحجاجية في أن يدخل المكون الثاني في علاقة حجاجية مع المكون الأول⁴.

3 – Op: Alain Baissinot, les testtesargumentatifs, CRDP, Toulouse, 1996, p35.

² – عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013، ص 85.

³ – ينظر: المرجع نفسه، ص 85.

⁴ – L'argumentation dans la langue, Anscombre et Ducrot; op cit, p163. نقلا عن: عبد

الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016، ص 149.

إن الحجة هنا عبارة عن عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، والحجة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص، أو قد تكون مشهداً طبيعياً، أو سلوكاً غير لفظي، إلى غير ذلك.¹

والحجة تكون ظاهرة كما قد تكون مضمرة بحسب السياق، والشيء نفسه بالنسبة إلى النتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما.

ويشار إلى أنه في حالة إضمار النتيجة يشترط العمل بمبدأ تسهيل الظفر بالنتيجة، أي يقدم المتكلم ما يكفي من المعلومات لإعادة بناء النتيجة.² يقول روجي بوتيه: "إن النتيجة الضمنية التي يترك أمر استنباطها للمتلقى أبلغ أثراً في نفسه من النتيجة المصرح بها من حيث إن المساهمة المطلوبة إليه في استخراجها تؤدي إلى جعله لا يعتبر النتيجة مفروضة عليه من الخارج وإنما يعتبرها نتيجته هو شخصياً".³

ويحدد " هشام الريفي " شكل البنية الحجاجية وعناصرها بأن البنية الحجاجية الدنيا التي يشترك المحدثون في الاشتغال عليها تتكون من أركان ثلاثة: معطى (م) ونتيجة (ن) وعلاقة مرجعية (ع) ويمكن أن نرمز إليها بالشكل (م ، ن) غير أنهم اختلفوا في المستوى الذي ينزل فيه التوجيه الحجاجي.⁴

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 149.

² - رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، عالم الفكر، الكويت، مج 34، يوليو - سبتمبر 2005، ع 1، ص 228.

³ - Roger BAUTIER, Recherches expérimentales américaines sur la "Communication persuasive", in l'argumentation, op. cit. pp 203-218. عبد الله صوله، في نظرية الحجاج

دراسات وتطبيقات، ص 163.

⁴ - ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 161.

ويبقى أن نسأل هل أن للحجاج بناء شكليا محددًا يحكمه منطق معين، وقواعد وآليات وطرائق خاصة، يمكن من خلالها إثبات حجاجية القول الحجاجي؟ وهل هناك علاقة محددة بين بناء النص وحجاجيته؟

وعلى حد قول طه عبد الرحمن من أنه " لا معرفة عقلية تصبح بغير منطق يضبطها "¹ يتعين علينا أن نسعى إلى محاولة إيجاد شكل حجاجي ما لبناء نصوص البشير الإبراهيمي.

1-2- البناء الشكلي الحجاجي لنصوص البشير الإبراهيمي:

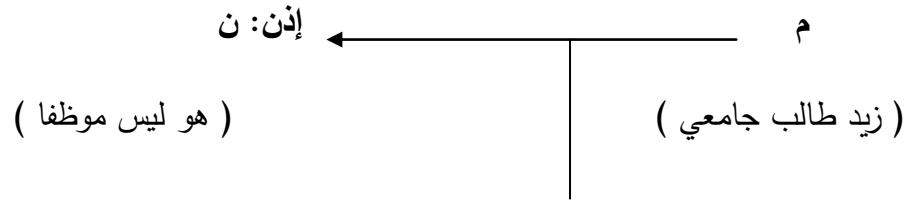
إن الشكل النموذجي القاعدي للحجاج يتمثل في الربط بين المعطيات والنتيجة، وذلك الربط يمكن أن يكون مؤسسا صراحة أو ضمنا بوساطة ضامن وسند أو دعامة، تكون المعطاة هي الظاهرة والسند هو المضمّر في أغلب الأحيان، أما العناصر المكونة للمقطع الحجاجي فهي تتأرجح بين الظهور والإضمار².

وتتمثل بنية النموذج الحجاجي كما بينها تولمين في وضع رسم تخطيطي يبين من خلاله البنية المصغرة، أي الشكل الرئيس للوحدة الحجاجية، اعتمادا على أهم العناصر في عملية الحجاج (مكونات النص الحجاجي).

وقد تكوّن الشكل الحجاجي في المرحلة الأولى من ثلاثة أركان أساسية، هي: المعطى (م) والنتيجة (ن) والضامن (ض)، ويصاغ نظريا على النحو التالي:

¹ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 13.

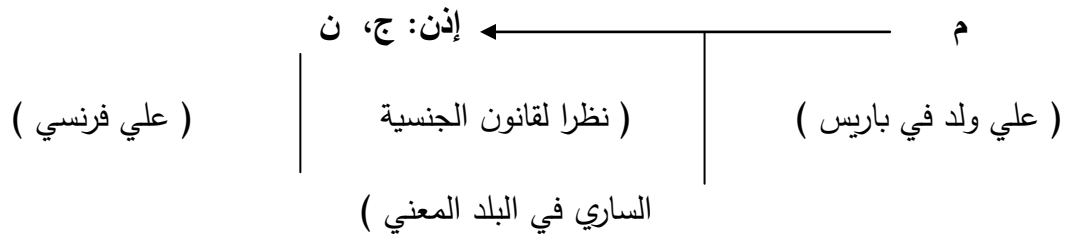
² - ينظر: عبد القادر بوزيدة، نموذج المقطع البرهاني أو الحجاجي، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والدب العربي، جامعة الجزائر، ع 12، ص 307.



نظرا إلى أن: ض

(أغلبية الطلبة الجامعيين ليسوا موظفين)

وقد أخذ الشكل السابق ذاته دقة أكثر بأن أضيف إليه عنصران هما عنصر الموجه (ج) وعنصر الاستثناء (س)، فأصبح كالاتي:



نظرا إلى أن: ض

إلا إذا: س

(الأشخاص المولودون في باريس معظمهم فرنسيون) (إلا إذا اختار الجنسية الجزائرية

حين

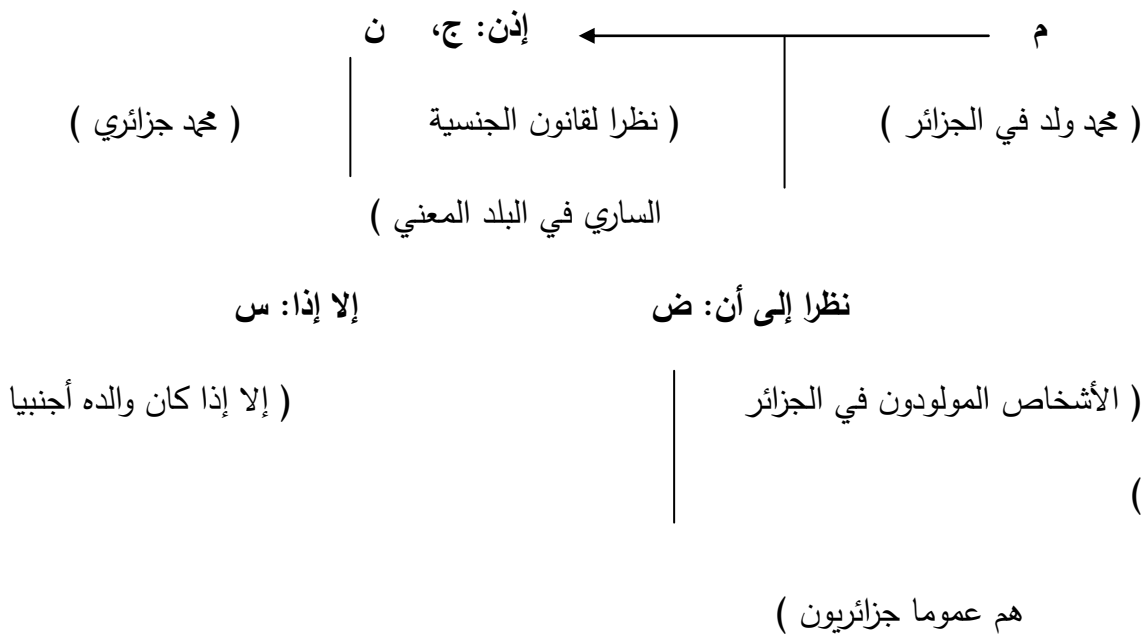
يبلغ الثامنة عشر)

نسق النص السابق كآلآتي: لكي نؤكد (ن) يجب أن نفترض (م) بسبب (ض) و (

ج) تحت شرط (س).¹

وقد أخذ الشكل السابق للنص الحجاجي مزيد من التدقيق، وذلك بإدخال عنصر السند/ الأساس

(د) الذي يبنى عليه الضامن، وشكله كآلآتي:²



بحكم أن: د

(بحكم أن الجزائر بلده)

ونسق النص السابق كآلآتي: لكي نؤكد (ن) يجب أن نفترض (م) بسبب (ض) و (

ج) وبحكم (د) تحت شرط (س).

¹ - ينظر: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني - دراسة في نصوص الترغيب والترهيب -، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016، ص 88، 89.

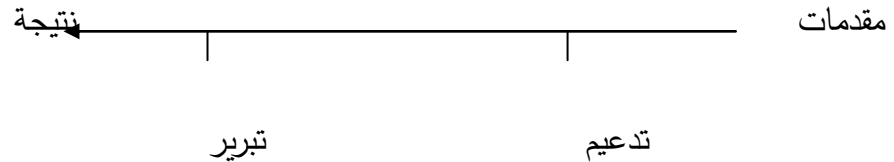
² - ينظر: المرجع السابق، ص 90.

وعليه فبالنظر إلى العناصر المكونة للنص الحجاجي عموماً، وبإسقاطها على النص الإبراهيمي بناءً على حضور تلك العناصر من عدمها، نجد أن الشكل الحجاجي المتواتر في كتابات البشير الإبراهيمي هو نفسه الشكل الأشيع في النص الحجاجي العربي، و" الشكل الأشيع للنص الحجاجي العربي المكتوب هو النص الذي يبدأ بالمقدمات فالدعوى فالتبرير"¹، وهو ذو نسبة معتبرة في النص الحجاجي عند البشير الإبراهيمي؛ إذ نلاحظ ذلك في أكثر النصوص عنده، وقد يقتصر النص على هذه العناصر دون غيرها من مكونات النص الحجاجي الأخرى.

كما أنه في كثير من الحالات قد يتجاوز تلك العناصر الثلاثة (مقدمات ودعوى وتبرير) إلى التدعيم، وقد حصل هذا مع من مجموعة النصوص.

أضف إلى ذلك أنه في حالات غير قليلة يتجاوزه إلى الاحتياط والتدعيم معاً، ونلاحظ أن إيرادها أقل من التدعيم، وهذا لأن حاجتها في الحجاج أقل من التدعيم في كثير من الحالات، وأكثر النصوص التي غاب فيها التدعيم يبدو وكأن طبيعة الموضوع تقتضي ذلك، فكأن به لا حاجة للتدعيم من باب المشهور أو المعروف.

والشكل الأشيع للنص الحجاجي العربي ومنها النص عند الإبراهيمي، كالتالي:



¹ - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 205.

" وهو شكل يتسم بالمنطقية التي تعد أسس الحركة الحجاجية المتنامية، مترابطة العناصر " ¹؛ إذ ترتبط الدعوى بالمقدمات منطقياً، ولكي يجعل الكاتب خطابه مقنعا يعتمد التبرير والتعليل وهذا هو الحاصل في " كتابات الإبراهيمي "؛ إذ التبرير حاضر في أكثر النصوص المختارة مع التعليل.

ونورد هنا مجموعة من النصوص التي اخترناها كنماذج للدراسة من مجموع كتابات البشير الإبراهيمي، وسنعمل على تحديد البناء الشكلي لها بناء على حضور العناصر المكونة فيها، وتبنى هذه الدراسة التطبيقية التالية على تسعة نصوص حجاجية من كتابات الإبراهيمي، تختلف هذه النصوص في موضوعات الحجاج: موضوعات اجتماعية، ودينية، وفكرية، وسياسية، ومن تلك النصوص ما تمتزج فيه الموضوعات وتتداخل، كالحجاج السياسي من منظور ديني.

وصاحب تلك النصوص كلها واحد - البشير الإبراهيمي -، فهي خاضعة للأسلوب نفسه وذات مرجعية ثقافية وفكرية ودينية واحدة، يعطي ذلك كله فرص تطابق أو تقارب البنى الحجاجية بين تلك النصوص على نحو أو آخر، الشيء الذي يبرر وقوفنا عند عدد محدود من النصوص أمام الكم الهائل من نصوص آثار البشير الإبراهيمي، وهذا يفسح المجال لمحاولة اكتشاف بعض الوسائل المختلفة التي توسلت بها للإقناع والاستمالة.

وفيما يلي توصيف عام للنصوص المختارة ومكوناتها الحجاجية:

(النص 1) : الأديان الثلاثة في الجزائر. ²

مقدمات: تتجاوز في الجزائر ثلاثة أديان أصلها السماء. ¹

¹ - المرجع السابق، ص 205.

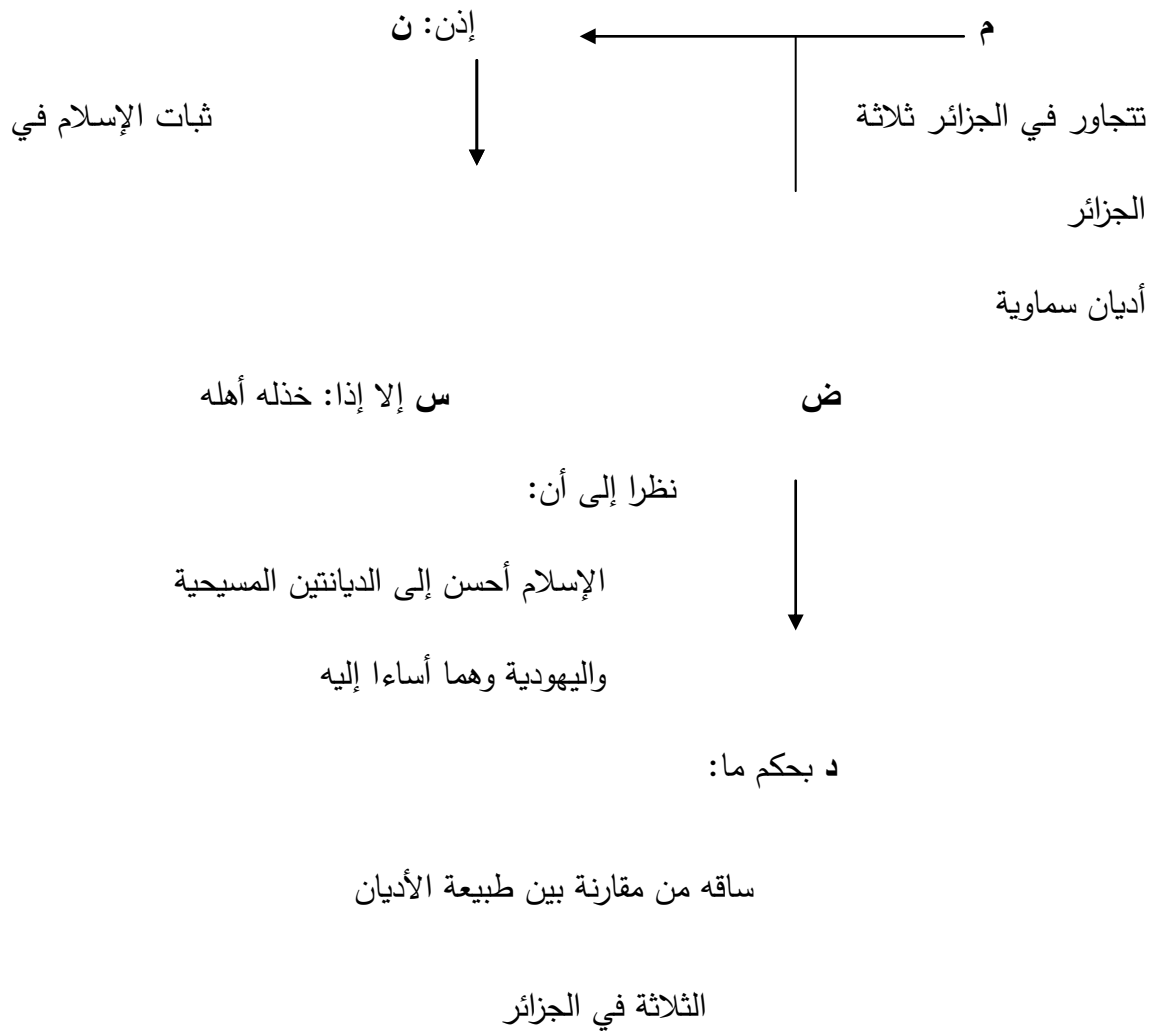
² - ينظر: آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 78 - 62.

التدعيم: مقارنة وموازنة بين الأديان الثلاثة في الجزائر حول طبيعة الصراع القائم بينها.

التبرير: الإسلام في قوته أحسن للديانتين اليهودية والمسيحية، في حين أساء أيما إساءة له.

النتيجة (مذكورة): ثبات الإسلام في وجوه أعدائه داخل الجزائر.

فالشكل الحجاجي العام لهذا النص هو:



¹ - ينظر: المرجع نفسه، ج3، ص 78.

(النص 2) : ذكرى 8 ماي.¹

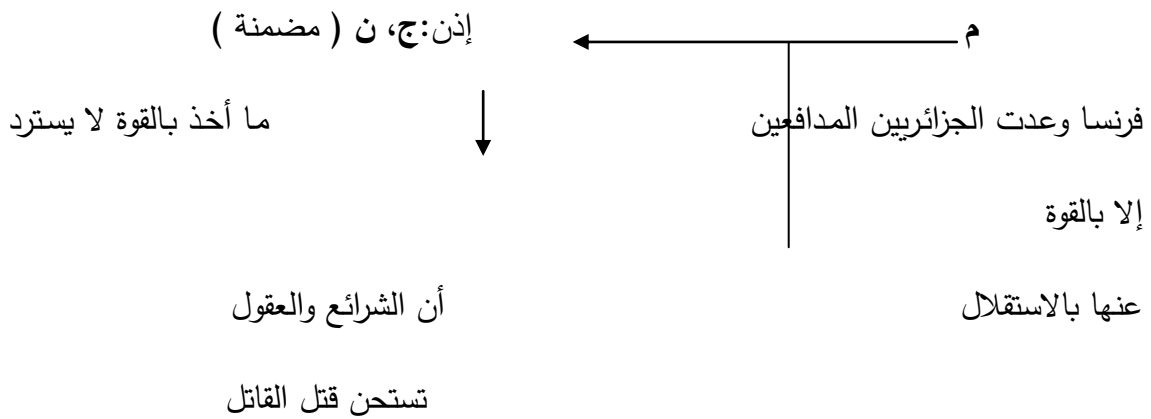
مقدمة: على الرغم من وعد فرنسا للجزائريين المدافعين عنها بالاستقلال إلا أنها قابلت ذلك بالقمع وهذه سياسة الاستعمار دائما.

احتياط: في قوله: " تستحسن العقول قتل القاتل وتؤيدها الشرائع فتحكم بقتل القاتل ".²

تبرير: تقديم نماذج عن جرائم الاستعمار عبر التاريخ ولا ردّ له إلا بالقوة.

النتيجة (مضمنة): ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

فالشكل الحجاجي لهذا النص:



ض

نظرا إلى أن:

النماذج والشهادات عن جرائم فرنسا في

حق أولئك الجزائريين

¹ - ينظر: المرجع السابق، ج3، ص 333 - 335.

² - المرجع نفسه، ج3، ص 334.

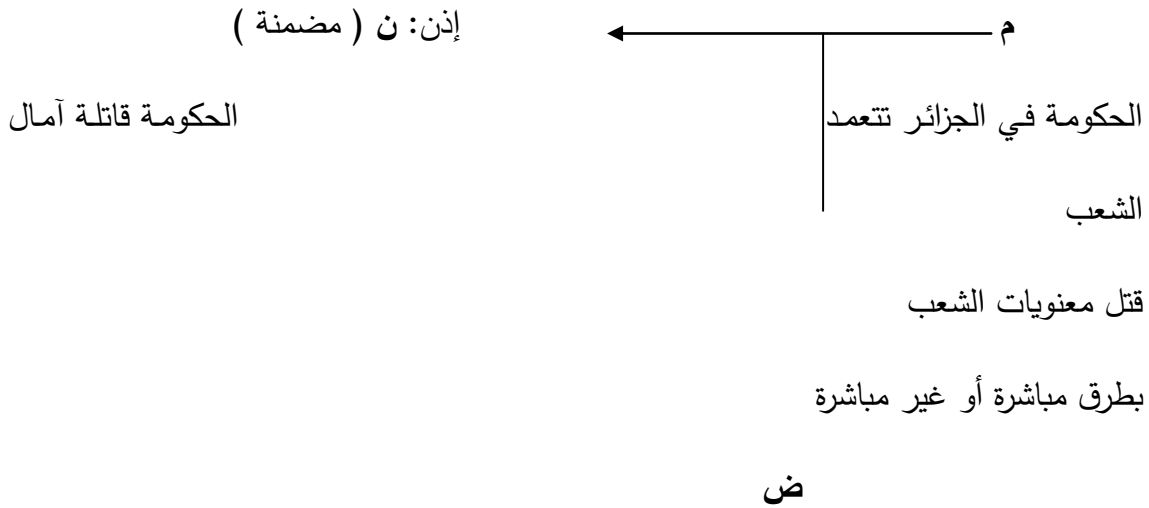
(النص 3) : عادت لعتريها لميس.¹

مقدمة: " أما حكومة الجزائر تتعمّد تلك المعنويات بالقتل الوجي، عمدا مع الإصرار، وجهرا ليس فيه أسرار ".²

تبرير: إفساد العملية الانتخابية بعد أن فقه الشعب معناها، وكذا إعاقة المدارس العربية بعد أن آتت أكلها.

النتيجة (مضمنة): الحكومة قاتلة آمال الشعب.

فالشكل الحجاجي العام للنص هو:



نظرا إلى أن:

الحكومة أفسدت العملية الانتخابية

وأعاقت المدارس العربية

¹ - ينظر: المرجع السابق، ج3، ص 341 - 346.

² - المرجع نفسه، ج3، ص 341.

(النص 4) : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.¹

مقدمة: العنوان (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

التبرير: " القرآن إصلاح شامل لنقائض البشرية الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائض من أصولها".²

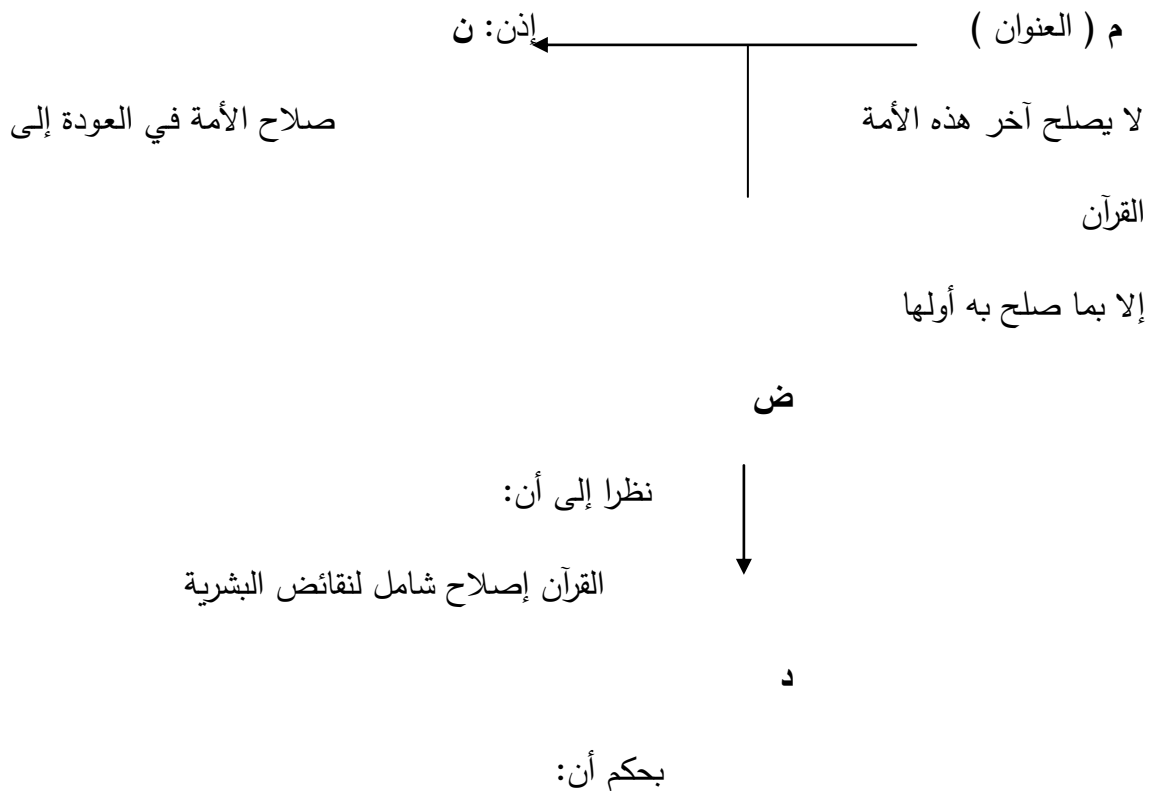
التدعيم: ساق الإبراهيمي مجموعة من الحجج بين فيها أن إقامة حدود القرآن هو الذي استقامت به

حال الجيل الأول من هذه الأمة.

النتيجة: العودة إلى القرآن، العبارة " هذا القرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا

يصلح آخرها إلا عليه...".³

فالشكل العام للنص هو:



ما (ساقه الإبراهيمي مجموعة من الحجج تبين أن

¹ - ينظر: المرجع السابق، ج4، ص 93 - 95.

² - المرجع نفسه، ج4، ص 95.

³ - المرجع نفسه، ج4، ص 95.

القرآن هو الذي استقامت به أصول الجيل الأول
من هذه الأمة).

(النص 5): نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد.¹

مقدمة: وهي أن فرنسا لم تبق شيئا للشعب الجزائري حتى يخاف عليه.

التدعيم: قدم مجموعة من الحجج لتدعيم دعواه، تخدم فكرة أن فرنسا لم تبق لكم دينا ولا دنيا:

انتهكت الأعراض - استباححت الحرمات - سلبتكم أرضكم وأفقرتكم - سلبتكم منازلكم وممتلكاتكم -

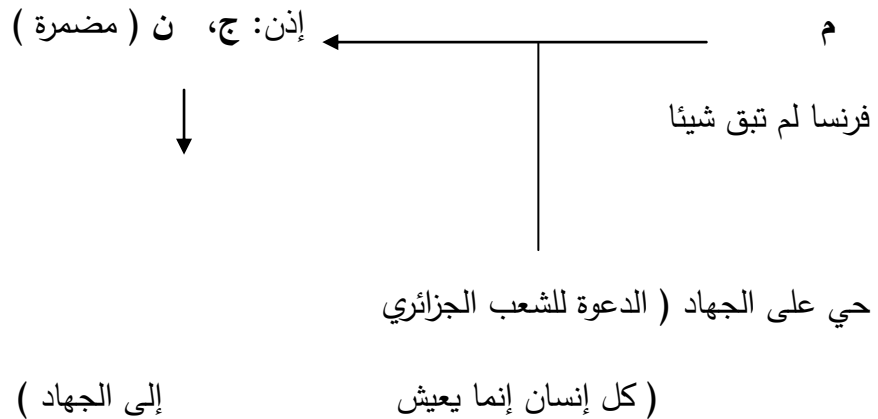
انتهكت حرمة دينكم، رجاله، وأوقافه، ومساجده.²

احتياط: كل إنسان إنما يعيش لدين، ويحيا لدنيا.

تبرير: من فقد الدين والدنيا فبطن الأرض خير له من ظهرها.

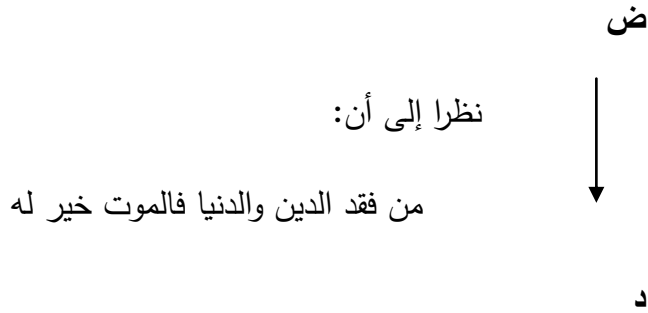
النتيجة (مضمرة): الدعوة إلى الجهاد.

وعليه فالشكل العام للنص، هو:



¹ - المرجع السابق، ج5، ص 33 - 36.

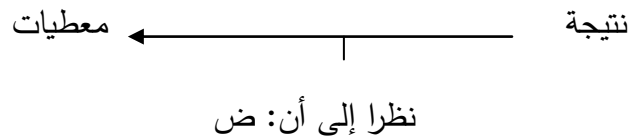
² - ينظر: المرجع نفسه، ج5، ص 34.



بحكم أن: فرنسا لم تبق لا دين ولا دنيا للجزائريين

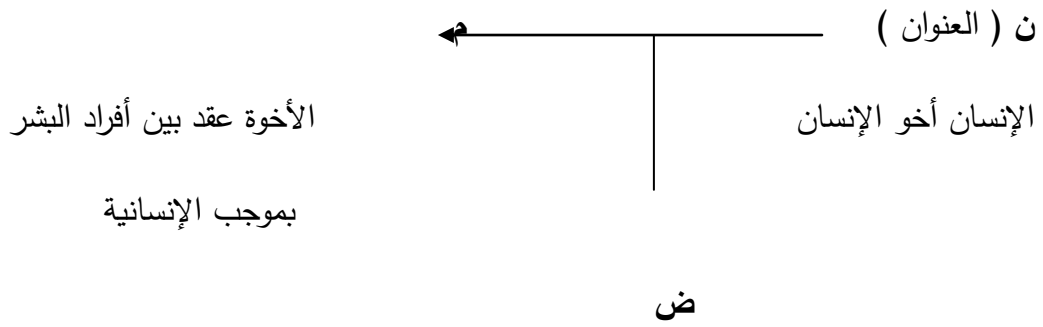
(ساق الإبراهيمي مجموعة من الأدلة على ذلك خدمة لدعوته)

ومن المعروف أن الهيكل الحجاجي للنصوص الحجاجية يختلف باختلاف عدد الوحدات الحجاجية وبنيتها، كما يتغير بناؤها تبعا للمسار السردى وتنظيم المحتوى في النص، فالبنية الحجاجية للنص التي تبدأ بالنتيجة أولا ثم يدرج بعدها المعطيات والحجج، تكون آنذاك إزاء نظام عكسي (تنازلي)، وفيه تشغل النتيجة الموقع المألوف للمقدمات (المعطيات)، فتبدأ البنية الحجاجية بالنتيجة لا بالمعطاة ، ورسمه كالتالي:



وعند الإبراهيمي في كتاباته، لا تبدأ البنية الحجاجية عنده دائما كما هو معتاد وبينا بالمعطاة، وإنما تبدأ بالنتيجة في حالات غير قليلة، وفي هذا انعكاس كبير للتأثر بالأسلوب

وشكل بناء النص كآتي:



نظرا إلى أن:

هذا ما كان من البديهيات وما وقع عليه

إجماع وتطابق العقل والدين

(النص 7): نصيحة دينية¹

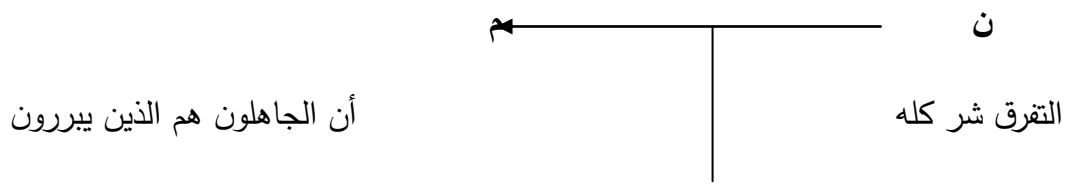
النتيجة: إن التفرق شرُّ كله

التبرير: " إن الله ما شرع هذه الشعائر عبثاً، وإنما شرعها لحكم جليلة أعلاها جمع الأمة على الدين

لتجتمع في شؤونها الدنيوية "².

مقدمة: " لا تسمعوا كلام الجاهلين الذين يسوّلون لكم الخلاف في الدين باسم الدين..."³.

شكل النص حجاجيا هو:



¹ - ينظر: المرجع السابق، ج2، ص 162 - 164.

² - المرجع نفسه، ج2، ص 163.

³ - المرجع نفسه، ج2، ص 164.

الخلاف في الدين باسم الدين

ض

نظرا إلى أن:

شرع الله الشرائع لمقاصد عدة ليس

أقلها اجتماع الأمة في أمر الدين والدنيا

(النص 8): أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني اليوم هو الإسلام.¹

النتيجة: (العنوان) أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني اليوم هو الإسلام.

تبرير: قوله: "تولّى الإسلام في أوّل مراحل قيادته العالم الإنساني العامر للأقاليم المعتدلة، فقادته إلى

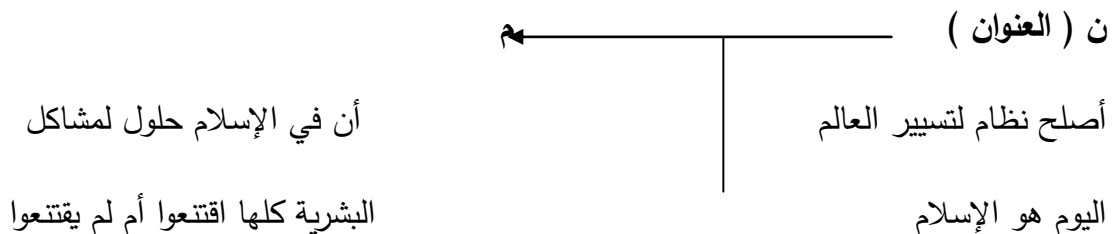
السعادة والخير بأصليين من أصوله هما القوة والرحمة، وبوسيلتين من وسائله في القيادة وهما العدل

والإحسان".²

مقدمة: قوله: "والإسلام دين اقتناع، فلا أقول إنه يجب على العالم أن يصبح مسلما كاملا يصلي

ويصوم، وإنما أقول: إن دواءه مما هو فيه هو الإسلام، فليأخذ أو فليَدَع".³

شكل النص حجاجيا هو:



ض

¹ - ينظر: المرجع السابق، ج4، ص 65 - 69.

² - المرجع نفسه، ج4، ص 65.

³ - المرجع نفسه، ج4، ص 69.

نظرا إلى أن:

الإسلام لما قاد العالم في أقاليمه

حقق السعادة والخير للإنسان

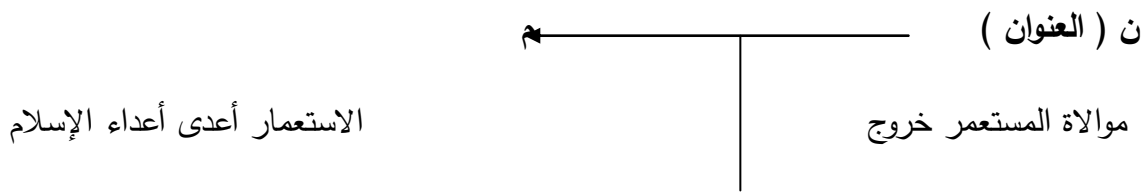
(النص 9) : موالاة المستعمر خروج عن الإسلام.¹

النتيجة: (العنوان) موالاة المستعمر خروج عن الإسلام.

تبرير: قدّم سياقاً حجاجياً في شكل مقارنة بين الإسلام والاستعمار، في قوله: " إن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا غاية. فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد، والإسلام شرع الرحمة والرفق وأمر بالعدل والإحسان، والاستعمار قوامه على الشدة والقسوة والطغيان، والإسلام يدعو إلى السلام والاستقرار، والاستعمار يدعو إلى الحلاب والتقتيل والتدمير والاضطراب، والإسلام يثبت الأديان السماوية ويحميها.... والاستعمار يكفر بكل ذلك ويعمل على هدمه.."²

مقدمة: في قوله: " الاستعمار عدو لدود للإسلام وأهله، فوجب في حكم الإسلام اعتبار الاستعمار أعدى أعدائه، ووجب على المسلمين أن يطبقوا هذا الحكم الإسلامي وهو معاداة الاستعمار لا موالاته "³.

والشكل الحجاجي للنص هو:



¹ - ينظر: المرجع نفسه، ج5، ص 68 - 70.

² - المرجع السابق، ج5، ص 68.

³ - المرجع نفسه، ج5، ص 68.

وعليه لا بد من معاداته لا

عن الإسلام

موالاته

ض

نظرا إلى أن:

الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان

لا في مبدأ ولا غاية

(وساق الإبراهيمي مقارنة بينهما تبين ذلك).

1-3- مكونات النص الحجاجية عند الإبراهيمي:

عادة ما يبنى النص الحجاجي على دعوة واحدة رئيسية، سواء أكانت مذكورة أو مضمنة، وقد يعبر الكاتب عن هذه الدعوى أحيانا في أكثر من موقع في النص¹، ونجد مثل هذا مع البشير الإبراهيمي فلا يمكن أن يخرج عن صياغة النص الحجاجي العربي العام خاصة القديم منه، وفي تلك النصوص التي أعاد الإبراهيمي ذكر الدعوى، نجده أعادها بصياغة أخرى، وكانت بتغيير بسيط فقط عن الصياغة الأولى للدعوى الرئيسية.

ومن " المؤلف أن يبدأ النص الحجاجي بالمقدمات، ولكن يندر جدا أن تشغل الدعوى الموقع المؤلف للمقدمات"²، وهذا ما نلاحظه في أربعة من النصوص المختارة، مع اختلافها في الموضوعات المطروقة في كل نص من سياسية واجتماعية ودينية، وهي بالترتيب (النص 6)، (النص 7)، (النص 8)، (النص 9).

¹ - ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 206.

² - المرجع نفسه، ص 206.

هذا لأنه في بعض الأحيان تحتاج الدعوى إلى م مهدات من خلالها يبسط المحاجج موضوعه، حتى يكون طرح الدعوى منطقيا، وأرى أن حيازة الدعوى على المكان المخصص للمقدمة في بعض الحالات منطقي، إما لإبراز الدعوى بشكل لافت للمخاطب، أو لأن القضية مشهورة ومعروفة لدى الجميع فلا تحتاج منه إلى تمهيد وتقديم، وقد تدخل ضمن ما يسمى الأطروحة المضادة في بعض الحالات، فالبنية الحجاجية للنص تبدأ بالنتيجة أولا ثم يدرج بعدها المعطيات والحجج، " وهذا ما يسمى بالنظام العكسي (التنازلي) ordre Régressif " ¹.

فالبنية الحجاجية عنده في هذه الحالة لا تبدأ كما هو معتاد بالمعطاة " donée " وإنما بالنتيجة، وفي هذا انعكاس كبير للتأثر بالأسلوب القرآني أو الحجاج في القرآن الكريم، كقوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون)

ف: (قد أفلح المؤمنون) نتيجة، و (الذين) معطاة، و (في صلاتهم خاشعون) و (عن اللغو معرضون) حجج.

وكذلك نلاحظ في بعض الحالات اتحاد المقدمة مع الدعوى في المكان المخصص للدعوى، وفي هذه الحالة غرض إبراز الدعوى فقط، كما هو الحال في النص الرابع: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به آخرها.

كما نلاحظ من خلال النماذج السابقة أن الدعوى لم تكن دائما مذكورة في كتابات البشير الإبراهيمي؛ إذ ذكرت في بعضها، كما في النص الأول: الأديان الثلاثة في الجزائر، والنص الرابع مثلا: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به آخرها، وغيرها من النصوص، وفي هذه الحالات

¹ - الحواس مسعودن البنية الحجاجية في القرآن الكريم، مجلة اللغة والأدب، الجزائر، ع 12، ديسمبر 1997، ص 334.

التي تذكر فيها الدعوى يمكننا استنتاجها من سياق الكتابة وخاصة المقدمات لما يعقبها بالضامن حيث يزيد من إمكانية الوصول إلى الدعوى.

والبعض الآخر من الدعوى مضمن، وهذه البنية مخالفة لمألوف بناء النص الحجاجي العربي وهو أن الدعوى " في أكثر الحالات تذكر في هيئة منطوق واحد أو أكثر"¹، فنسبة التضمين فيه محدودة لا أن تقارب النصف كما عند البشير الإبراهيمي، ولعل ذلك يرجع لكون القضايا التي يعالجها البشير الإبراهيمي قد أصبحت مألوفة من حيث كونها مشكلة مطروحة على الساحة السياسية والوطنية آنذاك، وهذا ما يشير إليه في كثير من كتاباته، ومع ذلك يسعى إلى تقديم تبرير وتدعيم لما يتكلم فيه، ولأنه يدافع عن قضايا غيّبت بالإنكار لا بعدم معرفتها، فحجابه لإزالة اللبس في كثير من الحالات.

ولأنه قد يعول في الدعوة إلى الشيء بالسبل الضمنية أو بواسطة المفهوم اللاقولي أكثر من السبل الصريحة، وذلك لنجاعة المحاجة، وضمانا لأوفر حظوظ النجاح لها، باعتبار أن إقامة الدليل على وجوب الشيء دون إيجابه يكون ألزم بالحجة من صريح الدعوة إلى وجوبه بواسطة الأمر؛ إذ الأمر لا طاقة حجاجية له على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن².

¹ - المرجع السابق، ص 334.

* - يقول برلمان وتيتيكا: " ليس الأمر على عكس ما يتبادر إلى الذهن أي طاقة إقناعية وإنما هو يستمد سلطانه من النفوذ الذي يمارسه الأمر على الأمور. ولكن ميزان القوى هذا لا يفضي إلى أي إذعان مهما كان نوعه، أما حين لا يكون ثمة نفوذ حقيقي أو لا تكون ثمة نية لاستخدامه فإن الأمر يتشكل في صورة رجاء والتماس

C.prelman et L. O. Tyteca, Traite de l argumentation, op. cit, p 213.:"

نقلا عن: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن....، ص 296. (الهامش).

² - ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن....، ص 296.

وهناك سياقات تضمّر فيها الحجة والنتيجة معا، ونصرح بدلهما بالمبدأ الحجاجي ويحصل التواصل والتفاهم، فإذا ما أضفنا المبدأ المصرح به إلى السياق التخاطبي التداولي، أمكننا استنباط النتيجة المقصوده والدليل الموظف لصالحها.¹

نجد تضمين الدعوى عند الإبراهيمي مع النص الثاني: ذكرى 8 ماي، والنص الثالث: عادت لعتريها لميس، وأيضا الخامس: نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد. وكانت في حالات من تلك التي ضمنت فيها الدعوى أن كانت هي العنوان نفسه، كما الحال في النص الثامن: أصلح نظام لتسيير العالم اليوم هو الإسلام، وكذا النص التاسع: موالاة المستعمر خروج عن الإسلام. وهذا وارد في الشكل العام للنص الحجاجي العربي خاصة النصوص المعاصرة بأن تكون الدعوى هي العنوان، وهذا دليل على وعي الكاتب - البشير الإبراهيمي - بقضيته محاولا إبرازها من خلال تصديرها موضوعه بأن وضعها هي العنوان.

1-3-1- التّدعيم:

التّدعيم مكوّن أساسي من مكونات الحجاج، ووسيلة من الوسائل المنطقية الدلالية المعتمدة فيه، كونه موصلا ومجسدا للنتيجة سواء أكانت ظاهرة أم مضمّنة، ودراسته داخل النص الحجاجي من حيث موضعه في بنية الحجاج أو من حيث نوعه.²

وفي ظل بعض الأسباب التي قد يشكل فيها المخاطب أحد الضغوط التواصلية، يستطيع المتكلم أن يعود إلى " احتياطي واسع من الأقوال اللغوية، يمكنه بواسطتها توجيه الاتصال وضمان فهم النص "¹.

¹ - ينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص 86.

² - ينظر: نبوية علي محمد علي، الخطاب الحجاجي عند طه حسين دراسة لغوية تطبيقية على مقالات حديث الأربعاء، (رسالة ماجستير)، إشراف د . محمد العبد، قسم اللغة العربية بكلية الألسن، جامعة عين شمس، 2007، ص96 (255 صفحة).

ومن ثم فوسيلة إثبات الكاتب صحة رأيه أو معتقده بإزاء رأي الآخر أو معتقده، هو ذلك التدعيم، والذي هو في أكثر الحالات أدلة منطقية وشواهد وأمثلة تدعم صحة الدعوى، فهو كل ما يقدمه المجادل ليزيد من ميل وتصديق المخاطب لمقدماته ودعواه وتبريره، وللتدعيم وجوه ثلاثة: التدعيم بالدليل، والتدعيم بالقيمة، والتدعيم بالمصادقية.

أ- التدعيم بالدليل:

إن موقف الحجاج الأبسط والأكثر شيوعاً هو تقديم إفادة تحظى بموالة المخاطب، والكاتب يطور حجابه بإضافة مادة مدعمة لدعواه، على نحو يجعل القارئ موالياً لتلك الدعوى، وهو ما يسمى بالدليل،² ولا يمكن للمحاج أن يتجاهل الدليل في عقل المتلقي، فقد يعارض هذا الدليل حجابه، كما يجب أن يتقابل الدليل الداحض الخفي للمتلقي مع الدليل الإيجابي للمعارض، فالمتلقي إن أفاد الدليل لا بد أن يؤخذ في عين الاعتبار.

وفي النص الحجاجي العربي والحجاجي عموماً نرى أنَّ للمادة المدعمة أو الدليل أنماطاً شتى؛ إذ يتعلق الأمر بما يعتمد المحاج استعماله في تدعيمه من أدلة تاريخية، أو شواهد خاصة عادة ما تستقى من المحيط الثقافي للمحاج.

أ-1 - أدلة تاريخية:

يعتبر هذا النوع من الأدلة الأكثر استعمالاً في أغلب الأحوال، وذلك لأنه يعتمد على الحقيقة وتبعاً لذلك فهو الأكثر إثارة للتصديق، ففيه تتم مقارنة شيء ما بشيء آخر واقعي.

¹ - منتصر أمين، الأداء الحجاجي وبلاغته في كتاب الخطابة لابن سينا، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 1054.

² - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 208.

فالكاتب يستعمل التاريخ ويلجأ إليه لتأمله واستخلاص العبرة من أحداثه، " من أجل أن يحرك المتلقي ويؤثر فيه عن طريق الكشف عن العلاقات التي تربط الحاضر بالماضي"¹، فتحمل المتلقي على خلق تصور للأحداث واستنتاجات وعبر تدفعه للاعتقاد بأمرها. وبذلك التصور يمكن للتاريخ أن يشكل قوة دفع، و طاقة حجاجية كامنّة ذات فعالية توجه المتلقي نحو الفعل والتأثير، " وذلك عن طريق الإحالة إذ يشير المبدع إلى الحوادث التاريخية إحالة تذكّرة، أو إحالة محاكاة أو مفاضلة أو إضراب أو إضافة "².

عمد البشير الإبراهيمي إلى هذا النوع من الأدلة في العديد من النصوص ضمن كتاباته، تراوحت بين حقائق تاريخية أو ذكر لشخصيات أو الإشارة إلى بعض الحوادث التاريخية للأمم أو الخاصة ببعض الشخصيات التاريخية.

في إشارة إلى الأمم التي ارتبطت بالماديات وابتعدت عن الفطرة السليمة، وهي في ذلك مشابهة للاستعمار، الشيء الذي جعل اعتناقها للإسلام هشاً ضعيفاً، لأنه دين الفطرة وهي على غير ذلك، ولأنه لا يقف عند حد الماديات فقط. يقول في ذلك: " وفي أمة البربر وأمة فارس شاهد لا يكذب في ذلك "³.

وفي قوله: " لم يشهد التاريخ أنه أكره يهوديا أو مسيحيا على الإسلام، على نحو ما فعلت (إيزابيلا) و (فرديناند)...."⁴ ففي هذا الدليل شاهد على ما فعلته اليهودية والمسيحية بالإسلام يوم كان الحكم بأيديهم، مقابل تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى حتى في الفترات التي كان في أوج قوته وكانت الكلمة لحكمه، إلا أنه كان متسامحا عادلا، وهو يريد أن يبين من خلال هذا الشاهد

¹ - الغرافي مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 40، يوليو - شتنبر 2011، ص 284.

² - المرجع نفسه، ص 284.

³ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 61.

⁴ - المرجع نفسه، ج3، ص 79.

أن الاستعمار الفرنسي مرتبط بالدين المسيحي في حركته وأن هذا الأخير رغم ذلك لم يعط الاستعمار الساحة لأن تاريخه هو في ذاته على هذه الشاكلة، وأن الاستعمار من خلاله يسعى إلى إكراه الجزائريين على ترك الإسلام واعتناق المسيحية ولو بالقوة.

وفي قوله: "وما حمل النائب اليهودي مايير... والتهريب إلى فلسطين"¹، وذلك في كون اليهودية تقايض بالمصالح الشخصية والذاتية على حساب الشعوب الإسلامية، وضرب مثالا بالشعب الفلسطيني وما لاقاه من ضرر أكثره بسبب مصالح شخصية لبعض الحكام اليهود، وهذه سمة يتصف بها الاستعمار اليوم في مقايضة مصالح الناس مقابل مصالح شخصية.

فقد عمد البشير الإبراهيمي إلى جملة من الأدلة التاريخية التي لا يختلف فيها اثنان، لكونها حقائق تاريخية مثبتة، بغرض تدعيم دعواه وإقناع المتلقي، فهذه الشواهد تقرب من البرهان اليقيني على صحة دعواه، خاصة إذا نظرنا إلى موضعها داخل سلم الحاج.

كما نجد ذلك أيضا في قوله: "أين النعمان بن المنذر ويوماه من الاستعمار وأيامه؟ كان للمنذر يومان: يوم بؤس ويوم نعمى...."²، أتى بهذا الشاهد ليدلّل به على بشاعة الاستعمار وجرائمه، وأنه إن كان للنعمان يومان أحدهما فقط يوم بؤس، فإن الاستعمار أيامه كلها أيام نحسات وأيام بؤس وشقاء ومعاناة؛ إذ تلك هي طبيعة الاستعمار.

أ-2- شواهد خاصة:

¹ - المرجع نفسه، ج3، ص 81.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 334.

وتستخدم عادة عندما يتضمن الحجاج أمثلة وشروحا، فإنه يأتي بشواهد خاصة للإفادة منها في تبیین دعواه، ويسمى بالشاهد المبتكر أو المحتمل* و" يقوم على تخيل شبيه ممكن واقعياً مماثل للحلة المطروحة للنقاش"¹، من ذلك عند البشير الإبراهيمي أحدىثة " العاصمي " التي تطرق لها في أكثر من موضع، لعل أبرزها في وهي في شكل خطاب موجه لموظفي وعملاء الحكومة والتي توجههم كما تشاء في قوله: "... ويدعي باسمها _ كالعاصمي مثلا _ وقالت له: ارم بهذا، فإنما خلقت لهذا، ورزقت من أجل هذا، ورفعت ذكرك لمثل هذا، وانتخبتك لتنفيذ هذا، وأوطأت الناس عقبك لتقوم بهذا... ارم دينك باسم دينك، واخدع أمتك باسم أمتك، واكذب على تاريخك باسمه (....) ولا تنس أن من نعمي عليك أنني أكتب وأنسب إليك... وكفاك فخرا أن وجودي من وجودك: وكفاني نجاحا أن كان للوظيفة لا لله سجودك، وكفاني بك ثقة بك أن صرحت بأن (مصلحتك من مصلحتي) "²، فقد أراد أن يستدل بهذا على أن موظفي الحكومة هؤلاء كآلة فاقدون لإرادتهم تماما، وإن زعموا أن لهم سلطة على الشعب، وما هم إلا مأمورون فيطبقوا بالحرف الواحد، فساق كل من كان من هذا الصنف تحت أحدىثة " العاصمي "، والمثال نفسه نجده في قوله: " واسأل العرفانين: لو لم يكن العاصمي مفتيا، أو لو عزل عن الإفتاء، أكان يرى هذا الرأي؟ يقول كل عراف: لا، ويقول أيضا: إن العاصمي لا ينطق عن هواه وإنما ينطق عن وحي ساداته ومواليه"³.

* - يقول ابن سينا في المثل المخترع أو المبتكر أو الذاتي: " ومنها ما يخترعه الإنسان: فمن ذلك مثل وحكاية تجعل له حكما وتجعله كأنه قد كان، وهو ممكن الكون، إلا أنه لا رواية له، ولا سير مثل به "[راجع: ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص 55].

¹ - محمد الولي، الحجاج مدخل نظري تاريخي، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 89.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 341، 342.

³ - المرجع السابق، ج3، ص 101.

وهناك نوع خاص من الشواهد الخاصة يسمى " المثل الافتراضي أو النظري"، وهو الذي يستخدم عندما لا تصلح الأمثلة الحقيقية،¹ ويستخدم عادة عندما تكون الأمثلة الواقعية غير متاحة، والمثل الافتراضي يوضح الحالة لدرجة قد يدرك فيها على أنه مثال حقيقي.

وقد وظف البشير الإبراهيمي في مقالاته هذا المثل الافتراضي كما في كلامه عن السياسة وتدني معناها لدرجة أنه لم تعد سوى رمز للخوف والقهر، وانتزع معناها الحقيقي، واستعمل في ذلك مثالا افتراضيا وهو " البعبع " ، نجد ذلك مع قوله في: "...إذا كان للسياسة معناها المعقول، ولكن السخافة كلها في هذا التبذل الذي أصبحت معه كلمة السياسة كلفظ " البعبع "، هذا يخوف به الصغار ولا حقيقة له، وتلك يخوف بها الكبار ولا معنى لها"².

كما أن كاتب الحجاج يعي جيدا أثر الشواهد والأقيسة وضرب الأمثال في دعم دعواه، ويعبر عن ذلك في حالات غير قليلة من كتاباته، في قوله: "وما أحقق من يقيس..."³، وقوله: "لأقمنا الشواهد وضرينا الأمثال"⁴، وكذا القياس لتبيين الفارق بين الأديان الثلاثة في المعاملة، وكذلك في النص نفسه عبارة "ومن ناقضنا في هذا جئناه بالدليل الذي لا ينقض...."⁵. وساق مقارنة قياسية بين الإسلام والاستعمار، على مستوى الاعتقاد والأداء في السلم والحرب.⁶

¹ - ينظر: محمد العبد النص والخطاب والاتصال، ص 209.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 60.

³ - المرجع السابق، ج3، ص 80.

⁴ - المرجع نفسه، ج3، ص 80.

⁵ - المرجع نفسه، ج3، ص 178.

⁶ - المرجع نفسه، ج5، ص 68.

وبين كيف مزج الإسلام بين الرحمة والقوة، مقدما مثالا قياسيًّا، قوله: "وخلط بينهما ومزج،

فجاء منهما ما يجيء من التقاء السالب بالموجب في عالم الكهرباء: حرارة وضوء وحركة"¹.

كما ساق عدة تدعيمات في سياق أسئلة استنكارية، غرضها إقناع المتلقي من خلال وقوفه

على بعض الحقائق من خلال تلك الأسئلة، كما في قوله: "ولكن ما قولك _ أيها

الاستعمار _ في تدخلك في ديننا، وابتلاعك لأوقافنا، واحتكارك للتصرف في وظائف ديننا،

وتحكمك في شعائرنَا، وتسلبك على قضائنا، وامتهانك للغتنا؟ ما قولك في كل ذلك، أهو من الدين

أم من السياسة؟ وكيف تبيح لنفسك التدخل فيما لا يعنيك من شؤون ديننا، ثم تحرم علينا الدخول

فيما يعنينا من شؤون ديننا؟"². فهو لا ينتظر إجابات مباشرة عن هذه الأسئلة العديدة، وإنما

غرضه من ذلك لفت نظر القارئ لعدة قضايا، واستفهامه عنها حتى يعمل فكره فيها، ويستعظم

الأمر بدلا من مجرد ذكرها وقراءتها فقط، بحيث يصبح القارئ أو السامع يفكر في الحل وهو بذلك

جزء من القضية بدل أن يكون مجرد قارئ.

كما نلمس الشيء نفسه في قوله: "ومن يكون البادئ يا ترى؟ الضَّعيف الأعزل، أم القوي

المسلح؟"³. وهو يحمل القضية السابقة نفسها، من حيث طبيعة طرح هذه التساؤلات.

وأيضا في قوله: "... ومن ورائها ستمائة تلميذ يطلبون السكنى ومن أمامها أصحاب

أُملاك يطلبون الملايين، ولكن أين الملايين؟"⁴. فهو في سياق كلامه يخاطب الأمة ويحملها

مسؤولية الحاجة للمال للتعليم، وكأنني به يخاطب ضمائرنا ويوقظنا بهذا التساؤل فعسى ولعلّ تجد

من يستجيب لتلك الحاجيات.

¹ - المرجع نفسه، ج4، ص 65.

² - المرجع نفسه، ج3، ص 63.

³ - المرجع السابق، ج3، ص 335.

⁴ - المرجع نفسه، ج3، ص 313.

ونلمس ذلك أيضا في سؤاله الاستنكاري التعجبي، في قوله: "يا للعجب أيكون الشهر الذي جعل الله مقويا للإرادات، ومشددا للعزائم ومطهرا للأرواح ومهبا لنفحات الخير والرحمة والمحبة سببا للفتور والضعف ومدبباً للبغضاء والعداوة؟"¹.

وهذا كله ما يسمى بالتوجيه الاستفهامي، وهو ذو قيمة خطابية حجاجية؛ إذ يفترض السؤال شيئاً تعلق به ذلك السؤال ويوحي بحصول إجماع على وجود ذلك الشيء، كما أن اللجوء إلى الاستفهام يهدف أحيانا إلى حمل من وجه إليه الاستفهام على إبداء موافقته إن أجاب على ما يقتضيه السؤال.

أضف إلى هذا كله إفادته من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار العرب وأمثالها وحكمها؛ إذ ساق الكثير منها كتدعيم لقضيته ودعواه التي يدافع عنها أو يرجح الرأي فيها عن قضية أخرى.

فالشواهد أو الاستشهادات، والتي يدعوها أرسطو بالحجج الجاهزة أو غير الصناعية، ويدخل في نطاقها القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء، وقد أفادت منها الخطابة العربية من "تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليها"².

وهو بتلك الصيغ يتجاوز مجرد التأثير في الجمهور إلى الاتحاد معه فكرة ووجدانا، ومن ذلك القوالب المكرورة (القوالب الجاهزة الشائعة)³، فالقوالب المكرورة تساعد على حدوث الوفاق

¹ - المرجع نفسه، ج2، ص 163.

² - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 90.

³ - ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، 209.

بين الخطيب والجمهور، أو بين المحاجج ومن يخاطب، وشأنها شأن الحكمة وشأن الأمثال التي هي حكم قصيرة.

فلم يكن الاقتباس من القرآن مقصوراً على الخطباء الدينيين، بل استفاد من إمكانية تأثير النص القرآني على جميع الخطباء، على تفاوت في ذلك¹. ويسمى هذا الحال من استعمال النص القرآني وتضمينه في المخاطبات السياسية والوعظية وغيرها بـ "تمثيل حالة مشابهة". فاستعمال النص القرآني هنا من أجل الاحتجاج لقضية ما حولها اختلاف أو اعتراض*.

فمن القرآن الكريم إirاده لعدة آيات من بينها قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاجِدُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ الآية 58 القصص²، وكذا قوله تعالى: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ وقول الله: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾³. وقد سجلت الأحاديث النبوية الشريفة حضوراً في بعض النصوص، كما في قوله: "لا طاعة لمخلوق في معصية الله"⁴. ومثله في قوله: "الأعمال بخواتيمها"⁵.

وقد ضرب الأمثلة للتدعيم، ويؤتى به عادة لتدعيم قاعدة وتوضيحها، وربما تؤسس قاعدة؛ أي يؤسس المعرفة ويخلقها حيث لا تكون. مثله ما كان في قوله: "أهل مكة أدرى بشعابها"⁶. وهي اقتباسات واستشهادات من الحديث النبوي الشريف.

¹ - ينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 92.

* - هناك استعمال آخر للنص القرآني غير الاستعمال الحجائي الذي هو من خصوصيات خطب المناظرات والاحتجاج، الاستعمال الآخر هو من أجل الاستئناس بالنص القرآني، ويكون من أجل خلق جو ديني، وهذا غالب على خطب المناسبات الدينية والاجتماعية.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 349.

³ - المرجع السابق، ج5، ص 35.

⁴ - المرجع نفسه، ج3، ص 316.

⁵ - المرجع نفسه، ج3، ص 61.

⁶ - المرجع نفسه، ج3، ص 61.

وفي قوله: "عادت لعترها لميس"¹. وهذا استشهاد بقول مأثور*. وهذا القول يحدد الاستشهاد بأنه عبارة مقتبسة تساق في الموقف بغرض الإقناع، وربما قد يشير هذا الإقناع إلى فعل المحاجة، والتأكيد على قضية ما من خلال الشاهدة المأثورة². وقوله: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"³. وهو قول مأثور، فهناك من ينسبه إلى الإمام مالك بن أنس. وجدير بالإشارة أن بعض القدماء التفتوا إلى علاقة المثل بالحجاج**، ومنهم ابن وهب في مثل قوله: "المثل مقرون بالحجة"⁴. ومعلوم أن الذي يحقق حقيقة الكلام هو العلاقة التخاطبية وليست العلاقة اللفظية⁵. وكانت هذه السمة بارزة في شواهد وأمثلة النصوص التي اخترناها من كتابات الإبراهيمي، فهي لا تنحصر في نقل المضمون من المخاطب إلى المخاطب، ولكن تقوم على الفهم والإفهام.

¹ - المرجع نفسه، ج3، ص 341.

* - لميس هذه في مورد المثل هي امرأة كانت لها عوائد شر تعتادها، وأخلاق سوء تفارقها ثم تقارفها، لغلبة الفساد فيها وصيرورته أصلا في طباعها - والعتر هو الأصل - فسيّرت العرب المثل فيها.

² - ينظر: منتصر أمين، الأداء الحجاجي وبلاغته في كتاب الخطابة لابن سينا، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 1054.

³ - آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 93.

** - وجد توظيف المثل في الخطابة العربية امتدادا واسعا، ولاقى اهتماما واسعا لدى الدارسين العرب القدامى رابطتين إياه بالحجاج، ومساهمة المثل في أداء الفعل الإقناعي، من ذلك يقول ابن سينا: "وينبغي أن نورد أيضا الأمثلة المقبولة السائرة على أنها أحكام كلية" [راجع: ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص 174]. ويرجع الخفاجي أساس المثل إلى كونه: "ماثل في خاطر الإنسان أبدا وشاخص وأعون شيء على البيان" [راجع: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 417]. ويؤكد الزمخشري بأن: "الأمثال هي زيادة في الكشف وتتميم للبيان، تضرب العرب الأمثال لإبراز جليات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في صورة المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم، وقمع لسورة الجامح الأبوي" [راجع: الزمخشري، الكشف، ج1، ص 204]. ويذهب السيوطي إلى أن الغرض من المثل هو: "تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض بالمثل هو تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالمشاهد" [راجع: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج2، ص 67].

⁴ - ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 146.

⁵ - ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 215.

كما قدّم أبياتا شعرية كتدعيم لما يقوله ويثبته، وتضمن الشعر جرى عند خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثيل به في خطبهم، وهي ظاهرة مميزة في الخطابة العربية، ويمال إلى الاستشهاد بالشعر لأجل " استغلال إمكانياته الإيقاعية والبيانية والمعجمية في خلق جو من الإغراب مهياً للمستمع "¹. من بين ذلك البيت:

إذا حال حول لم يكن في بيوتنا من المال إلا ذكره وفضائله²

وكذلك إيراد نسخة من مشروع قانون يخصص المدارس الابتدائية والدينية الحرة في الجزائر، لرئيس مجلس الوزراء³. وذلك للاستدلال على ما يقول وتدعيم دعواه.

فالاستشهاد هنا فعل كلامي ناجم عن الاقتباس بوصفه آلية حجاجية، والاستشهاد بوجه عام هو إضفاء القبول على فكرة ما " باللجوء إلى حديث قديم واقعي أو خرافي أو أسطوري أو منتم إلى التراث الأدبي أو حدث صناعي احتمالي أو خيالي، فتسلك هذه الفكرة أو الواقعة ضمن نفس الخيط الذي يسلك فيه الحديث القديم أو الموروث "⁴، فنعتبرهما معا يندرجان ضمن نفس الصنف من الوقائع.

ويبقى الاستشهاد وسيلة من وسائل الاقتباس التي يسعى المتكلم إلى استثمارها في سبيل تحقيق إقناعه لإثبات أو تفنيد أمر كان عند السامع على غير تلك الصورة، ذلك أنه ينقل ذهن المتلقي بمعية المتكلم من حال إلى حال من حال القضية والنقاش عموما. وغايته في ذلك كله التوضيح وتكثيف حضور الأفكار في الذهن.

¹ - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 91.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 253.

³ - المرجع نفسه، ج3، ص 236.

⁴ - منتصر أمين، الأداء الحجاجي وبلاغته في كتاب الخطابة لابن سينا، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 1055.

ويفترض في المتكلم والمستمع " أن يكون له معرفة سابقة بالشاهد المقصود، وقدرة على تصويره بيسر ودراية بوجود أثر في مجال التداول "¹. فيتجاوز بذلك شكلها الحجاجي الإطار اللغوي، ليرتبط بالمقتضيات اللغوية.

ونرى أن الإبراهيمي اختار شواهده بكل عناية وتبصرة، مما قوى البناء الحجاجي لأطروحاته، وبالتالي يمكننا القول إنه وُفق كثيرا في توظيف الشواهد والاستشهادات لإيقاع التصديق وتحقيق القصد الإقناعي لخطابه. ولا شك أن شواهد الإبراهيمي تضرر أكثر مما تظهر وهو يعلم أن المعاني المضمرة في الأدلة تلزم بوجه من الوجوه عما هو مصرح به. * ومهما كانت صيغة الخطاب المضمرة فإنه يقوم في الربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما.

ب- التدعيم بالقيمة:

القيمة " مفهوم يُستخرج مما يقوله الناس، ومما يفعلونه، ومما تبنيه المجادلات "²، ويقع هذا النوع من الحجاج حين " يتخذ الحجاج أحيانا كثيرة أشكالا أقل موضوعية يراها الكثيرون ملزمة؛ إذ تهدف إلى فرض الرأي وتسعى إلى إظهار الفرضيات على أنها حقيقة لا لبس فيها بحيث تجبر المتلقي على اختيار ما "³، كما لا يتورع في عرض مثل هذه الحجج عن الترغيب أو التهريب قصد حمل الغير على الإذعان.

¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 111.

* - للإضمار أسباب حجاجية وبنائية وبلاغية متنوعة، منها:

- الاحتراز من التطويل والحشو.

- الإيجاز.

- العلم بالمضمرة.

- القصد إلى التدليس بتجنب التصريح بالمقدمات. [راجع: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 150].

² - محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 211.

³ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 270.

وقد تذكر القيمة هنا صراحة أو ضمنا، كما لا تظهر القيمة مفردة في المجادلات، وإنما تعمل في نظم متكاملة،¹ فهي تظهر عادة في شكل نظم؛ أي سلسلة من الدعاوى المترابطة، فالشيء الرئيس في المجادلات هو توافق القيم التي ترتبط مع بعضها البعض. فالمحتج يعتمد على هذه القيم لأنها "تلائم أهدافه الحجاجية وغايات خطابه المنشودة، فترى المتكلم يرفض فكرة ما بحجة أنها تعارض قيمة معينة ويدعو إلى موقف ما باسم قيمة محددة، وينعي على الخصم سلوكا ما لأنه يتنافى مع قيمة واحدة أو مجموعة قيم".²

وهناك عدة ملامح للتدعيم بالقيمة فيما يتعلق بالخطاب الحجاجي العربي بصفة عامة، وسنعمل على استخلاص التدعيمات التي وظفها البشير الإبراهيمي في مقالاته.

أ- القيمة معيار للقول بالجودة أو الرداءة³، كما قد تضمن القيمة أو يصرح بها، ومن تضمين القيمة ما يكون عند تدعيم التعليل، وهذا وارد في أكثر من موقع في كتابات البشير الإبراهيمي، كقوله: "إن مَنْ لم يكن منكم عالما لن يخطئه أن يكون عاقلا، ومهما بلغت المكانة عند أنفسكم، أو بلغ بكم الحظ عند غيركم، فلن تستغنوا عن وعظ واعظ.... ولعلكم تعلمون ما ورد في من أم قوما وهم له كارهون، وعلى الانتمان به مكرهون"⁴. يعتمد الكاتب هنا على قيمة صدق ووفاء النائب / المواطن لوطنه ومواطنيه، شرفا ورجولة في الاستحقاق للمنصب، وصدقا في العمل والفعل، وعادة ما يُعوّل الكاتب أو المحاجج في مثل هذه التدعيمات في تعيين القيمة المضمنة على قدرة المخاطب، وذلك من خلال سياق الخطاب الحجاجي. وهذا النوع من الحجج يعتمد على هذا النوع من الحجج، لأنها " ذات سلطة فائقة فيدخل الحجاج عندها بسهولة فائقة باب التوجيه)

3 – Richard D.Rieke, Malcolm.O.Sillars – argumentation and the Decision Making Process, John Wiley, Sons, Inc . USA-1975 P77.

² – سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 270.

³ – ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 211.

⁴ – آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 186.

(manipulation) ويتحول الإقناع إلى هجوم (offensive) يستهدف مناطق من الخصم، المعرفية وعوالمه الشعورية والفكرية...¹.

ومن التصريح بالقيمة في قوله: "يا حضرة الاستعمار إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، وتفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده وأوقافها إلى أهلها.... فإذا كانت هذه الأعمال تعد - في فهمك ونظرك - سياسة، فنحن سياسيون في العلانية لا في السر، وبالصرحة لا بالجمجمة، إننا نعد هذا كله ديناً على الحقيقة لا التوسع والتخيل، ونعده من واجبات الإسلام التي لا نخرج من عهدتها إلا بأدائها على وجهها الصحيح الكامل"². فالقيمة المصرح بها هنا هي اهتمام جمعية العلماء المسلمين بأمر المسلمين وأمور دينهم، وإن كان هذا من السياسة فإن جمعية العلماء تمارس السياسة، وهي القيمة المصرح بها في تدعيم دعواه بأن السياسة واجب وطني وديني.

ب- للقيمة نوعان: تحدد النظرية الحاجية المعاصرة نمطين اثنين للقيمة، القيمة الوسيلة والقيمة الغاية، فالأولى تضع إفادة عما هو ذو قيمة، والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتغيّاه المتكلم.³

والقيمة الغاية أكثر تأثيراً في تحقيق الموالاة التي تجعل من المتلقي يغير سلوكه، كما أنها تؤدي دوراً كبيراً في التنبؤ بالحدث، وخطاب الحجاج العربي يميل إلى القيمة الغاية ميلاً أقوى، وهذا واضح من خلال عينات الدراسة.

¹ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 270.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 62.

1 - Rieke, Sillars. Op.cit.p.161.

فنلمس القيمة الوسيلة كما جاء من قوله: "أتمثله مجيئ الشمائل، غير صخاب ولا غياب، ولا مغتاب ولا سباب، عفا عن محارم الخلق ومحارم الخالق، مقصور اللسان إلا عن دعوة إلى الحق، أو صرخة في وجه الباطل، متجاوزا عما يكره من إخوانه، لا تنطوي أحنأؤه عن بغض ولا ضغينة"¹. فالقيمة الوسيلة هنا هي الإفادة عن قيمة الشباب الجزائري الخلق، الذي يتحلى بأخلاق الدين، ومقتديا بنبيه محمد _ ﷺ _.

ومن أمثلة القيمة الوسيلة عنده أيضا قوله في محاولة لتبرير الإجماع حول مقولة (الإنسان أخو الإنسان)، قوله: " جملة منذ وجد البشر ولم يختلف العقلاء في فهم مؤداها... ومن القضايا المعقولة التي تطابق العقل والدين... نرى كثيرا من جزئيات الأديان السماوية راجعة إليها ومبنية عليها. اختلف تعبير اللغات عن تلك الجملة ومآلها إلى وفاق في المعنى... "².

أما القيمة الغاية في مثل قوله: " والأمة تريد تعليمًا عربيًا يساير العصر وقوته ونظامه، لا تعليمًا يحمل جرائم الفناء، وتحمله نذر الموت "³. فالقيمة الغاية هنا تتمثل في توجيه الكاتب إلى ما تريده الأمة من التعليم العربي، وهو مساندة العصر ونظامه، وهو غاية تبتغيها الأمة.

ج - يعتمد خطاب الحجاج العربي في تدعيم التبرير اعتمادا جوهريا على القيم التي يكون تمسك الناس بها قويا، والتي تتسم بالشمولية بسبب موالاة كثير من الناس لها⁴، كـ "قيمة التغيير " مثلا أو " قيمة الحب " أو ما إلى ذلك.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي ، ج3، ص 511.

² - المرجع نفسه، ج1، ص 59.

³ - المرجع السابق، ج3، ص 284.

⁴ - ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 212 ، 213.

كما أن القوة والشمولية من العوامل المساعدة على تعيين القيم السائدة في أي حضارة أو مجتمع، وفي الخطاب الحجاجي العربي " نرى عاملاً آخر مهمًا، هو منزلة الأشخاص الذين يدعمون هذه القيمة أو تلك " ¹.

فهناك إقناع مع شيء من الارتياح والمبالاة، وذلك لقيمة الشخص القائل، والبشير الإبراهيمي ذو مكانة رائدة فشخصه يلقي الاحترام من الكثيرين، وبالتالي ما يذهب إليه شخص البشير الإبراهيمي لا يتعارض ومطالب الناس، دونما تعارض في المصالح أو استغلال ذلك لغرض مصالح شخصية، نلمس ذلك في قوله: "أيها الآباء _ وكلنا آباء _ إن جمعية العلماء هي الهيئة الوحيدة التي تحضن حركة التعليم العربي في داخل القطر..... وإن من أداء الأمانة أن نتقدم بهذه الحقائق إلى الأمة، كما تقدمت بالنصائح السالفة إلى التلامذة " ².

وقد يدعو هذا النوع من الحجاج إلى قيم معاكسة، كأن يدافع المتكلم عن قضية جعلها حقًا خالصا وإن دعا إلى أمر ألبسه ثوب الحقيقة ونفى أن يكون مجرد فرضية أو محض احتمال فيكون بذلك قد احتجّ لآرائه وبرّر مواقفه وتصرفاته استنادا إلى قيمة الحق. ³

ج- التدعيم بالمصادقية:

هو وسيلة تعبيرية مؤسسة على حجة السلوك باعتبار السلوك قدوة تستوحي من الأشخاص أو الجماعات أو الأفكار أو المذاهب... تؤكد لها قيمة الأفعال، وذلك لميل طبيعي في الناس نحو الاقتداء بنماذج معينة ⁴.

¹ - المرجع نفسه، ص 213.

² - آثار البشير الإبراهيمي ، ج3، ص 317.

³ - ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنياته وأساليبه -، عالك الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008، ص 274.

⁴ - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 95.

وهي من الحجج التي سماها أرسطو بـ الإيتوس (ethos)، ويتوقف هذا النوع من الحجج على أخلاق المتكلم، وسمته وصفاته، فالخطيب أو الكاتب يحتاج أن يكون صالحاً خليقاً بالثقة، مما تنتهي به أخلاقه إلى الإقناع، يؤكد أرسطو ذلك بقوله: " ليس من الضروري فقط أن ننظر كيف نجعل الخطبة نفسها برهانية، بل من الضروري أيضاً أن يظهر الخطيب على خلق معين " ¹.

هذه الأخلاق والسمات الشخصية تمثل في مجملها السلطة الشخصية للمتكلم وهي " مجرد مظاهر لا يشترط فيها الصدق بقدر ما يشترط فيها أن تكون مقنعة خلال بث الخطاب وتلقيه " ².

والمصداقية عامل مهم في الحجاج وهناك نوعان للمصداقية:

النوع الأول: المصداقية المباشرة:

وهي أن يلجأ المتحدث أو الكاتب إلى أقوال وإفادات عن نفسه، قصد زيادة قابليته للتصديق، وقلما يلجأ إليها المتحدث أو الكاتب وإنما يصرف جل همه في المقام الأول إلى التماس العلل المقنعة للمتلقين ³.

فبالحديث عن أخلاق المتكلم وهيأته وسمعته، ولأننا أمام نص مكتوب، فإنه لا يمكننا استخلاص الكثير من الفوائد الحجاجية، المتصلة بهذا الجانب، بسبب غياب عنصر المعاينة. لكن وبالرغم من معرفتنا بالإبراهيمي حق المعرفة، - مع غياب عنصر المعاينة - هذا لا يمنع من الوقوف على كثير من المؤشرات الدالة على كاتب النصوص، والتي تستعد على استخلاص حكم عن طبيعة أخلاق الإبراهيمي وصدقته فيما يدّعي.

¹ - محمد الولي، في خطابة أرسطو الباتوسية، مجلة علامات، ع 26، ص 45. نقلا عن: عزيز لديه، نظرية الحجاج: تطبيق على نثر ابن زيدون، ص 40.

² - عزيز لديه، نظرية الحجاج: تطبيق على نثر ابن زيدون،، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2015، ص 40.

ولاشك أن العلاقة التخاطبية تقوم على أساس التبليغ الذي يزود فيه الإظهار والإضمار، وخاصية التبليغ هذه تقتضي أن يكون المبلغ مهذبا ومؤدبا في الآن نفسه، حتى يتحقق الانتفاع بالقول بنوعيه: التأدب والتخلق، ومن ثمة كانت اللغة تحمل سمات فكر من يتكلمون بها.¹

ومثال ذلك ما ذهب إليه البشير الإبراهيمي في مقالاته، ما ورد في قوله: "لا يجد الباحث عناء في العثور على ما مصداق قلناه من تمكّن النزعة الصليبية في هؤلاء القوم...."².

ومنه قوله: "وإن من أداء الأمانة أن نتقدم بهذه الحقائق إلى الأمة، كما تقدمت بالنصائح السالفة إلى التلامذة"³.

ومجمل القول أنه: "إذا كان المتكلم مشهورا بالأخلاق المحمودة وحبه للحق وحرصه على العدل في الحكم وتمكنه من القضايا التي يتحدث فيها، كان حظ الخطاب من الإقناع أوفر وتأثيره في متلقيه أبعد غورا". وهذا ما نعتقه في البشير الإبراهيمي سواء على مستوى أخلاقه وتهذبه في طرح القضايا وذلك حسب طبيعة المخاطب طبعاً، وحسب الموضوع في حد ذاته، ففيه فرق بين موضوع توجيهي وموضوع آخر التماس كتدعيم الجهاد والثورة وموضوع آخر في تأنيب وتقريع، مع تمكنه من القضايا التي يتناولها خاصة أن أكثرها وطني أو إصلاحي، وهو ما يدعو لأن يكون صادقا في طرحه ودعواه.

النوع الثاني: المصداقية الثانوية (غير المباشرة):

وهي التي تكون بربط مصداقية شخص آخر بالحجاج، أي أن يعتمد الكاتب أو المتحدث عن مصداقية شخص آخر ووزن شخصيته في تدعيم خطابه الحجاجي⁴، وهذا النموذج المقتدى به

¹ - ينظر: عزيز لديه، نظرية الحجاج: تطبيق على نشر ابن زيدون، ص 60.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 178.

³ - المرجع نفسه، ج3، ص 317.

⁴ - ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص 213.

" لا يصلح فقط لتأسيس أو بلورة قاعدة معينة كما في المثال أو الشاهد، بل يدفع إلى فعل شيء مستوحى من النموذج، لوجود سلوكيات عفوية للاقتداء في الإنسان"¹. إذ لا يمكن الاقتداء بأي كان. فليس أي فعل أهلاً لكي يحتذى به، إننا لا نحتذي إلا بمن نعجب بهم، أولئك الذين يمتلكون السلطة أو الشهرة الاجتماعية التي تعود إلى كفاءتهم أو إلى وظائفهم أو المرتبة التي يحتلونها في المجتمع. يقول بيرلمان: "... تلعب عليّة القوم في المجتمع دور النماذج أو القدوات وتكون أفعالها قابلة للمحاكاة".²

ومصادقية الآخر – أي الثانوية – جلها من أحاديث الرسول – ﷺ – أو أقوال حكماء، وهذه الحالة الخاصة بدلاً من أن تستخدم كشاهد أو مثال يمكن أن تقدم بوصفها قدوة تُحتذى. لذلك غالباً ما تكون النماذج الجيدة وراء تشكيل سلوك وثقافة الأفراد، والجماعات والأوساط، والحقب، انطلاقاً من الطريقة التي تتصور بها هذه النماذج والكيفية التي تتحقق بها ضماناً لقيمتها.³

وقد ورد ذلك كثيراً في نصوص الدراسة من ذلك ما ورد في قوله: "... ولما بليت السرائر تبين أن سياسيينا كلهم يتسابقون إلى غاية واحدة، هي كراسي النيابات وما يتبعها من الألقاب والمرتبات، وإذا كل شيء مبدؤه السياسة فنهايته التجارة، والأعمال بخواتيمها"⁴.

كما أنه مما يؤثر في مصداقية الخطاب ما يعرفه المتلقي عن مصدر ذلك الخطاب وعن شخص قائله، إذ يميل الناس أكثر إلى من يرونه أكفأ وأأمّن، والبشير الإبراهيمي الكل يدرك إدراكاً تاماً أنه ذو ثقافة إسلامية محضة كما أنه معروف بمواقفه الوطنية، هذا مما يعزز ويدعم خطابه إذ

¹ – عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 95، 96.

² – محمد الولي، الحجاج مدخل نظري تاريخي، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 100، 101.

³ – ينظر: المرجع السابق، ص 96.

⁴ – آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 60، 61.

أن الأمر يلقي قبولا وارتياحا كبيرا من طرف المتلقين، ولا أدل على ذلك من التقاف الناس حوله وحول جمعية العلماء المسلمين، وما حققته من نتائج، خاصة في بدء المسيرة؛ إذ كان المعول عليه في طرق الفكرة ونشرها هو شخصية مؤسسيها وعلى رأسهم البشير الإبراهيمي.

وفي ضوء خلاصة بحث المصادقية في النظرية الحجاجية المعاصرة التي قدمها "ريك" و"وسيلارز"، يمكن أن نستنبط من مدونة الدراسة ما يلي:

1/- سمعة صاحب النصوص البشير الإبراهيمي مناسبة تماما لخطابه الحجاجي، سواء فيما تعلق بالشق الديني من القضية، أو الوطني ومحاربة الاستعمار وأعوانه، وأنه _ زيادة عن الاختصاص _ من عائلة عريقة ولها مكانتها في المجتمع الجزائري، وهذا له وقعه الإيجابي على قابلية المتلقي.

2/- صاحب النصوص رجل، ويذهب البعض إلى أن قابلية تصديق الرجل أكثر من قابلية تصديق النساء، طبعاً يستثنى من ذلك أن تكون المرأة ذات جاذبية جسدية وعقلية، وقابلية الرجال أكثر خاصة في مثل هذه الكتابات الإصلاحية التي تعتمد على قوة الشخص والشخصية، لأنها دفاع عن مبادئ وثبات عليها في وجه محاربيها أو الغافلين عنها.

3/- يتمتع صاحب تلك الكتابات _ البشير الإبراهيمي _ بكفاءة حجاجية عالية في صناعة الحجج وطرح دعواه، وبأمانة كبيرة في عرض موضوع الحجاج.

4/- للإفادة التي يقدمها البشير الإبراهيمي عن نفسه أثر كبير في زيادة قابلية طرحه وتصديقه _ المصادقية المباشرة _.

5/- يمكن لقارئ كتابات البشير الإبراهيمي الإصلاحية أن يحكم على سلامة نية صاحبها، والداعم في ذلك نسيج المقالات اللغوي وسياقاتها التاريخية والحضارية، إذ تلمس أن الغاية عنده هي تعيين الحقيقة أكثر من إحراز نصر على خصم أو معارضته.

6/- " مصادر التدليل الأقوى تزيد من المصدقية "،¹ نرى ذلك مثلاً في المقارنة بين النص القرآني والمثل، أو بين حديث نبوي وقول أحد الحكماء.

7/- " جودة تنظيم الخطاب تزيد من المصدقية "،² وهذه السمة حاضرة بشكل ملفت في كتابات البشير الإبراهيمي من تنظيم للخطاب الحجاجي، والبناء الشكلي للنص الحجاجي وتماشيه مع البناء العام والأشيع للنص الحجاجي العربي، الأمر الذي يكفل إثبات ذلك.

8/- يبدو أن العناية اللفظية في صياغة وصناعة الهيكل لم تؤد به _ أي الإبراهيمي _ إلى إغفال فلسفة المعنى في عملية المبنى، من ثم جاءت العبارات متدفقة، في هيئة صرخات عالية متعاقبة خالية من التكلف أو التألق في نظام السبك، وهذا _ فيما يرى البعض _ يزيد من مصداقية الكاتب.

9/- كما بنيت لغة النصوص على شاكلة غير متعنتة، الأمر الذي يظهر عدم تعنت الكاتب لرأيه وإجبار غيره على قبوله، وإنما أقام رأيه على أساس من الحجة والدليل، وهذا ما يزيد من مصداقية وحركية خطابه الحجاجي.

2- مراتب الحجج في كتابات الإبراهيمي

لقد حضيت مسألة المراتب أو المدارج باهتمام كبير، باعتبارها ظاهرة لغوية طبيعية واتخذت صيغة خاصة مع انبعاث الدراسات اللسانية ومباحث فلسفة اللغة، ويتمثل ذلك خاصة في انتماء بعض الخطابات إلى سلمية معينة مستقرة في كفاءة المرسل التداولية، ويرجع ذلك لكونها تشتمل على بعض العلاقات التي تحكم منطقية ترابطها وكذا السياقات التي يمكن أن ترد فيها.

¹ - المرجع السابق، ص 216.

² - المرجع نفسه، ص 216.

والمقصود بالترتيب في هذه المقاربة الحجاجية هو ترتيب الحجج وترتيب أجزاء القول. يقول رولان بارت " الترتيب هو توزيع المواد داخل كل جزء من أجزاء الخطاب " ¹.

وكلا الترتيبين ينهض بأدوار جلية في التبليغ؛ إذ إن ترتيب البراهين يكسبها طاقة حجاجية إضافية، إذا ما وضعت البراهين في الموضع المناسب. ولا يكفي أن تصاغ الحجة صياغة جيدة، بل " تتدخل كل الأمور المتعلقة بالترتيب " ²، وكل خلل في التركيب يسلب الحجة قوتها مهما كانت بالغة.

وسنعمل في هذا الإطار على تبين مفهوم وأسس نظرية السلالم الحجاجية، ثم نخرج على دراستها في ظل مقالات الدراسة، وكذا التطرق في آخر المطاف القوانين الثلاثة لهذه النظرية الثلاثة وتطبيقها _ طبعا _ على مدونة الدراسة.

2-1- المفهوم والأسس العامة لنظرية السلالم الحجاجية:

وجه الباحثون في بلاغة الحجاج اهتمامهم في معالجة الخطاب الإقناعي، إلى ترتيب الحجج وفقا لما سمي " بالسلم الحجاجي ". وتقوم نظرية المراتب الموجهة توجها قصديا على أن الوحدات التي هي الأصل في الخطاب الطبيعي ليست هي المفردات كما اشتهر، وإنما هي وحدات حوارية حجاجية تتمثل في المركبات التي هي الأقوال " ³.

¹ - رولان بارت، البلاغة القديمة، تر: عبد الكريم الشراوي، نشر الفك للغة العربية، 1984، ص 138. نقلا عن: أحمد قادم، رسالة ابن غرسية مقارنة بلاغية حجاجية، ضمن مصنف: الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص 1289.

² - محمد الولي، من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات، فكر ونقد، السنة الأولى، ع 8، أبريل 1998، ص 134.

³ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 275.

وتظهر حاجية " القول " في كونه يسد مسد دليل _ أو ملزوم _ معين، له مدلول _ أو لازم _ يفهم من السياق، مدلول يقصد المتكلم مطالبة المخاطب التصديق به والانتهاض للعمل على وفقه، أي يقصد " إلزامه " و " التزامه " به معا.¹

وبالإمكان أن نعرّف " السلم الحجاجي " كما يلي:

السلم الحجاجي هو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزودة بعلاقة ترتيبية ومُوقّية بالشرطين التاليين:

أ - كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب - كل قول كان في السلم دليل على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه.²

فالسلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجهة، وهو علاقة ترابطية للحجج، فعندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما علاقة ترابطية معينة، فإن هذه الحجج تنتمي إذاك إلى السلم الحجاجي نفسه.

ويمكن أن نبين ذلك من خلال المثال الآتي:

- أكرم علي أخاه.

- أكرم علي صديقه.

- أكرم علي عدوه.

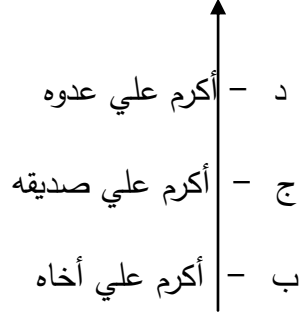
المدلول هو : علي من أنبل الناس خلقاً.

ونبين ذلك بالرسم الآتي:

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 275، 276.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 277.

نا [علي من أنبل الناس خلقاً]



حيث (ب) و (د) و (ج) ترمز إلى الأدلة و (نا) ترمز إلى المدلول منها فحينئذ القول (د) يلزم عنه القول (ج)، الذي يلزم عنه بدوره القول (ب)، كما أن (د) أقوى إثباتاً للمدلول (نا) من (ج)، والذي هو بدوره أقوى إثباتاً لهذا المدلول من (ب).

ونحن هنا لن نتولى تقويم الآراء المختلفة حول وظائف المراتب في الخطاب، ولا تحديد وجوه أخذ بعضها من بعض ونقد بعضها من بعض، ولا وجوه التماثل فيها والتباين، وحسبنا أن نشير إلى أن تصور المراتب يتخذ عند الباحثين أشكالاً ثلاثة وهي:¹

أ - المراتب المتضادة: فقد تكون الألفاظ دالة على معانٍ يمكن ترتيبها بين طرفين متباينين، مثال ذلك: جملة الألفاظ المرتبة الآتية: (الرمضاء، الحر، الدفء، الفتور، البرد، القرس)، فطرفي هذا الترتيب لفظتي (الرمضاء - والقرس) بمنزلة أعلى وأسفل، وبقية الألفاظ مرتبة بينهما.

ب - المراتب الموجهة توجيهها كمياً: ويكون هذا في الألفاظ الدالة على معانٍ تقبل التدرج في اتجاه واحد، إما على مقتضى التزايد أو على مقتضى التناقص، ومثاله: أسماء معايير الوزن الآتية: (درهم، مثقال، أوقية، رطل)، هذا الترتيب على أساس الزيادة في الوزن، وإن عكس فهو على أساس النقصان في الوزن.

¹ - راجع تفصيل ذلك: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص (274 - 276).

ج - المراتب الموجهة توجيهها قصدياً: قد لا تقتصر المراتب على الألفاظ وحدها بل قد تتعداه إلى الجمل، فيكون قصد المتكلم عاملاً في تحديد اتجاه المراتب التي تنزلها تلك الجملة، ومثاله القولين الآتيين: "شعر المتكلم بالملل" و "غلب على المتكلم النوم"، التقاوت في المرتبة، فمتى شعر بالملل الأولى أن يكون ذلك متى غلب عليه النوم، ولكن القصد هو: توقف المتكلم عن الكلام.

وهذا الصنف الأخير هو الذي سنشتغل عليه في هذا المقام لارتباطه بالجانب اللغوي أكثر من غيره، وارتباطه بمقصدية المتكلم؛ إذ ينضوي تحته القصد التأثيري الحجاجي.

إن هرمية القيم في البنية الحجاجية أهم من القيم نفسها، فالقيم وإن كانت تسلم بها سامعين عدة فإن درجة تسليمهم بها تكون مختلفة من جمهور إلى آخر، وهو ما يعني أن القيم درجات وليست كلها مرتبة واحدة، إن ما يميز كل جمهور ليس القيم التي يسلم بها بقدر ما يميزه ترتيبه إياها.¹

كما تكمن أهمية نظرية السلالم الحجاجية أساساً في إخراج قيمة القول الحجاجي من حيز المحتوى الخبري للقول، وهذا يعني أن القيمة لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب لأنها لا تخضع لشرط الصدق المنطقي، فهي ليست قيمة مضافة إلى البنية اللغوية بل مسجلة فيها، يتكهن بها التنظيم الداخلي للغة.²

2-2- السلالم الحجاجية في "كتابات إبراهيمي":

¹ - ينظر: عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطقاته، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج.....، ص 310.

² - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج.....، ص 370.

تتجلى العلاقة المجازية بين الدعوى والحجة لتصبح علاقة شبه منطقية إلى حد ما، وهي بطبيعة الحال تتجسد من خلال الأدوات اللغوية، ليتجسد صلب الفعل الحجاجي في تدافع تلك الحجج والأهم منها تراتبها حسب قوتها طبعاً، فما يثبت في الغالب غير الحجج التي تفرض نفسها على أنها الأقوى في السياق، وعليه فالمحاجج المخاطب _ وهنا البشير الإبراهيمي _ يرتب الحجج المرسلّة التي تتمتع بالقوة اللازمة حتى تدعم دعواه، وهذا الترتيب في السلم الحجاجي اللغوي هو مقصدنا بالدراسة في هذا المقام.

فما تذهب إليه هذه الدراسة هو الأساس الذي تقوم عليه نظرية السلام الحجاجية، وهو ما تقتضيه هذه النظرية من تدرج بين الأقوال والحجج في علاقتها بالنتائج واستلزام بعضها للبعض. فيختار المرسل حججه التي تنتسب إلى سلم واحد، بما يضمن له التدليل على قصده وعدم تناقضها؛ بل وليؤكد كل منها ما قيل قبلها، أو ليؤكد ما هو مضمّر من درجات السلم لمدلول واحد، ولذلك فإن المرسل يبدأ بأدناها مرتبة، فيرتب المرسل حججه في سلمية واحدة.¹

وقد انطلق تراتب الحجج في " كتابات الإبراهيمي " من إقرار التلازم بين القول (الحجة ق والنتيجة ن)، ومعنى هذا التلازم هنا " هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة مع الإشارة إلى أن النتيجة قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية ".²

من ذلك ما جاء في قوله " وأقل ما يجب لنهضتنا التعليمية _ إن كنا نريد النهوض جادين _ أن تكون لهذه المرحلة التجهيزية منها ثلاثة معاهد: بقسنطينة والجزائر وتلمسان، تجهزها بالرجال، وتزودها بالمال، حتى يأوي كل واحد منها ألف تلميذ، ولو تكافأت جهود جمعية العلماء في هذا السبيل، وجهود الأمة، وتوافت على هدف واحد منه، لبرز هذا العمل الجليل في سنة واحدة

¹ - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 502.

² - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 363.

من الزمن... مرت على المعهد سنتان نما فيهما وترعرع أضعاف ما كان مقدرا لوليد سنتين مثله، في أمة كأمتنا، وظرف كهذا الظرف، فما هي الأسباب في هذا النمو السريع؟¹.

يتمثل طرح القضية كحجة في هذا المثال على شكل استفهام، وأن نتيجته مضمرة، ليبقى على المتلقي اكتشافها أولا ثم يضيف لها الحجة، والتي لا تملك مصداقية أن تكون حجة إلا بعد أن تعرف النتيجة وتضاف إليها، وذلك بالشكل الآتي:

أ- ما هو السبب في زيادة عدد طلاب المعهد الباديسي بهذا الشكل؟

ب- ألا ترى أن جمعية العلماء المسلمين قد نجحت إلى حد كبير في بث الوعي وفي مشروعها الاصلاحى؟

النتيجة: هو دور جمعية العلماء المسلمين الرائد في الإصلاح التعليمي.

لأنه عادة ما يكون الاستفهام (ب) هو المحدد لوجهة المحاجج، وحجة لفائدة نتيجة ضمنية، وهذا يتعلق بجانب من المقصدية.

ولا يقف الأمر عند حد المفاضلة اللغوية أو الاستلزمات شبه المنطقية، إذ يمكن إدراج كثير من أدوات الحجاج وآلياته ضمنه، ليصبح إطارا عاما لتفاضل الحجج، بل وتغليب بعضها على البعض الآخر، انطلاقا من المخزون اللغوي ونظامه والمفارقات الكامنة في ذهن كل مخاطب، وذلك حسب تفعيله لكفاءته التداولية².

كذلك عند التركيز على مبدأ التدرج في توجيه الحجج، يتبين أن الحجاج اللغوي لا يرتبط بالمحتوى وإحالاته على مرجع محدد؛ بل هو خاضع للقوة والضعف الذي ينفي عنه الخضوع لمنطق

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 255.

² - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 504.

الصدق والكذب، كما تجدر الإشارة إلى أن عملية تدرج الحجج تتسم بالخصوصية والذاتية، أي لكل فرد بناؤه السلمي الخاص.

ومن ثمّ كان لا بد أن نعرف أن ترتيب الحجج لا يأتي على شاكلة واحدة يمكن اعتمادها دون غيرها، وإنما هناك عدة مفاهيم أساسية متعلقة بنظرية السلام الحجاجية بصفة عامة لا بد من مراعاتها وأخذها في عين الاعتبار، منها ما استعمله البشير الإبراهيمي في كتاباته، وقد اختلف الأمر من نص لآخر، وذلك حسب طبيعة الموضوع، نورد منها ثلاث نقاط أساسية فيما يأتي:

1/- أنه قد يقدم المتكلم حجتين أو أكثر في تدعيم نتيجة واحدة دون اعتبار للترتيب¹، ونلمس ذلك في قوله: "وقال التاريخ: إن العرب لم ينزعوا فلسطين من اليهود، ولم يهدموا لهم فيها دولة قائمة، ولا ثلّوا لهم عرشاً مرفوعاً، وإنما انتزعوها من الرومان، فهم أحق بها من كل إنسان.... إن فلسطين أرض عربية لأنها قطعة من جزيرة العرب، وموطن عريق لسلائل من العرب، استقر فيها العرب أكثر مما استقر فيها اليهود، وتمكّن فيها الإسلام أكثر مما تمكنت اليهودية، وغلب عليها القرآن أكثر مما غلبت التوراة، وسادت فيها العربية أكثر مما سادت العبرية...."².

لدينا في المثال السابق خمس حجج أو قضايا تخدم نتيجة واحدة كالآتي:

ق : فلسطين قطعة من جزيرة العرب.

ق : موطن عريق لسلائل من العرب.

ق : استقر فيها العرب أكثر مما استقر فيها اليهود.

ق : تمكن وغلبة الإسلام والقرآن أكثر من اليهودية والتوراة.

ق : سادت فيها العربية أكثر مما سادت فيها العبرية.

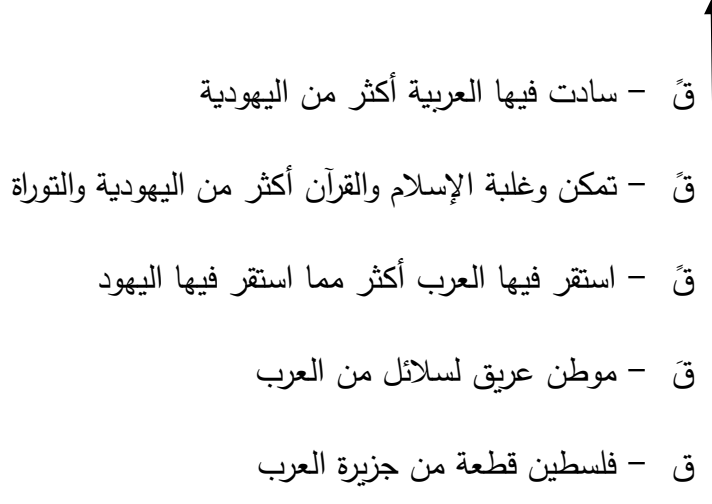
¹ - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 365.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 437.

النتيجة (ن) هي: فلسطين أرض عربية.

ونجمل كل تلك الحجج والنتيجة ونمثل لها بالشكل الآتي:

ن : فلسطين أرض عربية



ف (ق)، (ق)، (ق)، (ق)، (ق)، (ق)، كلها حجج تخدم النتيجة (ن)، دون اعتبار

لترتيبها، وتعتبر كلها أقوال منتمية لقسم حجاجي واحد يحدد القول (ن).

فكل الحجج تدعم النتيجة في أن فلسطين أرض عربية، وكل واحدة تضيف تدعيماً أكبر

للأخرى أي أن (ق) مع (ق) بالنسبة للنتيجة (ن) أفضل من (ق) لوحدها أو (ق)

لوحدها، وأفضل من أي قضية أخرى من الثلاث الباقية لوحدها، وكلما زيدت قضية في دعم

النتيجة (ن) كان الأمر أفضل، فأفضلها إيراد القضايا الخمسة معاً كما فعل البشير الإبراهيمي،

لأنها تقيد في تدعيم دعواه أكثر، ثم أن ترتيب هذه القضايا لا يهم؛ إذ يمكن لكل منها أخذ مكان

الأخرى مع بقاء نفس القيمة التدعيمية المقدمة تجاه النتيجة.

2/- أن يقدم المتكلم حجتين أو أكثر لتدعيم نتيجة ما مع اعتبار الترتيب، حسب القيمة طبعا.

وأمثله في كتابات الإبراهيمي كثيرة، نورد منها ما جاء في قوله: "والدين المظلوم في زماننا هو الإسلام في الجزائر: مظلوم من أهله، إذ لم يدافعوا عنه، ولم يأخذوا له بحقه من ظالمه، ومظلوم من هذه الحكومة ذات الألوان التي تحكم الجزائر بما تمليه القوة، لا بما يوحيه الحق والعدل، وظلم ذوي القربى أشد مضاضة، وأشنع غضاضة..."¹.

لدينا في هذا المثال قولان اثنان في خدمة نتيجة واحده كالآتي:

ق : الإسلام مظلوم من طرف حكومة الاستعمار

ق : الإسلام مظلوم من أهله بعدم الدفاع عنه

النتيجة (ن) : الإسلام دين مظلوم

نرى أن القول الأول (ق) وهو أن الإسلام مظلوم من طرف أبنائه وأهله أقوى في خدمة النتيجة (ن) بأن الإسلام دين مظلوم، من القول (ق) بأن الدين الإسلامي قد ظلمه أعداؤه، والقول بظلم الإسلام من طرف أهله يستلزم منطقيا وتلقائيا بأنه ظلم من عدوه، بل الأولى أن يكون مظلوما من عدوه، والعكس غير صحيح، فكون الإسلام مظلوما من عدوه لا يستلزم أن يكون مظلوما من أهله؛ بل أن يُنصر بأهله، وعليه فإيراد هذه الأقوال يقتضي الترتيب ولا يمكن لأي منها أن يأخذ مكان الأخرى.

ونمثله في الرسم الآتي:

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 138.

ن : الإسلام هو الدين المظلوم

ق - الإسلام مظلوم من أهله بعدم الدفاع عنه

ق - الإسلام مظلوم من أعدائه

ف (ق) أقوى من (ق) بالنسبة لخدمة النتيجة (ن) .

3/- أن ترتيب الحجج في سلم حجاجي واحد بالنسبة إلى بعض الأبنية من قبيل (ق)

لكن (ق) لا يقتضي انتماء الحجج إلى قسم حجاجي واحد¹، ومثاله قوله في المفتين العاصمين: " وكلاهما موظف مأجور، أقل ما يقال فيه إنه متهم؛ ولو كان المفتان اللذان سلما المساجد والأوقاف إلى الحكومة مسلمين يخافان الله ويرجوان لقاءه لما أقدموا على ذلك، ولآثرا الموت شنقا على ارتكاب ما ارتكباه وأقل ما كان ينتظره الإسلام منهما - إن أكرها على ذلك - أن يسلمًا الوظيفة لا المساجد، ولكنهما كانا أحرص على الوظيفة منهما على دينهما"².

يحتوي القول السابق على قضيتين تجاه نتيجة واحدة، الأولى تدعم النتيجة (ن)، والثانية

تخدم الاتجاه المقابل للنتيجة (ن)، أي (لا - ن) .

فهو على الشاكلة الآتية:

أرى أنهما موظفان في الحكومة وسيعملان على تحرير المساجد من سلطة الحكومة، ولكنهما

آثرا الوظيفة على خدمة دينهما.

ق : أنهما مقربان من السلطة ولهما تأثير في مسؤوليتها.

¹ - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 366.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 102.

ق : أنهما أحرص على الوظيفة منها على دينهما.

نلاحظ أن (ق) ينتمي إلى قسم حجاجي تحدده النتيجة (ن)، ولكن (ق) ينتمي إلى قسم حجاجي تحدده النتيجة (لا - ن)، أي أن للحجتين وجهتين متقابلتين، ف " مقربان من السلطة " تدعم النتيجة (سيحبران المساجد من وصاية الحكومة)، أما " أنهما أثرا الوظيفة " فتدعم النتيجة (لن يحررا المساجد).

2-3- قوانين الترتيب الحجاجي في " كتابات الإبراهيمي :

تبنى قواعد السلم الحجاجي على مفهوم " السلم الحجاجي " ، المعروف بـ " أنه مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية ¹ .

وأهم قوانين السلم الحجاجي ثلاثة، هي: قانون تبديل السلم - قانون الخفض - قانون القلب. وفيما يلي تفصيلها مع نماذج من كتابات الإبراهيمي:

2-3-1- قانون تبديل السلم: ومقتضى هذا القانون " أنه إذا كان القول دليلا على مدلول معين، فإن نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله ²، ولكن قوة النفي تترتب ترتيبا عكسيا؛ إذ إن نفي ما يقع في أدنى السلم، هو نفي أقوى لمدلول الخطاب.

أي أنه إذا كان هناك قول (أ) مستخدما من طرف متكلم ما، ليخدم أو يدعم نتيجة معينة، فإن نفي القول (~ أ) سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة، وبعبارة أخرى إذا كان (أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية المحددة بواسطة (ن)، فإن (~ أ) ينتمي إلى الفئة الحجاجية المحددة بواسطة (لا - ن) ³، والرمز (~) يعني نفي.

¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 105.

² - ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 278.

³ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 27، 28.

ففي قوله: "ومهما يكن نجاح الاستعمار في هذا الباب فما هو بالنجاح الذي يشرف فرنسا، أو يمجّد تاريخها... لبثت عوامل الاستعمار تهدم من هيكل الإسلام ولا تبني، وترمي المقومات الإسلامية والخصائص العربية في كل يوم بفاقرة من المسخ، إلى أن تكونت جمعية العلماء المسلمين.... ولو أن الاستعمار كان فقيها في سنن الله في الأمم والطبائع لأنصف الأمم من نفسه فاستراح وأراح، ولعلم أن عين المظلوم كعين الاستعمار، كلتاهما يقظة"¹.

نستخلص منه ما يأتي:

نجاح الاستعمار في إضعاف الكثير من مقومات الأمة.

فشل الاستعمار في الجزائر، فقد عجز عن طمس الهوية ومقومات الوطنية من لغة ودين.

فقبول القول الأول في (أ) من أن الاستعمار قد نجح، بناء على النتيجة (ن) المعطاة

وهي تمكنه من إضعاف بعض مقومات الأمة ولو بنسبة معينة، يقتضي منا القبول بالقول الثاني

في (ب) من أن الاستعمار لم ينجح في الجزائر، لأنه في خدمة نتيجة هي (لا - ن)

بالنسبة للنتيجة الأولى وهي - أي (لا - ن) - : عدم تمكن الاستعمار من طمس الهوية الوطنية

ومقوماتها من دين ولغة.

كما هو الأمر في المثال السابق فإن الدليل الأقوى يتحول في حالة النفي إلى دليل أضعف

والعكس صحيح؛ إذ يتجلى الاعتراض برفض المعارض ادعاءات المدعي بتبديل قانون السلم

الحجائي.

2-3-2- قانون القلب: يرتبط هذا القانون بالنفي، ومقتضاه " أنه إذا كان أحد القولين

أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين، فإن نقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 47.

على نقيض المدلول¹؛ بمعنى " أن نفي أي درجة أو دليل في السلم، لا يستلزم نفي ما يقع في المرتبة التي تدنوه "²، وهذا مفاده أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية.

يمكن أن نمثل له بالمثال التالي:

حصل زيد على الماجستير (أ)، بل حصل على الدكتوراه (أ¹).

لم يحصل زيد على الدكتوراه (أ¹ ~)، بل لم يحصل على الماجستير (~ أ).

فحصول زيد على الدكتوراه أقوى دليل على مكانته العلمية من حصوله على الماجستير، وعدم حصوله على الماجستير هو حجة أقوى على عدم الكفاءة من عدم حصوله على الدكتوراه.

ومثاله عند الإبراهيمي قوله: " اسمحوا لنا حين سميناكم أعضاء ولم نسلك نواباً، فإننا ممن

لا يكذب على الحقيقة، وكل عاقل يعرف الوسيلة التي تذرّعتم بها إلى هذا المنصب، يستحي أن يسميكم نواباً بمعنى النيابة الذي يعرفه الناس، وإنما أنتم أعضاء تألف منها هيكل غير متجانس الأجزاء.... النيابة وكالة عن جمهور، والشرط في الموكل أن يكون حراً مختاراً مطلق التصرف، ولا أخرج عواطفكم بذكر شروط الوكيل....إن لكل عيب ستر يغطيه، وقد سترتم بكلمة مستقل فما زاد العيب إلا افتضاحاً، لأن هذه الكلمة وضعت في غير محلها"³.

ونستخلص منه ما يأتي:

يمثل النواب أنفسهم (أ)، بل يمثلون بعضاً من الشعب (أ¹).

لا يمثل النواب الشعب (أ¹ ~)، بل لا يمثلوا أنفسهم حتى (~ أ).

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 278.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 504.

³ - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 185.

فتمثيل النواب للشعب أو لبعضه أقوى دليل على أنه يعد نائبا أكثر من تمثيله لنفسه، وعدم تمثيله لنفسه أقوى دليل وأكبر حجة على أنه لا يستحق أن يكون نائبا من حجة عدم تمثيله للشعب.

ويمكن أن نمثل له بالشكلين التاليين:



ف (أ¹) أقوى من (أ) بالنسبة إلى (ن)، و (أ ~) أقوى من (أ¹ ~) بالنسبة إلى (لا - ن).

2-3-3- قانون الخفض : ومقتضاه " إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن

نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها "¹.

وفي كتابات الإبراهيمي قوله: "أليس من المبكيات ألا ينجح في شهادة التحصيل من جامع

الزيتونة إلا ستة أو سبعة من ألف تلميذ وبضع مئات من أبنائنا؟ وما السبب؟... أيها الآباء -

وكلنا آباء - إن جمعية العلماء هي الهيئة الوحيدة التي تحضن حركة التعليم العربي في داخل

القطر،...إن جمعية العلماء مصممة أن تحوط التعليم في الخارج برقابة تمدّها على التلامذة،

ونصائح تشتد فيها..².

نستخلص منه الآتي:

¹ - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 277.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 317، 318.

- 1- الجمعية لم تقصر في حق الطلاب في الزيتونة بالإعانة أو النصح.
- 2- لم ينجح سوى ستة أو سبعة من تلامذة الجزائر في الزيتونة من الألف.
- ففي القول الأول نعمل على استبعاد التأويلات التي تصب في فكرة عدم قيام الجمعية بدورها تجاه الطلبة في الخارج، خاصة في الزيتونة، أما في المثال الثاني فهو استبعاد فكرة نجاح كل طلبة الجزائر في الزيتونة أو أكثرهم، وعليه يمكن تأويلهما على الصياغة الآتية:
- إذا كانت الجمعية لم تقصر، فإنها قد وفرت للطلاب في الخارج كافة مستحقاتهم.
- لم ينجح كل تلامذة الجزائر في الزيتونة أو أكثرهم، وإنما قلة هم الذين نجحوا.
- وتتجلى صعوبة صياغة هذه الوقائع في أن الخفض الذي ينتج عن النفي لا يتموقع في السلم الحجاجي، ولا يتموقع أيضا في سلمية تدريجية موضوعية يمكن تعريفها بواسطة معايير فيزيائية¹، هذا لأن الأقوال الإثباتية من قبيل (الجمعية وفرت للطلاب بالخارج)، لا تتدرج في نفس الفئة الحجاجية ولا في نفس السلم الحجاجي مع الأقوال المنفية من قبيل (الجمعية لم توفر).

3- الروابط* الحجاجية في كتابات الإبراهيمي

¹ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 30.

* - الروابط في اللغة ذهبت معظم المعاجم العربية - قديمها وحديثها - إلى معان لهذا الجذر " ربط "، والتي دارت معانيها حول عدة معان أساسية هي: الشد، الثبات، التوثيق، العلاقة، الشجاعة، الجماعة.... وبالكاد تدور كلها حول معنيين أساسيين: الشد والثبات.

أما في الاصطلاح لعل أدقها وأقربها ما جاء في " معاجم المصطلحات النحوية "، في حين أن القدامى لم يعطوا تعريفا محددا للروابط، ربما لكونه معروفا عندهم فلا داعي لذلك، ومن التعريفات ما جاء في " معجم المصطلحات النحوية والصرفية " بأنه " العلاقة التي تصل شيئين ببعضهما البعض، وتعين كون اللاحق منهما متعلقا بسابقه " [محمد سمير نجيب، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص 90]، وهناك من قال بأنه هو الذي

كان من نتائج التواصل الحاصل بين اللغة العربية مع العديد من اللغات، أن أخذت من تلك اللغات الشيء الكثير، وكان للروابط نصيبها الوافر من هذا التأثير، فقد اقتبس كثير من أدباء اللغة العربية المحدثين أنماطا متنوعة من أدوات الربط التي أخذت موقعها في اللغة العربية كروابط جديدة؛ بل وأصبحت جزء لا يتجزأ من النظام اللغوي الذي تحوزه هذه اللغة.

ليس معنى هذا أن تلك الروابط الجديدة دخلت إلى اللغة العربية بألفاظها الأعجمية، بل منها ما كان ترجمة حرفية، ومنها ما تم تركيبه من لفظين أو أكثر ليؤدي وظيفة في الربط لم يكن يؤديها أيٌّ منها مفردا، ومنها ما خرج عن أصل وضعه في الاستعمال إلى وضع آخر جديد، وشاع استعماله رابطا بمعنى جديد، وهكذا استعملت سلسلة الروابط وأصبح لها ذلك الأداء الفعال جراء مرونة اللغة وما تتصف به من حيوية واستجابة.¹

3-1- مفهوم الروابط الحجاجية:

يقصد بالربط هو اصطناع علاقة نحوية سياقية بين معنيين باستعمال واسطة تتمثل في أداة رابطة تدل على تلك العلاقات، أو ضمير بارز عائد، وتلجأ العربية إمّا لأمن اللبس في فهم الانفصال بين المعنيين، وإمّا لأمن اللبس في فهم الارتباط بين المعنيين، فالربط هو الحلقة الوسطى بين الارتباط والانفصال.²

يربط بين اسم أو جملة واسم متقدم ليكتمل معنى الجملة. [محمد التونجي، وراجي الأسمر، المعجم المفصل في علوم اللغة، ج1، ص 318].

وهناك من ذهب إلى أن " الرابط عند النحاة هو ما يربط أحد المتصاحبين بالآخر، مثل: الهاء في: زيد قام غلامه، ومثل الفاء في: من أحسن فلنفسه " [حسن سعيد الكرمي، الهادي إلى لغة العرب، ج2، ص 121].

¹ - ينظر: غازي فتحي محمد سليم، الروابط في الكتابة العربية الحديثة _ دراسة تطبيقية _ (أطروحة دكتوراه)، إشراف د. محمد العبد، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم اللغة العربية وآدابها، القاهرة، 2000، ص 343.

510 صفحة).

² - ينظر: مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط1، 1997، ص 01.

وإذا كانت الوجهة الحجاجية موجهة بالبنية اللغوية، فإنها تبرز في مكونات لغوية متنوعة، ومستويات مختلفة من هذه البنية، وهذه المكونات عبارة عن " خليط من الروابط والعوامل تتطلب النظر في الوجوه والفروق بينها للوقوف على أيها أقوى حجاجيا، أو ما يتولد عن تعاملها من فروق".¹

وهناك مكونات تغير قوة الجملة دون محتواها الخبري كالنفي والاستثناء والشرط والجزاء، وهناك مكونات ذات خصائص معجمية محددة تؤثر في التعليق النحوي، وتنتزع في مواضع متنوعة من الجمل، ومن هذه الوحدات المعجمية حروف الاستئناف بكل معانيها (الواو، الفاء، لكن، إذن....)، والأسوار (بعض، كل، جميع...)، وهي كلها عناصر نحوية تسمى " روابط حجاجية "² (Connecteurs argumentatifs)، وهي " التي تصل المقدمة بالاستنتاج، وتتدخل في توجيه دلالة المحاجة "³. فالرابط الحجاجي وحدة لغوية تصل بين ملفوظين أو أكثر تم سوقهما ضمن نفس الاستراتيجية الحجاجية.

إن الروابط الحجاجية - في الغالب - قسمان: قسم يقدم الحجة وقسم يظهر النتيجة، ومن الأدوات التي تقدم الحجة: لكن، واو الحال، إلا أن، حتى، إلا، إن، فإن، أمّا، ومن الأدوات التي تظهر النتيجة: إذ، لام التعليل، لأنّ، مع ذلك، إذا، كما أن هناك أدوات لغوية أخرى منها ما يفيد النفي، مثل: لا، ليس، لم، وما يفيد التوكيد والإثبات، مثل: إنّ، وما يفيد الاختصاص والقصر، مثل: إنّما، كما نجد أدوات مثل: لولا، لو....

تؤدي الروابط الحجاجية دورا مهما وفاعلا في النصوص الحجاجية بحكم مكوناتها اللغوية المختلفة داخل نسيج الجملة، بحيث تضيق أو توسع مع احتمالاتها الحجاجية. كما لا يقوم الرابط

¹ - شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج....، ص 377.

² - ينظر: هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، ص 94، 95.

³ - هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013، ص 160.

الحاجي بمهمة توجيه الملفوظ نحو نتيجة بعينها فقط، بل " يقوي درجة هذا التوجيه في الخطاب"¹، ويزيد طاقة الملفوظ الحجاجية، كما أنه ينقل الملفوظ من الدلالة الإخبارية والإبلاغية إلى الدلالة الحجاجية.

وتسند الروابط الحجاجية لكل قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة، بعد أن تربط بين قولين أو حجتين على الأصح أو على الأكثر، فالروابط الحجاجية تربط بين القيمة الحجاجية لقول ما والنتيجة التي يمكن أن يؤدي إليها، أي بتتمته الممكنة والمحتملة، ولا ترتبط بتاتا بالمعلوم الذي يتضمنها²، فهو يربط بين وحدتين دلالتين أو أكثر، وهذا تصور سابق قديم يتسم بالضيق وقد تم تطويره، لأن عملية الربط معقدة والربط بين قولين حالة خاصة، فبالإضافة لها قد تربط بين عناصر غير متجانسة كأن يربط مثلا بين قول وسلوك غير كلامي وغيرها.

نمثل للروابط بالأدوات التالية: بل، لكن، حتى، لا سيما، إذن، لأن، بما أن، إذ... والأسوار (بعض، كل، جميع،....)، وما يتصل بوظائف نحوية مخصوصة كحروف التعليل أو ما تمخّض لوظيفة من الوظائف.

3-2- دراسة تحليلية لأهم الروابط في " كتابات الإبراهيمي ":

عند دراسة كتابات البشير الإبراهيمي نجد أن هناك وفرة من الروابط والعوامل الحجاجية التي يدخلها في نسيج كلامه ويوظفها حجاجيا على النحو الذي يتوخّاه، حيث سنعمل في هذه الدراسة على مناقشة ثلاثة روابط حجاجية من بين الروابط التي وظيفها البشير الإبراهيمي وهي: " لكن"، و" بل"، ثم " حتى" ثم نظيف " واو الحال".

وسبب اختيار هذه الروابط دون غيرها يعود إلى:

¹ - عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية (بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة)، إشراف د. عبد الله صولة، جامعة منوبة، كلية الآداب بمنوبة، السنة الجامعية 2003/2004، ص 13 (مخطوط).

² - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 33.

أولاً: ما هذه الروابط إلا نماذج من مجموع الروابط الأخرى والكثيرة في اللغة، والتي وظّف البشير الإبراهيمي الكثير منها في مقالاته.

ثانياً: كثرة استعمال هذه الروابط في الخطاب _ خاصة الحجاجي _ وفي الحوارات اليومية.

ثالثاً: علاقة هذه الروابط العلاقة الواضحة والقوية مع المعنى الضمني والمضمر، بمعنى قابليتها للتأويل.

وهي فقط دراسة لبعض استعمالات هذه الروابط استعمالاً حجاجياً دون الدراسة المعجمية والتركيبية والتداولية.

3-2-1- لكن^{1*} : هذا الرابط " لكن " لا نغالي في شأنه إن قلنا إنه مفتاح لغوي هام لفهم كتابات الإبراهيمي لا بالنظر إلى شدة تواتره فيها فحسب، بل بالنظر إلى الفضاء الضمني المضمر الذي تفتحته أمام المتلقي أيضاً. ودور " لكن " في بناء علم الخطاب مسألة لغوية عامة لطالما عالجها علماء اللسان بالدرس.

* - وهي المخففة من النقيطة العاملة عمل " إن "، وتخفيفها مؤد إلى إهمال عملها اللفظي، ويبقى معناها محصوراً في الاستدراك، ونصّ بعض النحاة على أن ما قبلها يجب أن يكون منفياً، إذ يقول " ويقع قبلها النفي لازماً " [راجع: وصف المباني، ص 345]، وباستقراء النصوص الحديثة نجد استخدامها قد ورد بعد الإثبات لإفادة التخصيص فضلاً عن الاستدراك والذي هو وظيفتها الأصلية [راجع: غازي فتحي محمد سالم، الروابط في الكتابة العربية الحديثة، ص 98].

والاستدراك " تعقيب الكلام بنفي ما يتوهم منه ثبوته، أو إثبات ما يتوهم منه نفيه " [راجع: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج1، ص 270]، والتعقيب يكون بإحدى الأدوات التي تربط بين الأمرين: النفي والإثبات أو العكس، ويتفرع من هذا التعريف ما يدلّ على نتيجة غير متوقعة، فكأنّ في هذه النتيجة إثبات النفي أو نفياً لإثبات.

و " لكن " وضعها على مخالفة ما بعدها لما قبلها، ولا يستقيم تقديره إلا شيئاً لامتناع تقدير النفي في المفرد، وإذا ثبتاً وجب أن يكون ما قبله نفيًا، كقولك: " ما جاءني زيد لكن عمرو "، ولو قلت: " جاءني زيد لكن عمرو " لم يَجُزْ لما ذكرنا. [راجع: السيد الجميلي، معجم حروف المعاني، ص 166].

وذهب بعضهم إلى القول بأن " كلما جاءت لكن رابطة بين قضيتين في ملفوظين ما تعذر فهم الملفوظ إذا لم نعد إلى الفحص عن الجانب الضمني فيه "¹.

فالفرضية حول دلالة " لكن " مثلا وقدرتها على توجيه القول الذي توجد فيه توجيهها سلبيا حجاجيا، إذا ثبت أنها تفسر الاستعمالات المتنوعة للأقوال التي تتضمن " لكن " في المقامات المختلفة، فذلك يعني أنها فرضية قويّة ناجحة، كما أنّ لها _ أي لكن _ كثرة الورد في الخطاب، ولها دور في تفعيل العملية الحجاجية فيه.

والدالتان اللتان تربطهما الوحدة التجريبية - أي الرابط - " لكن " يظهران القيمة التالية: عند تلفظنا (أ) لكن (ب)، متلقي الخطاب يقول إلى حد ما (أ) صحيحة بحصوله على النتيجة الضمنية (ج) ثم لا يمكن ذلك لأن (ب) مقدمة كحجة قوية للنتيجة الضمنية (لا ج)². ونأخذ النموذج الآتي من كتابات الإبراهيمي، قوله: " وقبلت المفاوضة بنفسني مع مندوب عيّنه، ولبثنا نتحدث ثلاث ساعات من كل يوم، لمدة أسبوع، حديثا فارغا مكررا معادا، وكان محدثي يقتنع بالحجة، ويسلم بالبرهان، ويتحرك ضميره للاعتراف بالحق أحيانا... "³. فهو في هذا القول يظهر وكأنه قد توصل لحل نهائي للمسألة مع محاوره، وأنّه قد أخذ برأيه واعتمده وأنّه سينفذ

¹ - عبد الله صوله، في نظرية الحجاج، ص 148.

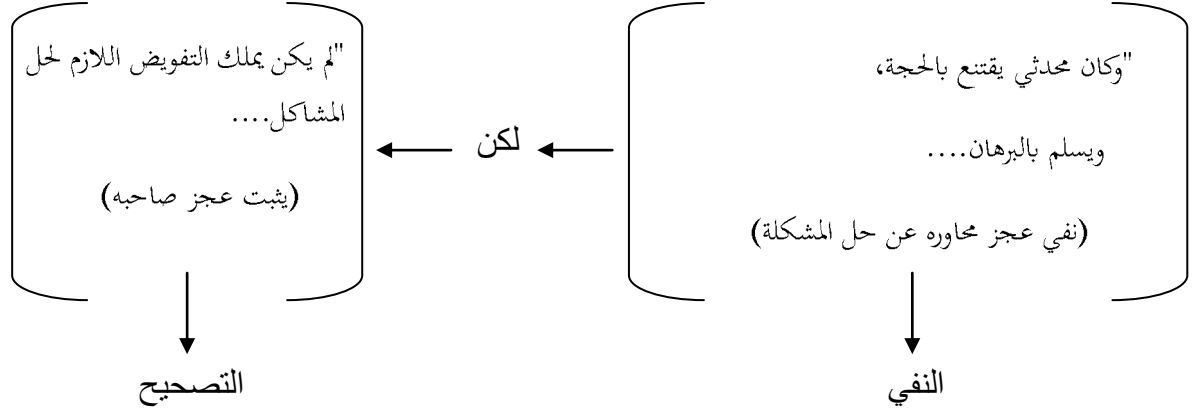
^{*} - في سياق هذا المعنى حاول ابن هشام في المغني أن يستثمر هذا الموضوع ليجعل دلالة بنية الرابط في معنى الحرف من المور الملتبسة التي اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها، كقولهم: (بل) حرف إضراب، قال: " والصواب حرف استدراك وإضراب فإنها بعد النفي والنهي بمنزلة لكن سواء " [راجع: ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعريب].

كما أشار الزمخشري أيضا إلى إخفاء الدلالة بنية الربط بمعنى الحرف، قوله في معنى الحرف (بل) هي: " للإضراب عن الأول منفيًا، أو موجبا كقولك: جاءني زيد بل عمرو، وما جاءني بكر بل خالد " [راجع: الزمخشري، المفصل، ص 303]. فالزمخشري ضبط الإطار التداولي لمعنى الحرف.

² - ينظر: Dominique Maingueneau, Pragmatique Pour Le Discours Littéraire, Dunod Paris, 1997, p 59. نقلًا عن: علي حميدانو، أثر التفاعل الحوارى، والنزعة الكلامية في توجيه متلقي الخطاب - قراءة تداولية في كشف الزمخشري -، دراسات أدبية، ع12، نوفمبر 2011، ص 50.

³ - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 236.

ما اتفق عليه في تلك الجلسات، وكأنَّ به ينفي كون محاوره أو محدثه لا يبالي بما يتم التحاور فيه، ثم هو بعد ذلك يذكر قولاً آخر مغايراً تماماً لما قاله في الأول: "ولكنه لم يكن يملك التفويض اللازم لإنهاء المشاكل...."¹ فهذا القول المقدم يدحض الملفوظ الأول الذي قال به، ويمكن أن نوضح ذلك بالشكل الآتي:



إذ يظهر هنا تجسيد لفعل إثبات وتوكيد بواسطة الأداة لكن التي تحقق الإخبار، كما تظهر صدق الخبر بنفي الخاطئ واستبداله بالصحيح، ومن ثمة تحصل فائدة المخاطب؛ إذ صار لديه حكم صحيح يمكن الأخذ به.²

ويتبين بأن لهذا الرابط قوة حجاجية تُظهر أطروحة على أخرى؛ إذ يتموقع بين الحجة وضد الحجة، ويقدم أصحاب النظرية الحجاجية الوصف الحجاجي لـ "لكن" حال استعمالها كما يلي: إنَّ التلفظ بأقوال من نمط: "أ لكن ب" يستلزم اثنتين:

1- أن المتكلم يقدم "أ" و "ب" باعتبارهما حجتين، الحجة الأولى موجّهة نحو نتيجة معينة "ن"، والحجة الثانية موجّهة نحو النتيجة المضادة لها أي "لا - ن".

¹ - المرجع نفسه، ج3، ص 236.

² - ينظر: يمينة تابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، ص 154.

2- أن المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى، وباعتبارها توجه القول أو الخطاب برمته.

ويمكن توضيح ذلك بواسطة المربع الذي افترضه ديكنز لتوضيح طريقة اشتغال " لكن الحجاجية"، إذ يرى أن " لكن " تتوسط قولين " أ لكن ب " كما يأتي:

(أ)	لكن	(ب)
↓	>	↓
النتيجة (س)	↔	النتيجة (لا ل (س))
بد		
(ضمنية)		(ضمنية)
—		

↔ يعني "متناقض مع".

وبالنظر في المثال السابق نجد أنه يعطينا حجتين (قولين حجاجيين) يخدمان نتيجتين متناقضتين، واستعان المخاطب - البشير الإبراهيمي - على ذلك بأداة الربط " لكن "، فكانت كالاتي:

الحجة أ : كان محدثي يقتنع بالحجة والبرهان ويصحو ضميره ← هذه تخدم

النتيجة ن : سيعمل على حل المشاكل.

الحجة ب : لا يملك التفويض اللازم لحل المشاكل ← هذه تخدم

النتيجة (لا - ن) : عجز محدثه على حل المشاكل.

ونوضح ذلك في الشكل الآتي:

(اقتنع المحاور بالحجة وصحو ضميره) لكن (لا يملك التفويض اللازم لحل المشاكل)

↓ > ↓

النتيجة ن: (سيحل المشاكل) ↔ النتيجة (لا - ن) : (لن يحل المشاكل)

↓ ↓

(ضمنية) (ضمنية)

فالمرسل يستعمل الأداة " لكن " لعكس الاستدراك وتوجيه الحجاج لما سيتلوها، اعتمادا على ما قبلها، وعادة ما تكون الحجة الثانية أقوى من الحجة الأولى، وكل خطاب تال لـ " لكن " يكون هو الحجة الأقوى صوب الدعوى التي يدّعيها المرسل، وبالتالي فإنها ستوجه القول بمجمله نحو النتيجة (لا - ن)، كما في هذا الشكل:

(ح 1 —————) لكن (ح 2 ————— لا - ن) (لا - ن) .

ويظهر مما سبق أن " كل محاجة تتجه نحو النتيجة، والتي يتوجب على المتلقي الحكم بقبولها حتى وإن لم تعط له مسبقا، هذه الخيرة تركز على معطيات لجل نقض القضية الداخلية (أ) وتبيان صحة القضية (ب) " ¹.

وإذا كنّا قد وقفنا على تحديد ديكرول للحجاج على أنه تقديم القول (ق) لحمل المستمع على فهم (ق 1)، كما رأينا مع الأداة " لكن " فإن هذه الأخيرة كذلك تحمل أدوارا حجاجية أساسية باعتبارها تسمح للمحاجج بتقديم معلومات على أساس أنها حجج. ²

فقوانين الخطاب _ الشمول والإخبار والإفادة _ تلعب دورا لا يستهان به في عملية تأويل الملفوظات أثناء عمل الروابط، وذلك بتدخلها في تحديد المحتويات الحجاجية ³، وقد أكد ج.م.آدام وقبله ديكرول، على الأهمية القصوى التي يضطلع بها الرابط " لكن " في توجيه الحجاجي.

3-2-2- بل :

¹ - Jean François Jeandillou, L'analyse Textuelle, Armand Collin / Masson, Paris, 1997, p 143. نقلا عن: علي حميداتو، أثر التفاعل الحواري، والنزعة الكلامية في توجيه متلقي الخطاب....، ص 50.

² - ينظر، الحواسي مسعود، البنية الحجاجية في القرآن الكريم - سورة النمل نموذجا - ، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع 12، شعبان 1418هـ، ديسمبر 1997، ص 335.

³ - ينظر: عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب، ص 187.

وهي من أدوات العطف التي يشيع استعمالها في الكتابة العربية، ولكنها لا تصل إلى الحد الذي وصلته أختاها الفاء و الواو في سعة الاستعمال، وتؤدي " بل " وظائف تنفرد ببعضها، وعلى رأسها الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم لما بعدها، ونص على هذه الوظيفة أكثر النحويين، وتأتي كذلك لتأدية وظيفتي الاستئناف والاستدراك، ثم تؤدي وظيفة التدرج إذا تكرر ورودها في التركيب¹، وهي تأتي بعد النفي وبعد الإيجاب على السواء، وتؤدي وظيفتها على أي منهما دون خلل في التركيب اللغوي.

وتكمن حاجية " بل " في أن المرسل يرتب بها الحجج في السلم، بما يمكن تسميته بالحجج المتعاكسة، وذلك بأن بعضها منفي وبعضها مثبت.

ومما يتسق مع " بل " في التركيب تلك الخطابات التي تتضمن: (ليس، فحسب، بل)، وذلك بمعنى تثبت كل من الجزأين، بعد ترتيبها صعودا، فيصبح الوضع ثبوت الأول بوصفه حجة دنيا، وزيادة الآخر فوقه بوصفه الحجة الأقوى، إذ إن الحجج التي تقع بين (ليس...فحسب) تعد في درجة أدنى حتى لو كانت ذات قيمة عليا في نظر المرسل إليه؛ إذ يضعها المرسل بهذا في أدنى السلم، ليوحي إلى المرسل إليه مقدما بأن ما بعدها أقوى منها.²

وهذا الرابط عادة يستعمل للإبطال والحجاج، مثله مثل " لكن "، وله حالتان: فقد يكون ما بعده " مفردا " أو " جملة "، فإن وقع بعده مفرد، فإن كان ما تقدمه أمر أو إيجاب فإنه يجعل ما قبله كالمسكوت عنه، ولا يحكم عليه بشيء، ويثبت الحكم لما بعده (اضرب زيدا بل عمرو)، (قام زيد بل عمرو).

¹ - ينظر: عباس السوسوة، أداة العطف " بل " و " في العربية (مقال)، مجلة علوم اللغة، ع4، 1998، مج1، ص 248.

² - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 516.

وإن تقدمه نفي أو نهي فإنه يكون لتقرير حكم الأول وجعل ضده لما بعده (ما قام زيد بل عمرو) ، (لا تضرب زيدا بل عمرو) .

أما إذا وقع بعد " بل " جملة فيكون معنى الإضراب :
إِذَا الْإِبْطَالُ نَحْوُ : (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ) .

ب - وإما الانتقال من غرض إلى غرض نحو : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)¹ .

وما يهمننا في بحثنا هذا هو الاستعمال الثاني، أي عندما يكون الإضراب على جهة الترك، للانتقال من غرض إلى غرض آخر، من غير إبطال، والأمر متعلق بـ " بل " الحجاجية المرادفة لـ " لكن " الحجاجية، أي المرادفة للأداة الفرنسية " Mais " .

وقد وظّف البشير الإبراهيمي هذا الرابط الحجاجي في كتابات في أكثر من موضع كما في قوله: " فقد أخرجت الزيتونة طرازاً من الرجال لو لم تفتتهم الوظائف المحدودة لأتوا في الإصلاح الديني والديني بالعجب، وما زالت هذه الوظائف المقيدة للنبوغ، بل مدفناً للعبقريّة، تنزل المواهب منها بدار مضيعة..."² .

إن الرابط " بل " يقيم علاقة حجاجية مركبة من علاقيتين حجاجيتين فرعيتين: علاقة بين الحجة (الزيتونة أخرجت طرازاً من الرجال)، والنتيجة (سيكون لهم دور كبير في الإصلاح والتغيير)، وعلاقة حجاجية ثانية تسير في اتجاه النتيجة المضادة، أي بين الحجة القوية التي تأتي بعد " بل " وهي (ففتوا بالوظيفة المذهبة للعبقريّة)، والنتيجة المضادة للنتيجة السابقة (لن

¹ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 64 ، 65 .

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 550 .

يسهموا في الإصلاح)، والنتيجتان مضمرتان، ويمكن توضيح هذه الترسمة الحجاجية على الشكل التالي:

ح1 ← ن ← بل ← ح2 ← لا - ن ← (لا - ن) .

حيث (ح1) و (ح2) يشيران إلى الحجج و (ن) تشير إلى النتيجة التي تخدمها هذه الحجج، و (لا - ن) تشير إلى النتيجة المضادة للنتيجة السابقة (ن)، والرمز " ← " يشير إلى العلاقة الحجاجية.

فالرابط الحجاجي " بل " يربط بين الحجج والنتائج، والنتيجة المضادة " لا - ن " ستصبح نتيجة القول برمته، لأن الجملة التي بعد " بل " أقوى من الحجة التي ترد قبلها.¹ فهؤلاء الرجال _ في المثال السابق _ طبيعتهم أنهم أصحاب مصالح ووظائف، فبالتالي أراد البشير الإبراهيمي أن يبين أنه على الرغم من تكوينهم وتخرجهم من الزيتونة، أي أنهم يملكون الأهلية والقدرة على التغيير، ولكن غلبت عليهم طباعهم فانساقوا لها وبذلك لن يسهموا في الإصلاح بشيء .

وقد وظف الإبراهيمي هذا الرابط كثيرا في كتاباته؛ إذ نجد أن الرابط " بل " في أكثرها يخدم حجتين متضادتين، ولكن الحجة الواقعة بعد الرابط هي الحجة الأقوى، والنتيجة المضادة " لا - ن " هي النتيجة المعتمدة.

جاء في سياق كلام الإبراهيمي عن جمال عبد الناصر في رسالة بعثها له : " أما تهجمات فرنسا على مقامكم الكريم فقد أكسبتكم قلوب ثلاثين مليوناً من المغاربة ومئات الملايين من العرب والمسلمين، بل حتى الأوروبيين المنصفين "².

¹ - ينظر: المرجع السابق، ص 67.

² - المرجع نفسه، ج 5، ص 49.

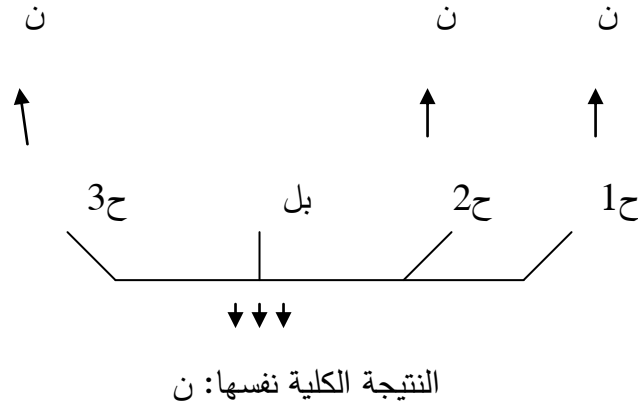
يمكن استخراج صيغة حجاجية متكونة من حجج ونتيجة على الشكل الآتي:

أكسبتكم قلوب ثلاثين مليوناً من المغاربة، مئات الملايين من العرب والمسلمين، بل الأوروبيين المنصفين.

فالرابط " بل " في المثال السابق يربط بين ثلاثة حجج متساوقة، أي أنها تخدم نتيجة واحدة، إلا أنّ الحجة الواردة بعده أقوى من الحجج التي تتقدمه، ومن هنا تعبر " بل " عن " التساوق الحجاجي ".

نجد أن الحجج الثلاثة التي يربط بينها الرابط في المثال السابق هي عن: " أكسبتكم قلوب ثلاثين مليوناً من المغاربة "، " مئات الملايين من العرب والمسلمين "، " قلوب الأوروبيين المنصفين " وكلها تخدم نتيجة مضمرة وهي: " تهجمات فرنسا عليكم ما زادتكم إلا رفعة ومكانة "، والحجة الواردة بعد الرابط " قلوب الأوروبيين المنصفين " هي القيمة الأقوى.

ويمكن أن نوضحها بالشكل الآتي:



فالحجة (3ح) أقوى بالرغم من أنها تخدم نفس النتيجة (ن).

3-2-3 - حتى :

تؤدي حتى وظائف كثيرة منها العطف، حيث تعطف مفردا على مفرد وجملة على جملة،
فيتبع المعطوف المعطوف عليه لفظا أي في الرفع والنصب والجر، ومعنى أي في النفي
والإيجاب.¹

و لـ " حتى " دور في ترتيب منزلة العناصر، ولما لمعانيها واستعمالاتها من سلمية، ففي
استعمالات " حتى العاطفة " على المرسل أن يراعي شروط المعطوف وهي شرطان: أولا: أن يكون
بعض ما قبلها أو كبعضه، والثاني: أن يكون غاية لما قبلها في الزيادة، والزيادة تشمل القوة
والتعظيم، والنقص يشمل الضعف والتحقير. وتفيد حتى العاطفة التخصيص والتوكيد، إذا تخصص
المعطوف لأنه جزء من المعطوف عليه، أو تؤكد المعنى المراد بذكره.²

كما سنحاول هنا دراسة الأداة " حتى " دراسة حجاجية، لنبرز بعض الاستعمالات
الحجاجية لهذا الرابط، فليس دورها منحصر في أن تضيف إلى المعلومة (جاء زيد) في القول (حتى
زيد جاء) معلومة أخرى (مجيء زيد غير متوقع)، بل " إن دور هذا الرابط يتمثل في
إدراج حجة جديدة، أقوى من الحجة المذكورة قبله، والحجتان تخدمان نتيجة واحدة لكن بدرجات
متفاوتة من حيث القوة الحجاجية ".³

وهذا الرابط يربط بين حجتين أو أكثر لهما نفس الوجهة الحجاجية ويخدمان نتيجة واحدة،
بمعنى أنها متساوقة، وقد تكون النتيجة تلك مذكورة أو متضمنة، كما أن الحجة الواردة بعد الرابط
أقوى من الحجة التي قبله.

ولنا أن نمثل لها مما ورد من توظيف لهذا الرابط في نصوص الإبراهيمي، فقد استغل
البشير الإبراهيمي هذا الرابط في سياقات حجاجية كثيرة في كتاباته، من ذلك ما جاء في قوله: "

¹ - وصف المباني في شرح حروف المعاني، ص 258.

² - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 518.

³ - أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 33.

حكومة لائكية في الظاهر، مسيحية في الواقع،... تجمع يدها على دين المسلمين ودنياهم، وتتدخل حتى في كيفية دفن موتاهم...¹. والشيء نفسه في سياق كلامه ووصفه لمجزرة 8 ماي، وصور القتلى والدماء التي خالطت كل شيء، قوله الآتي: "وأين قتلى ضمخت دماؤها الغريين"، من قتلى ضمخت دماؤها أديم الأرض، وخالطت البحار حتى ماء البحر أشكل².

فالصيغة الحجاجية في المثال الأول تكون كالآتي:

تتدخل الحكومة في أمور الدين، وأمور الدنيا، حتى في دفن الموتى.

أمّا في المثال الثاني كالآتي:

فاقت الدماء ما ضمّخ به الغريين والأرض، حتى ماء البحر أشكل.

في المثال الأول الحجج هي: ح1: التدخل في أمور الدنيا.

ح2: التدخل في أمور الدين.

ح3: التدخل في دفن الموتى.

النتيجة ن: تدخل الحكومة في كل أمور الناس صغيرها وكبيرها، خاصها وعامها.

وفي المثال الثاني نسوق الحجج وهي: ح1: ضمخت دماء الموتى الغريين.

ح2: ضمخت الدماء الأرض.

ح3: ماء البحر أشكل بالدماء.

النتيجة ن : حجم القتل فاق كل تصور، بل لا يوصف.

يتعلق الأمر في المثالين بـ " حتى " الحجاجية، ففي المثالين يربط بين ثلاثة حجج لها

نفس التوجه الحجاجي، أي أنها تخدم نفس النتيجة، إلا أن النتيجة مذكورة أو ظاهرة في المثال

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 60.

* - الغريان: بناء ان قرب الكوفة كان النعمان يلطخهما بدماء قتلاه.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 334.

الأول وهي مضمنة في الثاني، كما أن الحجة التي وردت بعد الرابط في المثالين وهي " ح 3 " هي الحجة الأقوى من بقية الحجج التي قبل الرابط.

وغالبا ما تكون " حتى " الحجاجية عاطفة، وقد تكون جارة إذا كان ما بعدها داخلا فيما قبلها، لأن المجرور بحتى- حسب جمهور النحاة - إما يكون داخلا فيما قبلها أو لا يكون، ولا تكون حتى الحجاجية جارة إلا عندما يكون ما بعدها داخلا فيما قبلها.¹

وقد وافق ما ذهب إليه النحاة وجهة القول في النظرية الحجاجية الحديثة كما قدمها ديكر وأسكومبر في أن الحجة التي تأتي بعد " حتى " هي الأقوى، فنجد موافقا تماما لما يقصده النحاة بقولهم " أن يكون ما بعدها غاية لما قبلها...". وأحيانا تخرج " حتى " عن الغاية المكانية والزمانية، ومن هنا كان لابد أن نعرض أنه في الحديث عن " حتى " لا بد أن نراعي ذلك؛ إذ أنها تقيد الغاية الزمانية والمكانية والغاية الحجاجية.

كما أن هناك استعمالات حجاجية أخرى لـ " حتى " فقد تستعمل للدلالة على التعليل أو الغاية، وهي في ذلك ذات استعمال حجاجي كما قد تقيد الشرط أو التفسير أو التبرير، ونشير إلى أن روابطها تترايط وتتعارض وتتقابل فيما بينها، وعادة ما يرتبط بالطريقة التي قدمت بها الحجة، ومفهوم العلاقة الحجاجية مفهوم عام ومرن، وقد يرد على شكل علاقة شرطية أو سببية أو تفسيرية أو تبريرية أو استنتاجية.²

كما قد تدخل " حتى " في تحديد علاقات الحيز بين النفي والأسوار فدخل حتى " يجعل الجمل أو العبارات لا تقبل إلا تأويلا واحدا، وهو التأويل الذي يمنح للسور الكلي الحيز

¹ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 74.

² - المرجع السابق، ص 80.

الأوسع، ويجعله غير خاضع لتأثير النفي"¹، فوجود الأداة " حتى " يزيل الالتباس، ويجعل الجمل لا تقبل إلا تأويلا دلاليا واحدا، ويصير التأويل الذي بموجبه يكون السور مندرجا في حيز النفي غير وارد ولا ممكن أصلا، ومن ثم يحصل انسجام القول دلاليا وحجاجيا.

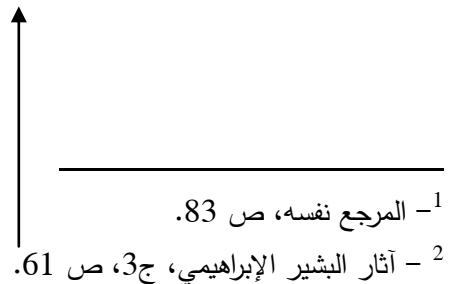
ولتوضيح ذلك نقف عند توظيف هذا الرابط في قوله: " ثم يلتقي هؤلاء جميعا مع الاستعمار في نقطة اتصال، تلجئهم إليها الضرورة إلجاء، حتى يصير المختار فيها كالمكره، وهي حرب الجمعية..."².

ففي هذا المثال لو لم يكن فيه الرابط " حتى " لكان بهذا الشكل: يلتقي جميعهم مضطرون مع الاستعمار في حرب الجمعية. وهذا يبقى على أكثر من تأويل، فربما هناك من هو مخير ولم يشارك الاستعمار محاربته للجمعية، ولكن بإدخال الرابط " حتى " أسقط كل التأويلات الأخرى وأبقى على تأويل واحد، فالكل شارك حتى المخير منهم.

كما تتمثل الخاصية الأساسية للحجة التي ترد بعد " حتى " في أن هذه الحجة تعد أقوى حجة يمكن أن نقدمها لصالح النتيجة المقصودة، وينبغي أن تتموقع في أعلى السلم الحجاجي، وتسند إليها أعلى المراتب الحجاجية، وأن تكون آخر حجة يمكن تقديمها لصالح النتيجة المقصودة. فلو مثلنا بالمثل السابق (تتدخل الحكومة في أمور الدين، وأمور الدنيا، حتى في دفن الموتى) في رسم للسلم الحجاجي له، حتى نبين مراتب الحجج فيه كالاتي:

ن : تدخل الحكومة في كافة أمور الناس.

– تدخل الحكومة في دفن الموتى.



- تدخل الحكومة في أمور الدين.

- تدخل الحكومة في أمور الدنيا.

وفي الأخير وبعد أن أبرزنا بعض الاستعمالات لهذه الروابط " لكن " ، " بل " ، " حتى "، وهناك حتما استعمالات حجاجية أخرى، وليس الهدف من هذه الدراسة إجراء دراسة شاملة واستقصائية لهذه الروابط ولا دراسة جوانبها التركيبية والتداولية، فذلك يتطلب بحثا مستقلا بل بحثا عدة، وإنما الغرض كان إبراز مظهر من مظاهر الحجاج اللغوي، وهو ما تعلق ببعض الروابط الحجاجية، والتي أخذنا منها نماذج فقط، وإلا فإنها تتطلب بحثا مستقلا خاصا بها.

3-2-4 - واو الحال :

نقف في هذه الجزئية على رابط حجاجي آخر، والذي غالبا ما يوظف في الخطابات الحجاجية، لكن بشكل أقل من الروابط السابقة، وعليه سيقصر الأمر على نموذج واحد مما توقّرت عليه كتابات الإبراهيمي متمثلا في " واو الحال ".

الواو حرف كثير الدوران في العربية، كما أنّه يرد لمعان كثيرة، وهو من أكثر حروف العطف استخداما في الكلام العربي، وقد أوصل بعضهم عدد أنواعها إلى عشرين نوعا¹، ولكن الشائع منها في الاستعمال ولاسيما في الكتابة العربية الحديثة لا يتجاوز عدد أصابع اليد.

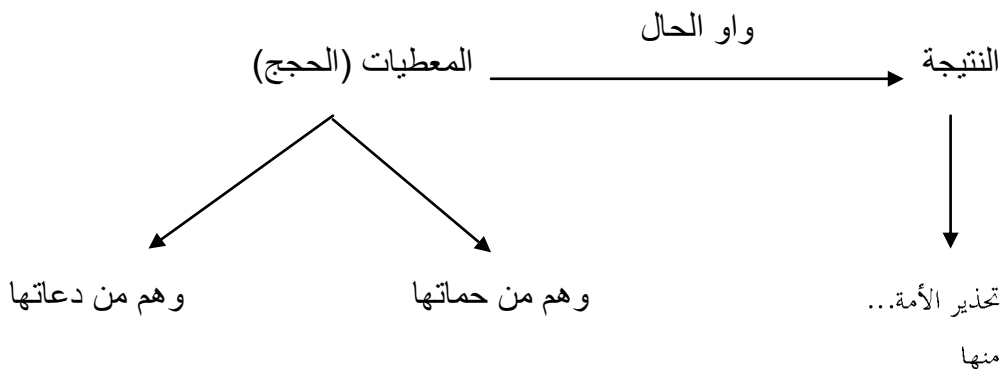
¹ - ينظر: محمد عبد الرحمن محمد الريحاني، واو الربط وظائفها ودلالاتها (دراسة)، مجلة علوم اللغة، ع4، 1998، مج1، ص 151.

والذي يعنينا هنا هو " واو الحال " وهو رابط حجاجي يتمثل دوره الأساسي في كونه " مقدّم حجج " ¹، ومع استعمال " واو الحال " تكون الحجة أقوى لها طابع البرهان، لأن البنية الحجاجية هناك لا تبدأ بالمعطاة وإنما بالنتيجة، فيكون الخطاب الحجاجي بهذا الشكل:

النتيجة ← واو الحال ← المعطيات (الحجج).

ومن أمثله ما ورد في قوله: " كما يفعل وعَاظ الاستعمار، ومشعوزوا السياسة، لتخدير الأمم المستضعفة، فيقَبِّحون لها العنصرية، وهم من حمايتها، ويزهدونها في الجنسية، وهم من دعائها " ².

فالوظيفة التي أدتها الواو _ واو الحال _ هنا هي الدلالة على إنشاء علاقة سياقية نحوية مصطنعة بين الجملتين بطريق الربط، هي علاقة الملابس أي إفادة معنى الحال، وقد استعان به البشير الإبراهيمي لتقوية حجته، عندما جعل النتيجة سابقة للمعطاة، بحيث يصبح لها إذ ذاك طابعاً برهانياً، ويمكن التمثيل لها كالاتي:



وبواسطة هذا الترتيب "نعلّل إثباتا سبق نصياً ولكنه يلي حجاجياً" ¹، وعليه يعطي الإبراهيمي قوّة حجاجية لما آتى بعد واو الحال، ذلك أنها ذات دلالة تصلح للاستدلال. نستنتج مما سبق أنّ

¹ - الحواسي مسعود، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، ص 333.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 46.

للأدوات اللسانية دورا هاما في إحداث المعنى، ذلك أنّها تحمل شحنة حجاجية تعمل على التأثير في الآخر، وهذا ما لمسناه من خلال الاتساق بين الوحدات الخطابية والانسجام الحاصل بين عناصرها بحيث أنّ لكل مقدمة نتيجة محددة بواسطة رابط يبيّن إمّا تقديم حجة أو إظهار نتيجة، كما أنّ هذه الروابط مختارة بعناية تعمل على جذب المتلقي وتحويل وجهة نظره.

والنزعة الحجاجية بادية في البناء اللغوي لكتابات الإبراهيمي، بتضمينها تلك اللوازم الحجاجية، وتوجيهها من البداية توجيهها حجاجيا خاصا.

¹ - الحواسي مسعود، البنية الحجاجية في القرآن الكريم ، ص 334 .

الفصل الثاني:

أسلوبية الحجاج التداولي في كتابات الإبراهيمي

1- حجاجية الأسلوب في كتابات الإبراهيمي

2- تداولية الخطاب الحجاجي في كتابات

الإبراهيمي

1/- حجاجية الأسلوب في كتابات إبراهيمي:

لقد توافرت العديد من الخصائص الأسلوبية في كتابات إبراهيمي ما جعله خطابا حجاجيا، وما جعل الحجاج يصيب كثيرا من العناصر اللغوية فيه، مثل الكلمات والتراكيب والصور، وهي تتكرر تكرارا يجعل منها خصائص أسلوبه المميزة، فما هي المعطيات التي هيأت ما كتبه إبراهيمي ليكون أسلوبه أسلوب خطاب حجاجي ؟

إننا ننطلق من فكرة بديهية جدا وهي أنّ ما كتبه إبراهيمي خطابا، وكونه خطابا يقتضي أنه إقناع وتأثير، فقد حدد " بنفنيست " الخطاب بقوله : " الخطاب في أعم مفاهيمه، كل قول يفترض متكلما وسامعا مع توافر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع " ¹.

ويكتسي الأسلوب لأهميته من قوة تأثيره في المتلقي، فعامة الناس " يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقول، بل يجب أن يقوله كما ينبغي " ².

والمقصود بالخصائص الأسلوبية هو الظواهر اللغوية، وقد تحولت بحكم ترددها وتكرارها وعودتها فيه إلى أسلوب في القول يميزه، واعتبار ترديد الظاهرة اللغوية الواحدة وما ينشأ عنها من تشبّع مقياسا في تحديد الأسلوب أمر مشاع لا محالة. وقد كان " ميشال ريفاتير " يرى أن التشبّع

¹ - Emile Benveniste, Problèmes de linguistique générale I, Editions Gallimard,

1966, p 246. نقلا عن: الحجاج في القرآن...، ص 41.

² - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 87، 88.

هو الذي يمثل لغة الكاتب أو المتكلم، أما الأسلوب فيتمثل في الخروج عن ذلك التشبع وفي خرق نظام التواتر¹.

وأسلوب كتابات الإبراهيمي هنا شأنه شأن الأسلوب الخطابي، يتميز " بمزجه بين الأدلة التي تكفل الإقناع، والإثارة التي تحقق الاستمالة، فهو من جهة يحاول تقرير الحقائق فيتجه إلى الفكر، ومن جهة أخرى يحاول إثارة العواطف فيتجه إلى الوجدان"².

وسنناقش هذه المدونة - كتابات الإبراهيمي - في ضوء نظرية المساءلة، ثم سنحاول الوقوف على بعض صور الاستعارة الحجاجية، التي يتوقع أن يكون الإبراهيمي قد أفاد منها كثيراً، من حيث توظيفها والعمل على تحميلها الدور الإقناعي المنوط بها.

1-1- خطابات الإبراهيمي في ضوء نظرية المساءلة:

كي تكتمل نظرتنا في معالجة خطاب البشير الإبراهيمي من منظور حجاجي، سنعمل على توظيف نظرية فلسفية تناولت العمليات التخاطبية عامة والعمليات الحجاجية خاصة من منظور جديد، يستهدف الخطاب في عموميه ويبحث له عن موقع داخل إشكالات المعرفة الإنسانية، يتعلق الأمر بنظرية المساءلة حيث سنقوم في هذا الجزء بتقديم الإشكالات العامة للتواصل والحجاج من منظور تساؤلي.

نظرية المساءلة: ألسفوية هي؟ أم لغوية لسانية ؟

¹ - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن...، ص 48، 49.

² - عبد العالي قادا، الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري الخامس، مقارنة حجاجية، بحث لنيل الدكتوراه، كلية اللغة العربية، مراكش 2010 - 2011. نقلا عن: نور الدين أجييط، الوظائف التداولية للتخاطب السياسي وأبعادها الحجاجية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016، ص 141.

يقدم " مايير " نظرية المساءلة كنظرية فلسفية معرفية، لأن علاقة المساءلة في نظامه الحوارى هي فوق الوجود المادى للقول، وهى بذلك ترتبط بخطاب ولا تقتضى قسرا وجود المُخاطَب والمُخاطَب كطرفين فى العملية الكلامية، لأنهما يكونان متضمنين فى نفس القول¹ - أى أن القول ذاته يحتوى عليهما معا - الذى يضع السؤال ويفترض جوابه، فأن نتكلم يعنى أن نُسائل.

وينطلق فى تأسيسه لنظرية المساءلة من الوظيفة الأساسية الأولى للفلسفة والتي ليست إلا المساءلة التأسيسية، وذلك فى محاولة كشف علاقة الوعي بالخطاب. وإن كان يرى أن الفلسفة لم تطرح على نفسها ذلك السؤال التأسيسى الذى يمثل جوهرها؛ أى أنها لم تعتن بدراسة المساءلة.

فالتفلسف عند سقراط - كما يرى مايير - " لا يعنى إلا المساءلة لأن الإجابة لا تمثل إلا مستوى ظاهر "². فالمسالة عند سقراط تقوم على أن الأسئلة ما طرحت إلا لكشف جواب متوهم عند المُخاطَب.

أما عند أفلاطون فالسؤال عنده واضح كفكرة والتعبير عنه واضح جلي، كونه لا يؤدي إلا دورا بلاغيا بحثا، ولا يؤدي إلى الحقيقة المنشودة. على أن أرسطو نحى منحى آخر؛ إذ جعل السؤال تابعا للجدل ووجها من وجوهه المتعددة.³

¹ - ينظر: عبد الرزاق بنّور، جدل حول الخطابة والحجاج، الدار العربية للكتاب، تونس، (د ط)، 2008، ص 97.

² - محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 390.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 390، 391.

وقد انطلق " مايير " في إرسائه لمفاهيم نظريته من منطلق فلسفي يدور حول محو أساس وهو الكلام، منطلقا من تعريف مغاير لـ " اللوغوس " عما كان عليه في الفلسفة اليونانية؛ إذ تراوح مفهوم اللوغوس عندهم بين الحجة وعنصر الحجاج والخطاب وغير ذلك.

أما " مايير " فيعرف اللوغوس " بأنه كلام العقل الذي يدرك نفسه في كل مداه (اتساعه) دون أن يحده اتجاه مخصوص " ¹.

ويشير " مايير " إلى أن اختيارنا لأمر ما عندما لا نحدد طبيعة السؤال، " وطرح السؤال أو إثارته بطريقة غير استقهامية يعني في الغالب أن المتكلم يريد معرفة ذلك " ². فكل جواب يثير سؤالاً، وهو الأمر المقصود بأن أمراً ما هو محل السؤال.

وقد يطرح سؤال مهم متعلق بالمساءلة أجاب عنه " مايير "، وهو ما الجدوى من طرح سؤال إذا لم تكن الغاية منه الحصول على جواب إيجابي؟

جاء " مايير " إجابة فلسفية مؤسسية، فقال: " إن المساءلة هي أيضا الجواب وإذا ما ألغينا السؤال فإننا نلغي معه الجواب، وإنما المساءلة تكمن في ذلك الاختلاف بين ممارسة السؤال وامتدادات السؤال الحمالة للأجوبة المتعددة " ³. وبهذا يضع مايير أحد أركان نظريته في المساءلة.

من خلال إجابة مايير الفلسفية، هل الأمر يتعلق بالفكر والفلسفة دون الكلام واللغة والتواصل؟

¹ - المرجع السابق، ص 392.

² - المرجع نفسه، ص 393.

³ - المرجع نفسه، ص 390.

ليس التواصل سوى شكلا من أشكال التفكير أو القول أو الكتابة والتي هي تعني طرح سؤال - حسب نظرية المسألة -، يتحقق التواصل عن طريق اللغة وبواسطتها، ولكنه يفترض الغير ويفترض اختلافا إشكاليا معه. إن التواصل هو الغير الحيوي والمناسب في الفكر والمنهج فيه إلى درجة أن الغير يتشكل داخل الذهن ولا يفارقه.¹

فالعلاقات التواصلية بين الناس تهدف إلى تغيير الاختلاف الإشكالي الذي تختزنه الأقوال التواصلية، وطريقة لتقريب المسافات بين الآراء والمواقف، أو قل إنها طريقة للإجابة عن أسئلة منتطرة وطريقة لطرح أسئلة تقتضيها الظروف والمقامات التواصلية.

وللغة التواصلية أبعاد عدة: حاجية، جدلية، دلالية، تأويلية، وحوارية.

فالبعد الحواري في التواصل يقتضي الآخر بالضرورة؛ إذ لا يمكن أن نبلغ أو نفع شيئا دون وجود الآخر، ولا يكون هذا الآخر مجرد مستمع محايد بل يكون فاعلا؛ أي سائلا ومجيبا في الآن نفسه، وخلال تلك العملية التفاعلية تتحد الاختلافات الإشكالية للأقوال باعتبارها افتراضات متبادلة داخل الحوار،² وهي عبارة عن عمليات تواصل في ضوء نظرية المسألة تكوّنت في شكل حوار، الشيء الذي يسمح بتحديد مجموعة من الأبعاد الحوارية التي تميز بين حوار وآخر، وهي:

• الحوار الواضح:

وفيه يكن القول واضحا - أي سؤال وجواب-، دون أن يرقى الحوار إلى مستوى الاختلافات الإشكالية، وهذا دون أن ينتج الحوار هامشا للافتراض والتأويل. وشكله:

¹ - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 197.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 200، 201.

متكلم (1)	سؤال؟	مستمع (1)	جواب
// (2)	سؤال؟	// (1)	جواب
// (1)	سؤال؟	// (2)	جواب

ومثاله من خطاب الإبراهيمي قوله في كلامه عن تضييعنا لفلسطين، وقد ساقها في شكل حوار متكون من سؤال وجواب:

" إن معرفة كارثة فلسطين لا تعدو أن تكون أسئلة وأجوبة، فإن استطعنا أن نعرف الأجوبة استطعنا أن نعرف الداء ثم نعالجه ...

أما السؤال الأول فهو: هل أضعنا فلسطين؟

الجواب: نعم.

السؤال الثاني: هل أعطيناها أم أخذوها منا؟

الجواب: أعطيناها نحن ...

السؤال الثالث: هل يمكن استرجاعها؟

الجواب: يمكن استرجاعها ...¹.

وبإسقاط هذا النموذج من خطاب الإبراهيمي على الشكل العام للحوار الواضح يكون

كالآتي:

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 282، 283.

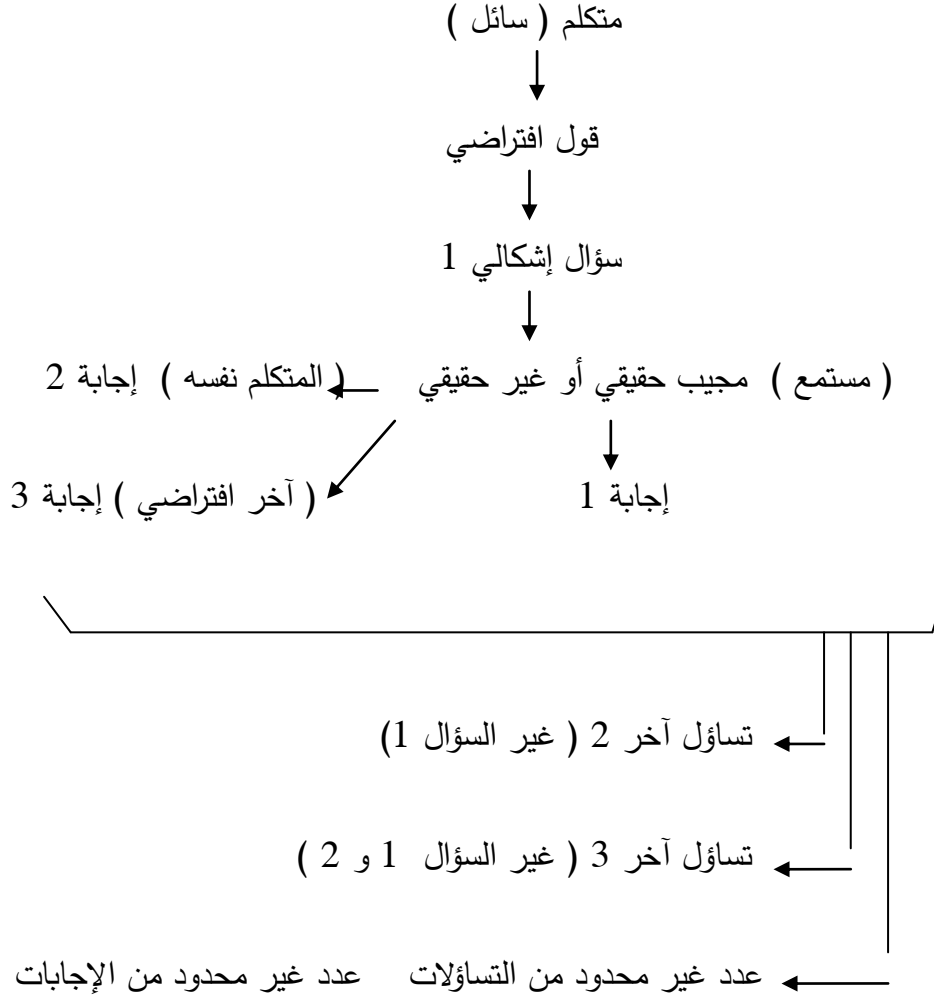
متكلم (1)	سؤال؟	مستمع (1)	جواب
سائل مفترض 1	<u>هل أضعنا فلسطين؟</u>	الإبراهيمي	<u>نعم</u>
سائل مفترض 2	<u>هل أعطيناها ؟</u>	الإبراهيمي	<u>أعطيناها نحن</u>
سائل مفترض غ.م	هل يمكن استرجاعها؟	الإبراهيمي	<u>يمكن استرجاعها</u>

*سائل مفترض غ.م: يعني غير محدد قد يكون رقم 1 أو 2 أو غيرهما.

• الحوار الإشكالي:

ويكون القول فيه افتراضاً منذ البداية، وتستدعي فيه الأسئلة أجوبة متنوعة ويكون فيها للمستمع والمتكلم هامشاً من الحرية والاختيار والمعالجة عن طريق الافتراض، والتساؤل الإشكالي في هذا الحوار قد لا يكون موجهاً للمجيب الحقيقي (الداخل مع السائل في الحوار)، بل قد يكون المجيب هو نفسه السائل أو الآخر المفترض داخل السياق العام للحوار، والإجابة الإشكالية قد تتجه نحو سائل آخر مفترض، أو تعبر عن تساؤلات أخرى دون أن تعالج التساؤل الأول.¹ وهنا تكمن حقيقة الحوار الناجح الذي يقبل كل التأويلات الممكنة، ويتمثل في الخطابات الاجتماعية والسياسية...إلخ. وشكله:

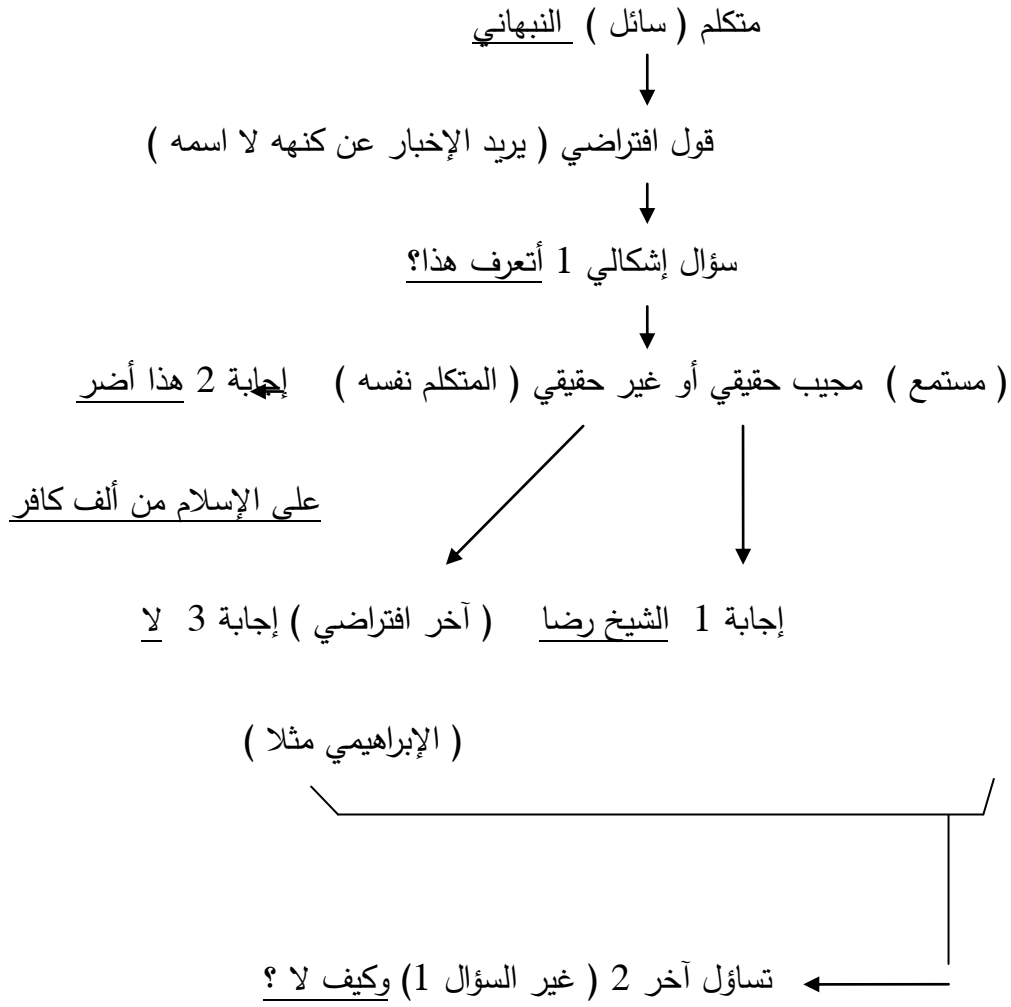
¹ - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 201.



ومثاله من خطاب الإبراهيمي قوله: "... وكان النبھاني سمع بي فجاء مسلماً قاضياً لحق الجوار بالمدينة المنورة؛ إذ كنا قد تعارفنا فيها، فإننا لكذلك إذ مر بنا الشيخ رشيد ولم يرنا ولم نره. وما راعني إلا النبھاني يلفت رفيقي ويسأله: أتعرف هذا؟ فأجابه: وكيف لا؟ هذا الشيخ رضا. فما كان من النبھاني إلا أن قال: هذا أضّر على الإسلام من ألف كافر..."¹.

وبإسقاط هذا النموذج على شكل الحوار الإشكالي يكون كالاتي:

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 180.



• الحوار الصامت:

يتم في الحالات التي يطرح فيها سؤال إشكالي من طرف المتكلم في اتجاه مستمع موجود أو مستمع مفترض؛ أي " نحو آخر غير محدد لأنه ضمناً يمثل كل واحد فينا " ¹ ويكون الاتفاق أو الاختلاف في هذا الحوار بالصمت، وتظل على الرغم من ذلك العملية التساؤلية قائمة لأن

¹ - 81 P, Meyer.M, Questions de Rhétorique, Paris, 1993. نقلاً عن: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 201.

المتكلم يقبل كإجابة على ما لم يقدمه له المجيب، أو ما يقدمه هو من إجابات من خلال تساؤله داخل السياقات التي توطر عملية الحوار¹. وشكله:

متكلم — سؤال؟ — مستمع — لا جواب (مسكوت عنه).

وقد يكون السؤال هنا أصلاً غير مطروح للإجابة وإنما كحجة لاعتراض على شيء ما أو إثارة حفيظة المستمع أو الإشارة إلى انتباهه، كما أن السائل والمجيب المُفترض (قد يكون السائل نفسه) مقتنع بما لديه في هذا الموضوع، وواضع في الاعتبار الطرف الآخر دون الحاجة إلى العمل على مناقشته أو تغييره.

وهذا النوع من الاستفهام اتسم به القرآن الكريم في أسلوبه، قد يكون البشير الإبراهيمي قد تأثر بأسلوب القرآن الكريم في ذلك على اعتبار أنه أحد خلفياته التكوينية.

ومثاله من خطاب البشير الإبراهيمي قوله: "أفتمارونني على ما أرى؟ أما والله ما كذب العيان ولا أخطأ الحدس"²

وقوله كذلك: "... فكيف تبقى للقرآن قيمة في نفوس الناس من هذه الناحية بعد هذا التضليل؟ وكيف لا يستحقكم الجفاء بين الأمة وقرآنها مع هذا التدجيل والصد عن سواء السبيل؟"³.

¹ - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 201.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 245.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 171.

وقوله في السياق ذاته من صور الحوار الصامت: "... ولتعدد الحلق الطرقية التي لا تجمع الناس لمدارس علم، وإنما تجمعهم لتحكيم وهم، وأقول في نفسي إذا لم تجتمع قلوبنا في حرم رسول الله على دين الله، فهل ينفعنا اجتماع الأبدان؟"¹.

وقوله أيضا: "يقول فريق من الناس ممن لم يرزق صوابا في الرأي ولا سدادا في التفكير، إن الجمعية فرّقت كلمة الأمة وجلبت عليها الاضطراب والفتنة والتشويش، في كلمات من هذا القبيل لا تصدر إلا ممن لم يعرف موقعه من الأمة ولا موقع الأمة منه، وليت شعري، متى كانت هذه الأمة مجتمعة حتى يقول قائل إن الجمعية فرّقتها؟"².

لو بيّنا شكل الحوار في هذا المثال الأخير، فسيكون على النحو الآتي:

متكلم ← سؤال؟ ← مستمع ← لا جواب (مسكوت عنه).

الإبراهيمي ← "متى كانت هذه الأمة حتى ← القارئ أيا كان ← لا جواب

يقول قائل إن الجمعية فرّقتها"

إن التواصل في نظرية المساءلة هي المعرفة الشاملة بالسياقات بما تعنيه من معرفة موسوعية ومن معرفة الآخر ومن معرفة الذات، معرفة تجسد الاختلافات الإشكالية بين المتخاطبين عن طريق الأقوال، وما التواصل في الأخير إلا الإمكانيات القولية المختلفة التي

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 191، 192.

² - المرجع نفسه، ج1، ص 139.

تسمح للمتخاطبين أن يستنتجوا أو يستبدلوا ويحاجوا أو يقنعوا، إنه الوسيلة التي تكشف عن مكن السؤال في ما يقال دون أن يقال مباشرة.¹

هذا ويبقى أن تجيب نظرية المساءلة عن سؤال مهم وهو، ماذا يعني أن نتكلم؟

يتوصل مايير إلى نتيجة مفادها أن الحدث الكلامي الوحيد الذي يسمح به السؤال الفلسفي عن الكلام لا يمكن أن يكون إلا هو نفسه؛ أي السؤال باعتباره حدثا كلاميا.²

فأساس نظرية مايير هو أن السؤال هو الإمكانية الوحيدة التي يسمح بها السؤال عن جوهر الكلام وبقية الأحداث ما هي إلا فرع عن السؤال.

ومن هنا تتفرع نظرية مايير حول المساءلة وطبيعة السؤال والفرق بين السؤال والجواب وطبيعة الكلام الاستفهامية والحجاجية.

أمّا أهم النتائج التي يمكن أن نتوصل إليها من خلال تأملات مايير حول الكلام فهي الآتية:

- إننا عندما نسأل الكلام نجيب بأن عملية التفكير هي عملية المساءلة، وإن استعمال

الكلام الحامل لقدرة الفكر على المساءلة يعد فعل تفكير.³

¹ - ينظر: Meyer.M, Questions de Rhétorique, Paris, 1993, P 81. نقلا عن: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 202.

² - ينظر: محمد علي الفارسي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 392.

³ - ينظر: Meyer,M,De la Problématique, Bruxelles,1988,P 202 نقلا عن: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 392.

- إنه بإمكاننا الوصول إلى الجواب حينما نستقهم السؤال، لكن السؤال بما هو سؤال لا يقدم جوابا لأن حقيقته الأولى هي أن يكون سؤالاً.

- إن حضور الجواب يقتضيه احترام عملية السؤال تلك لا أكثر ولا أقل، ومن هنا فرض الاختلاف وجاء الجواب لكنه جواب يشتق من السؤال ولا يدع السؤال يختزله.

- إن الفرق بين السؤال والجواب باعتبارهما ظاهرتين تأسيسيتين للكلام ليس مسألة بناء نحوي، فمفهوم السؤال يتجاوز حدود المجال اللساني.¹

وختاماً يقول مايير: " لا خلاص بدون فلسفة "، يجب أن تكون الخطابة في خدمة الفلسفة لا العكس، ويجب أن تحدد الفلسفة موضوع الأسئلة قبل أن نأمل في إيجاد أجوبة لها. وبهذا تتولى الفلسفة وضع أسئلة البلاغة وتصنيفها لأن فلسفة المسألة هي فن صياغة الأسئلة التي لا تعرف لها أجوبة ما قبلية.²

واضح أن أسس نظرية مايير فلسفي في الدرجة الأولى، إلا أن اهتمامه باللغة وإن اندرج في إطار المسألة الفلسفية الشاملة فإنه لا يفقد مع ذلك نجاعته الإجرائية ذلك أن هذه الجهود التنظيرية في مجال البلاغة تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشد الارتباط، ولدراسة السؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة تتضافر المقاصد التداولية (ظروف انجاز الحجاج) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية (الحجاجية أساساً).

الحجاج في ضوء نظرية المسألة:

¹ - ينظر: المرجع السابق، ص 193.

² - ينظر: محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 401.

من خلال التوجه العقلاني لحركة السؤال والجواب ونظام المسافة بينهما، يمكن أن نستخرج ما يعرف بالحاجية من نظرية المساءلة، وهنا يمكن الحديث عن نوعين من المساءلة: مساءلة بالفعل يمكن مقارنتها بالمساءلة الاجتماعية، ومساءلة بالقوة يمكن استخراجها من من المفاهيم والآراء والنصوص بوصفها منابر حاجية منتجة للمسافات والاستفهامات، حيث " إن التناقض بين المفاهيم لا يظهر بشكل صريح؛ بل يوجد بين الأحكام الموجودة بالقوة والتي يمكنها إنشاء الموضوع ".¹

وبما أن الحاجية تهدف إلى تحقيق التوافق بين الآراء، من خلال عرض الحجج للمحادثة والتداول واستخدام السؤال كطعم لاستخراج الموضوع بالقوة وعرضه للاتفاق، فإن " الإجابة عن سؤال ما هي ترسيمٌ لهذا الاتفاق الضمني "²، ومنه فإن الحاجية - أي الخطابة الممكنة - تشتغل في المساءلة على مستوى البنية المتضمنة في اللغة نفسها، وفي المحادثة بوصفها المظهر الاتصالي والاجتماعي للمساءلة.

ينطلق مايبير من وسائل الاستمالة الخطابية الثلاث التي حددها أرسطو، وهي: الإيتوس (الصفات المتعلقة بالمتكلم)، والباتوس (التأثير في الآخر)، واللوغوس (الخطابة أو اللغة أو العمليات الاستدلالية داخل الخطاب)، كمصدر نظري هام في تعميق دراسته للعلاقات الخطابية

¹ - عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة: مقارنة حاجية للخطاب الفلسفي، الدار العربية للعلوم ناشرون ، لبنان، ط1، 2009، ص 88.

² - المرجع نفسه، 88.

المتصلة بالحجاج. وما يحتفظ به مايير من مقومات هذه الخطابة تلك العلاقات الثنائية المؤسسة؛ أي علاقة المتكلم بالمخاطب حول مسألة ما.¹

وقد أعاد مايير صياغة تلك العناصر الخطابية الأرسطية السابقة في ثلاثة أركان، هي: الأخلاق ، السؤال، والجواب. ولكنه قدم لها تصورا وظيفيا مغايرا مختزلا إيّاها في عنصرين أساسيين:

عنصر الايتوس (الأخلاق أو الصفات المرتبطة بالمتكلم والمخاطب)، وعنصر العلاقات الثنائية التي تجمع بين المتكلم والمستمع والتي يحددها اللوغوس في (الخطاب / الشكل).² ويكون بهذا قد اختزل عنصر المخاطب وهويقرباهميته وألحقه بالمتكلم، كما يكون قد فرغ اللوغوس (الخطاب) الأرسطي إلى عنصرين: السؤال والجواب.

ومن حيث الوظيفة يعتبر هذا التصور الجديد للوظيفة الحجاجية لدى مايير تجاوزا للفهم التقليدي (أرسطو وبرلمان) الذي ينحصر في الوظيفة التي تدور حول الاستمالة والإقناع، " وهو تصور يركز على العلاقة الثنائية بين (المتكلم والمستمع) باعتبارهما مكونا أساسيا في العملية الحجاجية، يهدف إلى تهية الفضاء الأصح لإثارة السؤال، وإذكاء المسألة القائمة باستمرار على الحجاج"،³ باعتباره مفاوضة لتقريب المسافة، وتكثيفها حسب مقاصد المقام أو السياق.

¹ - ينظر: محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 398.

² - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 205.

³ - المرجع نفسه، ص 205.

إن معرفة المتكلم بمواقف المخاطب أو رفضه أجوبته لا تكون إلا من باب التوقع الذي تحدده كذلك ظروف المقام بما فيها المسألة المطروحة، ولا يكون الاتفاق أو الاختلاف إلا في درجات متفاوتة في " القوة أو الضعف " .

" كما تتحدد العلاقة الحجاجية بمعرفة الطرفين لبعضهما ومعرفتهما بظروف المقام وإحاطتها بالموضوع، عن طريق المعارف الموسوعية والمرجعيات المشتركة أو المختلفة"¹، الشيء الذي يحول دون تحويل النقاش وطبيعة الحجاج إلى حجاج مغالطي أو نقاش تظليلي تمويه.

ينهض الجواب كذلك مثل السؤال بوظيفته الحجاجية القائمة على مفاوضة المسافة، فيبرز مواطن الاتفاق بين الطرفين أو يقلل من شأن تلك المختلف حولها، أما إذا كان هدف المتكلم تعميق المسافة بينه وبين مخاطبه، فيعمد كما رأينا ذلك في السؤال إلى تضخيم مواطن الاختلاف، وغض الطرف عن مواضع الاتفاق أو تأجيل النظر فيها.²

إن الحجاج معقود بركنين متضافرين؛ ركن البلاغة بمختلف وجوهها وخاصة المجاز، وركن العلاقات الخطابية القائمة على مبدأ أساسي هو إلغاء الاختلاف وتأكيد الاتفاق أو العكس. وعليه فما الحجاج إلا استغلال ما في الكلام من قوة وثناء؛ أي استغلال المصادر المرتبطة باللغة التي تراهن على الأسئلة والأجوبة لتشكيل القول - أي القول الحجاجي -، وعليه فالحجاج " هو إثارة سؤال بواسطة سؤال آخر يسمح بمعالجة أو تداول أشكال يكون موضوعا

¹ - المرجع نفسه، ص 206.

² - ينظر: محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 400.

للنقاش ويؤدي إلى نتائج معينة، ويهدف إلى تحقيق مكاسب غي مضمونة ¹، لذلك كان اللجوء إلى ما تتيحه اللغة من ضمانات هي أساليب حجاجية دون شك.

هذا ويبقى أنه " ليس دور الحجاج إلاّ استغلال ما في الكلام من طاقة و ثراء، إن الكلام وهو يطرح الأسئلة لا تغيب عنه الأجوبة (المرتقبة) وهذا مطمئن لكنه مخادع أيضا " ².

إن الكلام في نظر مايير هو جواب ما لم ينخرط في جدلية المسألة، فهو إذن من المعطيات المتاحة المجردة من الإشكالية، لأنّ الجواب حاضر باستمرار وما صياغة السؤال إلا وهم من أوهام المتكلم.

وهكذا تعد نظرية المسألة بحثا في الانتظارات المفترضة داخل الأقوال، وبحثا في الاختلافات الإشكالية التي تجسدها اللغة، فبين الانتظارات الافتراضية والاختلافات الإشكالية يأتي القول، ليعمل على تقريب الاختلاف والإجابة عن الانتظارات وفتح الباب أمام اختلافات وانتظارات أخرى هي غاية الخطاب الحجاجي.

وما استخدام اللغة التي تجسد تلك الانتظارات المفترضة، والاختلافات الإشكالية، ما هو إلا إثارة الانتباه حول سؤال مفترض، قد نكون متقنين حول مضمونه أو قد لا تكون، لكنه يشكل نقطة انطلاق التواصل بين الناس. ³

¹ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 205.

² - محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 400.

³ - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 195.

فالقول الحجاجي هو جزء من اللغة*، يبدأ في الوقت الذي يعطي فيه الإنسان لنفسه الحق في القول والفعل، ويهدف إلى إثارة سؤال بواسطة سؤال آخر، ويكون الإقناع فيه مجرد طرح للمشاكل التي يثيرها المتكلم والمستمع فيما بينهما.

هذا وتقوم كل الأقوال في العمليات التخاطبية على مبدأ افتراضي مؤسس على جواب وسؤال مفترضين، انطلاقاً من مجموعة من المقومات التي تحكم العمليات التواصلية، كالسياق والمعلومات الموسوعية والتجربة الذاتية والقدرات التفكيرية والتأويلية والتخييلية. كما أن الاختلاف القائم بين الأقوال مبدأ يهدف إلى طرح وتحقيق وظيفة القول، تواصلاً وإقناعاً، وتلك الاختلافات هي ميزة حقيقية للعمليات التخاطبية شكلاً ومضموناً.¹ كما ترتبط بالسياقات المقامية والثقافية التي تشكل محورا للاختلاف الإشكالي الذي تجسده اللغة من متكلم لآخر.

وعليه فإن نظرية المساءلة عند ماير قد ارتبطت بدراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمانيّه؛ إذ الوجه في ذلك أنه يوجد في معنى الجملة الحرفي إشارات حجاجية تؤدي ظهوره الضمني في ضوء ما يمليه المقام، وتلوح بنتيجة ما تكون مقنعة أو غي مقنعة.²

والعلاقة بين الضمني والصريح على صعيد لساني محض، مندرجة في إطار تداولية مدمجة تجمع بين لسانيات اللغة من جهة، وبين عناصر المقام من جهة أخرى.

* - ليست اللغة إلا التظاهر الحقيقي لذلك الاختلاف الإشكالي الذي تجيب عنه وتعالجه نظرية المساءلة لدى ماير، ويتمثل الاختلاف الإشكالي في الاستعمالات القولية؛ أي التمييز بين طبيعة قول وآخر (إنشاء، خبر، تأكيد، اعتراض) ليست نتيجة للاختلافات الشكلية أو المضمونية، ولكن هذا الاختلاف يظل قضية إشكالية داخل نظام اللغة كجزء من نظام العالم الإشكالي الذي يبني الفكر ويشغل الذهن البشري، من أجل قول وإيجاد شيء ما.

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 196.

² - ينظر: أحمد أنزكي، الحجاج في المناظرة - مقارنة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتى بن يونس -، ضمن مصنف: الحجاج مفهومه ومجالاته...، ج2، ص 1070.

ولعل قيام الحجاج على قسمين: صريح وضمني يجعله حتما ذا صبغة حوارية؛ أي مجالا تتجاوز فيه رحابة الأطراف. " ومرجع ذلك أن الكلام ينقسم عند التخاطب إلى صريح وضمني، يكون نصفه للمتكلم (وهو النصف المصرح به)، ونصفه للسامع (وهو النصف الضمني) " ¹.

وهذا القول من مفهوم الحجاج عند مايير ينازع فيه وينازعه فيه غيره كثر من دارسي الحجاج ومجالات مختلفة، كالضمني والصريح اللذان يبدو أنهما إعادة صياغة لما جاء عند ديكر. * أما ما يكاد يختص به مايير في صياغته لمفهوم الحجاج فهو ما تعلق بربط الحجاج بنظرية المساءلة.

¹ - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن...، ص 37.

* - ذاك أن ديكر وأوسكمبر انطلقا في تعريف الحجاج من حيث بنيته في اللغة ذاتها، وهو عندهما " تقديم المتكلم قولا ق1 (أو مجموعة أقوال) يفضي إلى التسليم بقول آخر ق2 (أو مجموعة أقوال أخرى) " . على أن هذا القول 1 يمثل حجة ينبغي أن تؤدي إلى ظهور قول 2 ويكون هذا الأخير قولا ضمنيا أو صريحا. ومن ثمة يعد الحجاج " إنجازا لعملين هما عمل التصريح بالحجة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواء أكانت النتيجة مصرحا بها أو ضمنية " لينظر: محسن بن عامر: البعد الحجاجي في مرزبان نامه لابن عربشاه، مرجع سابق، ص 291، 292.]

إن علاقة الضمني بالصريح هي على صعيد لساني محض، مندرج حسب برونديير في إطار تداولية مندمجة، تجمع بين لسانيات اللغة على نحو ما هو عند دي سوسير من ناحية، وبين عناصر القام بمعطياته من ناحية أخرى، وذلك وفق الرسم التالي:

المقام

الملفوظ

المكون اللغوي مدلول " حرفي "
أو " أولي " (= صريح)

مكون من خارج اللغة

دلالات التلفظ (الضمنية)

Alain Berrondonner, *Éléments de pragmatique linguistique*,]

. [éditions de Minuit, Paris, 1981, p11

فالحجة عنده ما هي إلا جواب أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر في ضوء المقام وبوحي منه، وما السؤال إلا عرقل أو مشكلة تتطلب حلاً، وحلها إنما يكمن في الإجابة عنها،¹ إجابة يفهم منها ضمناً أن تلك المشكلة موجودة بحيث لا يكون المتلقي في نهاية المطاف وهو يقرأ الحجج الصريحة أو الأجوبة في خطاب ما إلا طارح أسئلة يستتجها ضمناً من خلال تلك الأجوبة المقدّمة في النص مستعينا بالمعطيات التي يوفرها المقام.

وكما يكمن الضمني في صميم الظاهر يشف عنه المقام يكمن السؤال في صميم الجواب ويقع عليه المتلقي بمساعدة ذلك المقام، فالحجاج عند مايير هو إثارة الأسئلة وإثارة الأسئلة هي عنده الأساس الذي ينبني عليه الخطاب، " غير أن السؤال في نظرية مايير هذه لا يكون في شكل جملة - إذ هو يتجاوز نطاق اللغة - وإن كانت الجملة تمثل أفضل إطار يجسد السؤال ".²

ثمة طريقتين اثنتين لاستعمال اللغة كطريقة لحل إشكال ما: " فإما أن نعبر عنه لأن الحل يتوقف على غيرنا، وإما إن نقدم حلاً لغيرنا الذي تثير المسألة اهتمامه، أو الذي نشركه في أمر المسألة المعالجة ذاته".³ ويفهم من هذا أن اللغة في الحالة الأولى تمثل وسيلة فعل

إن هذا الرسم ذا الكل الشبيه بحرف " Y " اللاتيني قد اعتبره برونونير المحور الذي تدور عليه معظم الدراسات الدلالية الحديثة ودراسة أعمال الكلام وتحديد مفهوما " الاشتقاق اللاقولي " و " العمل التلمحي " [عبد الله صوله، الحجاج في القرآن ...، ص 37، 38].

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 38، 39. وكذلك ينظر: محسن بن عامر، البعد الحجاجي في مرزبان نامه لابن عريشاه " الباب الثالث نموذجاً " (مقال)، مجلة كلة الآداب واللغات - جامعة بسكرة، ع 10-11، جانفي - جوان 2012، ص 292.

² - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن ...، ص 39.

³ - ميشل مايير، اللغة والمنطق والحجاج، تر: محمد أسيداه، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته - دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة -، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ج2، ص 358.

مباشر، وفي الحالة الثانية وسيلة لفعل غير مباشر؛ يتم عبر الإيحاء بنتيجة السؤال المحلول والمتناول بواسطة القول المُنْظَر.

ونحن عندما لا نصرح بجل فإننا نعبر عن مشكل، ونلجأ إلى صورة غير تصريحية تخصص للمخاطب المشكل الذي نأمل أن يقوم هو بحله.

إن كثيرا من تراكيب خطاب البشير الإبراهيمي تستجيب في طريقة بنائها لمفهوم الحجاج منزلاً في إطار نظرية المساءلة هذه. وسنكتفي بإيراد بعض النماذج فقط من كتابات البشير الإبراهيمي، على سبيل التمثيل:

1/- أ- يقول البشير الإبراهيمي في ذكرى 8 ماي: "يوم مظلم الجوانب بالظلم، مطرّز الحواشي بالدماء المطلولة، مقشعر الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السماء بأرواح الشهداء؛ خلعت شمسها طبيعتها فلا حياة ولا نور، وخرج شهر طاعة الربيع فلا ثمر ولا نور، وغابت حقيقته عند الأقلام فلا تصوير ولا تدوين".¹

أثار المتكلم هنا - البشير الإبراهيمي - إشكالا حول حوادث 8 ماي 1945 مبدئياً رأيه فيه، بتصوير ذلك اليوم بشكل ينمي عن إجابة لسؤال غير صريح فحواه، كيف كان يوم 8 ماي 1945؟ وهذا السؤال ارتسم من خلال إجابة البشير الإبراهيمي فهو قد صرح بالجواب في ذكرى 8 ماي عن ذلك السؤال غير الصريح والذي اقتضاه سياق الكلام الذي يجب مراعاته أثناء التخاطب دائماً.

¹ - أثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 333.

وعليه بناء على ثنائية سؤال/ جواب نجد أن الإبراهيمي قد صرح بالجواب وأضمر الإشكال ذاك أن السياق يقتض بوجوده.

ب- يقول البشير الإبراهيمي في كلامه عن اتحاد المغرب العربي الكبير: "المغرب العربي وحدة لا تتجزأ، جمعها الإسلام على تعاليمه الروحية السامية وجمعتها العروبة على بيانها وآدابها..."¹.

يثير البشير الإبراهيمي هنا مشكلة وحدة المغرب العربي مبدئياً وجهة نظره في السؤال الذي تجيب هذه القضية عنه، هذا السؤال غير صريح لكنه يرتسم بطريقة غير مباشرة كمحور للكلام، فمن الواضح أن الأمر يتعلق بالسؤال عن طبيعة وحدة المغرب العربي، وهو: هل المغرب العربي وحدة واحدة ؟

ومنه نرى هنا أنه تم التصريح بالحل لا المشكل، وذلك بالنظر إلى التمييز (سؤال / جواب) الذي يتعين مراعاته.

2/- يقول البشير الإبراهيمي في كلامه عن العبادة في خطبة للعيد الأضحى: "وصحوا عباداتكم بمعرفة أحكامها وشروطها ومعرفة ما هو مشروع وما هو غير مشروع، فإن الله تعالى لا يقبل منكم إلا ما شرعه لكم على لسان نبيّه - صلى الله عليه وسلّم -".²

يدخل مثل هذا القول ضمن ما يصطلح عليه: المساءلة وفعل الكلام، ذلك إن الأقوال التي تأتي في صيغة الأمر أو النهي تخلق دائماً إشكالا تواصلية بين المتكلم والسامع، ويتمثل هذا الإشكال في الانعكاسية التي تحدثها التي تحدثها هذه الأقوال بالنسبة للمستمع، " والقول

¹ - المرجع نفسه، ج4، ص 301

² - المرجع السابق، ج1، ص 406.

الانعكاسي هو نتيجة لجواب يفترض رد فعل أو انفعال، وليس وسيلة مباشرة للطلب أو السؤال، ومن هنا ينبغي التمييز بين نوعين من الإجابات:

أ- الجواب الصريح الذي يكون مقيدا بسؤال صريح.

ب- الإجابة الإشكالية التي تترجم ما هو تساؤلي.¹

فسياق القول في النموذج أعلاه، هو: " صححوا عبادتكم " أو " أطلب منكم تصحيح عبادتكم ". وفي هذا يفصح المتكلم - الإبراهيمي - عن المشكل لعله يحظى له بكل، وهذا وجه لإجابة ينتظرها المتكلم قصد تحقيق رغبته [هي أن يرى الناس يصححون عبادتهم]، عن طريق قول من الدرجة الثانية، أرغب أو أود أن أراكم تصححون عبادتكم.

وهذا النوع من الأفعال الكلامية ليست في الأخير سوى إلى إجابات إشكالية مرتبطة بانعكاسية الأقوال التواصلية بين المتكلم والسامع، وتحدد انطلاقا من القدرة الاستيعابية التي يتمثلها المستمع من خلال إجابة إشكالية، " وقد اعتبر مايرر أفعال اللغة وجوها من الأجوبة تشبه إلى حد ما حججا وأدلة تخفي المعنى الحقيقي للقول ".²

فالتعبير عن المشكل القائم هنا يقتضي رؤية الناس وهي قائمة على تصحيح عبادتها بمعرفة أحكامها وشروطها، لعل ذلك من شأنه أن يحقق طاعة أمره " صححوا .. ". وإن كان لابد وأن يطرح الإشكال بشكل صريح بموجب مراعاة التمييز السابق ذاته سؤال/ جواب، إلا أنه لم يتم بطريقة تصريحية كأن يقول: كيف يصحح الناس عباداتهم ؟

¹ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 199.

² - المرجع السابق، ص 199.

إلا أن هذه العملية التي تنقل القول من الضمني إلى الحرفي (أي من الأمر إلى الخبر)، تتحقق في مستوى ثان، وتنتهي في العمق التساؤلي للقول، لتجعل من القول الضمني داخل الخطاب وعن طريقه، معنى لا يقال مباشرة؛ أي بصيغة غير مباشرة، فالإشكالية في الإجابة " أن نتساءل حول المعنى، يعني أن نستخرجه من سؤال ثان، يختلف عن المعنى الذي يظهره المتكلم في قوله الأول " ¹.

3/- يقول البشير الإبراهيمي متحدًا في مؤتمر عن فلسطين، سياق الكلام عن جمع المال من أجل ترميم المسجد الأقصى متسائلًا كيف يحقق ذلك تحرير فلسطين: " هذا الذي يقع في أذهان الناس حين تهدر شفاشق الخطباء بالترهيب من سقوط المسجد والترغيب في إقامته وبماذا؟ بالمال...؟ وأين المال...؟ هاتوا... وكم؟ هاهي الخرائط تنطق والأرقام تصدق أنها بعض مئات من آلاف الجنيهات ... " ².

لقد أفصح الإبراهيمي هنا بالإشكال متمثلاً في السؤال عن المال الذي يوهمون به الناس لترميم المسجد، فمن أين المال؟ وكم؟ واشغلهم عن القضية الأساس وهي تحرير المسجد الأقصى، فعملية التحرير أولى وأسبق واقعيًا ومنطقيًا من عملية الترميم، ولكن هذا النوع من الخطباء قد صرف أذهان الناس بما لا يمكنهم تحقيقه، وهو المال، فكم من المال يلزمهم؟ من أين لهم به؟ فصريح الإشكال هو كيف يحقق هذا المال الذي يُجمع لترميم المسجد النصر للقضية الفلسطينية؟ وما قيل في تحليلنا للمثال (2) ينطبق كذلك على هذا المثال (3).

¹ - المرجع نفسه، ص 199.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 299.

بناء على ما سلف يمكن أن نصوغ القانون العام الآتي: بما أن الوحدة الأساسية للغة هي الزوج سؤال/ جواب، فإن استعمال اللغة يحدد دائما تبعا له. ولعلّ نتائج هذا القانون قد أصبحت معروفة:

- 1/- كل استعمال للغة يمثل جوابا عن مشكل، حتى عندما يتعلق الأمر بالتعبير عنه.
- 2/- إذا كانت الغاية من كل حل هي عرض الجواب فإن المشكل الذي استوجبه لن يطرح البتة بعد أن يقترح له، لذلك فإن غاية اللغة لا تتمثل في التعبير عن المشاكل بل في التعبير عن حلولها. ويلزم عن هذا أن التقابل حل/ مشكل يطابق التطابق القائم بين المظهر والمضمّر. فالمشكل حتى عندما يعبر عنه لا يقال؛ إنه لا يصرح به، بل يطرح نفسه.
- 3/- إن الإجابة باللغة والالتجاء إلى المظهر للبت في أيما مشكل معناه بناء صورة ما، وهذه الصورة من حيث إنها لغة، هي ما يرتسم به التمييز بين المشاكل والحلول، لذلك فهي تقيم حاجزا بينهما بموجب الخط الفاصل بين المضمّر (الذي يكون عديم الصورة) والمظهر (الذي له صورة).

- 4/- عندما نجيب عن مشكل ما بالتعبير عنه، فإن هذا الحل الجزئي الذي يستدعي على نحو صريح حلا مكملا يرتسم صوريا باعتباره حلا جزئيا.¹
- يبقى أنه ليس دائما صورة السؤال / الجواب هي الطريقة الوحيدة لوسم التمييز مشكل / حل في سياقات الخطاب.

ولنأخذ النموذجين الآتين (4) و (5) من كتابات البشير الإبراهيمي، مثالا على ذلك:

¹ - ينظر: اللغة والمنطق والحجاج، ميشل مايير، تر: محمد أسيداه، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته ...، ج2، ص 359.

4/- يقول الإبراهيمي في سياق كلامه عن أسباب الرحلة التي قام بها للعديد من الأقطار الإسلامية والآسيوية منها خاصة: "الاتصال المباشر بعلماء الدين، هذه الطائفة التي تجمعنا بها نسبة ووصف، وتشاركنا في العهد الإلهي المأخوذ علينا جميعا، وفي حمل الأمانة، ولا ندري هل تشاركنا في الوفاء بذلك العهد، وأداء تلك الأمانة،..."¹

5/- جاء في سياق تعليق الإبراهيمي عن المؤتمر الإسلامي المنعقد بالقدس في 03 ديسمبر 1953 لبحث قضية فلسطين: "... أليست هذه الأعمال التي تزيد النفوس المضطربة بالشكوك اضطرابا، أليست هذه جريمة؟ "²

يشير المثالان (4) و (5) إلى شكل مغاير لنمط سؤال / جواب بوضوح، فالمثال (4) يعبر عن سؤال بصيغة تصريحية، وهي (أود أن أعرف ما إذا كان علماء الدين مازالوا على العهد في أداء الأمانة).

أما المثال (5) فيمثل إثباتا مستترا يقضي بأن الذي يعود عليه الضمير الظاهر قيد السؤال هو فعل إجرامي.

ومن خلال سياق الخطاب أو توجيهه يتبين أنّ هذا الكلام هو مجرد تقرير لحالة أم سؤال.

يشير المثالان (4) و (5) بوضوح إلى أن السؤال والجملة الاستفهامية لا يتطابقان ضرورة، وهذا من شأنه أن يدخلنا في جدل تحديد السؤال وفهمه ما هو؟ ذلك أن مفهوم السؤال يتجاوز الحقل اللساني الذي يمثل أحسن تمثيل، ونحن هنا نستدعي بديلا في اللحظة التي لا تخصص فيها ما يتعلق به الأمر على وجه التحديد.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 25.

² - المرجع نفسه، ج4، ص 300.

فإذا كان مجيء زيد غداً، على سبيل المثال، يطرح سؤالاً فإن ذلك يستلزم أن زيدا قد يأتي أو لا يأتي، " فطرح السؤال أو استدعاؤه تقريرياً يعني غالباً أن المتكلم يرغب في أن يعرف. وهنا تكمن الدلالة المعرفية المواقفة المرتبطة لا بما يطرح السؤال من حيث إنه كذلك، بل بواقع إثارته لأحد ما بطريقة أو بأخرى. إن المظهر المعرفي للاستفهام هو الذي يجعل عدداً من الأسئلة تقبل احتمالاً الترجمة بالصيغة [السؤال س هو سؤال عن معرفة ما إذا كان س]، وهذه الصيغة لا يمكن أن تكون كذلك إلا بالنظر إلى أن ما يوجد قيد السؤال غير محدد باعتباره سؤالاً خاصاً " وعليه، فإن التخصيص سيؤثر بالطبع في الصياغة المعرفية. وهذه نماذج من كتابات الإبراهيمي - رقم (6) و (7) - تمثيلاً لذلك:

6/- يقول الإبراهيمي في تبين مكانة القرآن في حياة الناس: " وإن هذا القرآن وسع الحياة الأبدية فبينها حتى فهمها الناس واعتقدوها وسعوا لها سعيها، فكيف لا يسع حياتكم هذه ... ؟"¹

يترجم هذا بـ [السؤال عن معرفة ما إذا كان القرآن يسع حياتكم].

7/- يقول الإبراهيمي في ردّه عن المبتدعة: " أتدرون عواقب ما صنعتكم بهذه الأمة؟ إنكم اقتلعتكم ببدعكم كل ما غرس الإسلام فيها من فضائل ... "²

تترجم بالصياغة المعرفية الآتية: [السؤال هو معرفة ما إذا كنتم تعرفون عواقب ما

صنعتكم ببدعكم لهذه الأمة].

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 163.

² - المرجع السابق، ج1، ص 120.

نلاحظ أنه تم تخصيص الأسئلة التي يختزل فيها مجموع الأجوبة إلى بديل واحد من خلال الأداة الاستهلامية " ما "، وهي أننا نقع عليها في الصياغة العامة للسؤال المنظور إليه من الزاوية المعرفية (" ما " يطرح سؤالاً س هو سؤال معرفة ما إذا كان س . فالجملية: " القرآن وسع الحياة الأبدية يطرح سؤالاً " تعادل: " السؤال هو معرفة ما إذا كان القرآن يسع حياتكم ").

فالسؤال باعتبار البديل هو ما يطرح سؤالاً، وأن ما يطرح سؤالاً يقبل التصريح به على نحو تقريرى، ويمكن القول " إن السؤال هو العائق أو الحرج أو ضرورة الاختيار؛ أي أنه دعوة إلى اتخاذ القرار . والببت في السؤال يتم بالإجابة عنه، وهذا يستلزم أنه لا وجود لسؤال دون جواب وأن الضرورة الداعية إلى السؤال التي يمثلها هذا الجواب تحدد اضطراراً سيرورة شاملة يحيل فيها أحدهما على الآخر ¹. إن السؤال، بما هو سيرورة للمساءلة، هو دينامية مسار يتجه نحو الحل.

إنه أن يكون خطاباً ما جوابياً واستشكالياً في طبيعته، لا يستلزم في شيء، أن ينبئ بالسؤال الذي يجيب عنه بمجرد ما يُنطق به جواباً عن السؤال الذي يزيحه من حيث إنه سؤال في ذاته، لهذا لا بد من ضرورة وجود وساطة يُستشكل عن طريقها ما يوجد خارج السؤال. وهكذا نكون إزاء اشتغال مفهومين: الإشكالي (في مقابل الاستشكالي) ووسيط انبثاقه. " إن ما هو إشكالي يتحقق فعلاً فيما هو استشكالي؛ بمعنى أن استشكل تقرير لم يكن إلا جواباً، يثير بالقوة سؤالاً، أمر يعود إلى السياق، فالسياق هو وسيط الاختلاف الاستشكالي، إنه ما به يتأسس بالفعل، وعلى نحو ملموس؛ أي واقعياً الاختلاف بين ما يطرح سؤالاً وما يقدم جواباً ².

¹ - اللغة والمنطق والحجاج، ميشل مايير، تر: محمد أسيداه، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته ...، ج2، ص 360.

² - المرجع السابق، ص 362.

إن توجيه الاختلاف الاستشكالي سياقيا يسمح لطرفي الخطاب بأن يكون يريا خلف جملة استهامية، مثلا، تقريرا، كما يريا العكس. والمثالان (4) و (5) أعلاه يشهدان على التوالي على ذلك. وبصفة عامة فإن الاختلاف الاستشكالي يؤشر عليه أكثر بواسطة الصورة عندما يكون السياق أقل اخبارا للسامع بقصد المتكلم، ويجب أن يؤشر عليه بشكل أقل بواسطة الصورة عندما يسمح السياق للسامع بتمييز مشاكل المتكلم عن الحلول، فالمخاطب الذي يعرف ما يراه المتكلم في س سيعرف أن (5) هي إثبات مستتر لهذا الرأي في س. وباختصار فإن (5) كما يمكن أن تعد طلبا حقيقيا لإفادة يمكن أن تعد عريضا أيضا.

ومهما يكن من أمر فإن السياق هو الوسيط الذي يتحقق عبره الاختلاف سؤال / جواب على مستوى الأجوبة التي يتم إنتاجها، إنه وسيط ضروري يوازن عملية منح الخطاب استقلالية عن المشاكل التي ولدته، ومن ثم فإن تشكيل الجواب في صورة من حيث إنه تجسيد لهذه الاستقلالية، يتم موازنته بواسطة السياق بنسبة معكوسة لوجهة نظر الإخبار.¹

وعليه فالسياق بالنسبة لمايير يتداخل مع القول بشكل متفاعل؛ إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فالقول يترج الاختلاف الإشكالي الذي يرتبط بالسياق، والسياق يعكس مضمون وشكل القول.

والسياق القولي عند مايير يختلف عن السياق العام أو السياق الخاص الذي يكون فقط عنصرا ضمن العناصر التواصلية كما هو الشأن لدى أصحاب النظريات التداولية.²

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 362.

² - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 200.

فإذا كان السياق يفتقر إلى المعلومات الضرورية، فالقول سيكون واضحاً، كما في قول الإبراهيمي الآتي (رقم 8):

8/- جاء هذا القول في سياق كلمة قالها عن وفد المؤتمر الإسلامي: " يا لله لهذه الأمة المسكينة! ... " ¹.

أي أنه تعبير عن التعجب، لذلك فإن السياق هنا يفرض إغناء القول بما يلئم المستمع كي يتحقق معنى القول.

أما إذا كان السياق غنيا بالمعلومات فإن القول سيتقبل درجات من الاختيار للوصول إلى المعنى، ويفسح المجال لطرح ومعالجة الاختلافات الإشكالية القائمة بين التساؤلات والإجابات المفترضة داخل السياق، كما في قول الإبراهيمي الآتي (رقم 9):

9/- هذا القول جاء في سياق الكلام عن أثر جمعية العلماء المسلمين في حضورها للمؤتمر الإسلامي: " وإنك لتسمع بعض الألسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة تردّد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟ كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم غول السياسة، وتقويت الفرصة علينا بمقل هذه الترهات. وكم أضاعت هذه الترهات على الغافلين من فرص ! " ².

وهذا سؤال استنكاري يمكن أن يحول إلى هل يجوز أو يحق للعالم أن يشارك في مؤتمر سياسي؟ وهذا بحث في موضوع جدلي وهو علاقة الدين ورجال الدين بالسياسة، ويبقى السياق هنا المؤشر إلى تعدد القراءات واستقطاب المعلومات المناسبة.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 264.

² - المرجع السابق، ج1، ص 258.

إن النتيجة اللازمة عن الوحدة الجوابية - الاستكشافية المؤسسة لخاصية الخطاب قد أصبحت واضحة، فعلى خاصية الخطاب أن تتضمن في ذاتها طبيعتها المزدوجة. ويبقى السؤال كيف يمكن الوصول إلى ذلك؟

إن النموذج الآتي (رقم 10) من كتابات البشير الإبراهيمي:

10/- والذي يقول فيه متكلماً عن أعمال ومواقف جمعية العلماء: " جمعية العلماء هي التي حققت للجزائري نسبة العربي الصحيح،... " ¹.

يبدو أن هذا النموذج يقدم مثالا عن الكيان الجوابي، وأنه لا يحوي أي عنصر استشكال. وهذا على عكس المثال (7). والواقع هو أن أيما قول يمكن أن يمنح نفسه للتفكيك على نحو استشكالي إذا اقتضت الضرورة لذلك. فالوصف (10) يحدد أن " جمعية العلماء " هي من تحدد " نسب العروبة " للجزائري، فـ " من " تحيل على نحو صريح على ما يوجد قيد السؤال في ما قيل، وتخصص من ثم المعنى الذي يجب أن يفهم من كلمة " جمعية العلماء ".

إن سيروية التفكيك الاستشكالي هذه، التي تكشف عن البنية الاستهلامية للتقرير، يمكن أن تتسحب على كل حدوده. أليست " جمعية العلماء " هي التي ارتبطت بها المقومات الثلاث: الجنس واللغة والوطن؟ كيف...؟ بماذا...؟ وهكذا دواليك إلى أن يتم إرضاء المتلقي ويفهم في النهاية ما كان يتعلق به السؤال؛ أي ما قيل.

وعلى هذا النحو نفسه يمكن أن نبرز البنية الجوابية للخطاب، بأن نحذف بالتحديد كل عبارة استهلامية ونستبدلها بتصريح أو قضية؛ فالمثال (7) يقول شيئاً ما؛ أي بالمناسبة أن

¹ - المرجع نفسه، ج3، ص 57.

المتكلم قيد السؤال (الذي نخصه باعتباره كذا وكذا) يطلب معرفة " ما إذا كانوا يعرفون عواقب ما صنعوا ببدهم ". أما المثال (2) فيقول دون أن يجزم بذلك إن المتكلم يريد من متلقي قول (2) " أن يصح عبادته ". وعندما نقول ذلك على نحو مُظْهِر وكما هو هذه المرة، فإننا لا نقول معنى (2) ومعنى (3) فقط، بل نحذف كذلك كل خاصية استفهامية؛ أي أننا ننتقل إلى مستوى ما لا يوضع موضع السؤال.

إن هذا التكافؤ الدلالي بين الاستشكالي والجوابي ينجم عن هذه الطبيعة المزدوجة لخاصية الخطاب، لذلك لا يمثل حذف الأدوات الاستفهامية بواسطة القواعد المنطقية غير المباشرة إلا إحالة خاصة في هذه الظاهرة، التي لا يمكن الإمساك بتلابيبها من دون اختزالها، بحصرها في بعض القواعد الأولية ذات الطبيعة المنطقية - الدلالية الخاصة التي يطرح معناها إشكالا أيضا.¹

يمثل الزوج سؤال - جواب الوحدة الأساسية للغة كما سبق وبيننا، ومن ثم فإن استعمال اللغة يحدد دائما تبعا لها، فالكلام يعني إثارة السؤال أو التصدي له ولو باسم الحل أو على صورته.

فالطرح المُضْمَر للسؤال يوجد في القول ما يوحي بدلالته، وبتوجيهه للسامع معناه أن " يطلب منه أن يبحث في وضع هذا الخطاب أو ذاك عن المعلومة، وأن يستعمله على هذا النحو

¹ - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 363.

أو ذاك لإعادة بناء المعنى الذي يرمي إليه المتكلم، وقد يبدو مدهشا إذا لم نقبل التصور الاستشكالي أن قولا معروضا باعتباره جوابا يطرح سؤالاً¹.

وما يجب لفت الانتباه إليه في هذا الصدد هو طبيعة التفاعل اللغوي، فالخطاب يثير السؤال أو استدعائه، أو يوحي به، أو يشير إليه، والمتلقي يتصرف تجاهه على نحو مزدوج، فعندما يقابل بالجواب يجب عليه بالضرورة أن يواجه السؤال.

وهذا يدخل ضمن ما يصطلح عليه بالواضح والضمني أو الحرفي والخفي في اللغة الحجاجية، ذاك أن لغة التخاطب داخل القول الحجاجي تعبر عن أسئلة خفية، فالقول الذي لا يثير أسئلة - أي لا يتجاوز ظاهر لفظه - لا يقيم علاقة حجاجية بين المتخاطبين، بغض النظر عن المعنى الذي يحمله ظاهر أم خفي، " لذلك فالواضح والضمني في الحجاج مرتبطان بما يتيحانه من إمكانات تساؤليه لإبراز الاختلاف الإشكالي، فالقول أو اللغة واستعمالاتها هي مصدر الاختلاف حول مضمون القضايا التي يتجادل الناس حولها لتأكيداها أو رفضها أو التشكيك فيها².

ولأن اللغة تسعى إلى تكثيف القول بما تنتجه من آليات وأدوات تجعل من الواضح والخفي أسئلة مختلفة ومتنوعة. والقول الآتي (رقم 11) من خطاب البشير الإبراهيمي يجسد تلك الآليات التكتيفية مستعملا الأدوات التي تسهم في تكثيف القول؛ أي تدعو إلى طرح أسئلة متنوعة انطلاقا من قول مكثف في ضوء ما هو خفي وظاهر من القول ومعنى القول.

¹ - اللغة والمنطق والحجاج، ميشل مايير، تر: محمد أسيداه، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته ...، ج2، ص 344.

² - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 207.

11/- يقول الإبراهيمي في سياق الكلام عن اعتقال العقبي: "... ومن الأثر ما يدخله سجن بربروس، ومن النتيجة أن يقال له بعد ستة أيام قضاها في السجن: أنت حر ولكن تحت الطلب؟..."¹.

فالجواب الأول " أنت حر " يسير في اتجاه القبول الاتفاق، ذاك أن العقبي بريء، بينما الجواب الثاني " لكن تحت الطلب " يسير في اتجاه الرفض والاختلاف - أي أن العقبي متهم - وهذا ما لا يتفق معه صاحب الخطاب.

إن القول هنا عن طريق توظيف " لكن " هو عبارة عن سؤال خفي يحول المعنى الواضح والمعنى الخفي إلى سؤال إشكالي، ويجعل المخاطب يقوم بتقدير الجواب الحقيقي أو المفترض في القول، وهو على نقيض ما يطرحه المتكلم، إن استعمال الأداة " لكن " يدل على الشك؛ أي تحقيق التغيير ليس إلا احتمالاً دون أن يكون حقيقة،² [إلا أثار الشك في جواب لسؤال خفي، هل كل من يتم اتهامه سيبراً ويكون حراً، أو هو السؤال حول الموضوع المتناول هل هو حر] والجواب هو دليل ممكن ومحتمل لمعالجة قضية التغيير، عن طرق إثارة أسئلة وإجابات أخرى.

ويعتبر ذاك الجواب كنموذج لسؤال مطروح، ويمكن أن يأخذ الجواب من السؤال الخفي عدة أوجه منها مثلاً:

- سيكون حراً إن ثبتت براءته.
- هو حر ولكن يريدون مضايقته فقط.

¹ - أثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 267.

² - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 207.

- إن لم تثبت الأدلة في حقه فهو أكيد حر.

كما أن هذا الجواب يستدعي عدة أسئلة خفية؛ أي أكثر من سؤال ومن ثمة تعدد أوجه الإجابة، من تلك الأسئلة مثلاً:

- هل هو حر؟ وهو سؤال رئيس.

- هل فكرة أنه حر أكيدة؟

- أيمن لعدم ثبوت التهم فيه أن يكون حراً؟ وهل هناك ما يمكن أن يقف ضد تحقيق حرته؟ وهكذا العديد من الأسئلة.

الحجاج والمجاز في ضوء نظرية المساءلة:

قدم مايير من خلال نظرية المساءلة مجموعة من الأسس ذات البعد الفلسفي التي تندرج في الإسهامات التنظيرية المعاصرة لأبعاد اللغة ووظائف الكلام، وهي " جهود تنظيرية في مجال البلاغة، تبقى متينة الاتصال بنظرية المعنى المرتبطة بالسؤال أشد الارتباط والسؤال المنفتح على الأجوبة المتعددة التي تتضافر المقاصد التداولية (ظروف إنجاز الخطاب) والتأويلية (علاقة السؤال بالجواب) والبلاغية الحجاجية أساساً في تحقيقه " ¹.

كما أحدثت دراسات مايير طفرة نوعية في تحليل الخطاب ومجال التواصل والإقناع، انطلاقاً من وجهة نظر فلسفية تعتمد البعد الافتراضي/ الانتظاري، وتستند إلى الاختلافات الإشكالية في التأويل والفهم. وتمكن مايير من إبراز المكونات الجديدة للخطاب الحجاجي البلاغي من خلال تصور جديد منفتح على العلوم الإنسانية الفلسفية بالخصوص.

¹ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 202. وينظر: محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 401.

وبعيدا عن الفهم التقليدي للحجاج يولي " مايير " أهمية كبرى للبلاغة وحدودها المجازية في عمليات التخاطب*، ذلك " لأن المجالات الإنسانية المختلفة والمتعددة تكثر فيها الآراء والأطروحات وتتمو فيها الاختلافات فتكون الفضاء المناسب لتقارع الحجج والأدلة، حيث تعمل على تأسيس فعل الحجاج وإغناؤه، فيصبح الحجاج ما تتيحه البلاغة من صور مجازية " ¹.

وانطلاقا من أن " القول الذي لا يثير أسئلة - أي القول الذي لا يتجاوز ظاهر لفظه - لا يقيم علاقة حجاجية بين المتخاطبين سواء كان المعنى الذي يحمله خفيا أو حرفيا" ²، لنا أن

* - هذا التصور الجديد للبلاغة المرتبط بنظرية المساءلة يوجد له موقعا مهما في التراث البلاغي العربي، خصوصا عند ابن المقفع حين يقول " البلاغة اسر جامع لمعاني تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإثارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، فإذا أعطيت لكل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحسد والعدو..." [المجاز والتمثيل، مجلة ألف، ص 11].

تكمن أهمية ما ذهب إليه ابن المقفع في تعريفه للبلاغة، كونه يجعل منها أداة للتعبير عن رفض الواقع، وهو مماثل لما نجده عن مايير في تعريفه للبلاغة أو المجاز، فهو عنده " يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره، وهو إلى ذلك طريق للتعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صورة من الإنسان مثلما يكون المجاز صورة عن الأسلوب " [Meyer.M, Questions de Rhétorique, P 98]

وتكمن الأهمية الثانية في ربط الحجاج بالبلاغة ربطا تساؤليا، وذلك على مستوى النطق، " حيث يقترن الاحتجاج بسياق الجواب والابتداء " [المجاز والتمثيل، مجلة ألف، ص 12]. وهو نفس المنطق الذي اتخذه مايير لتحقيق عملية الحجاج، فهو " يبدأ في الوقت الذي نعطي فيه الحق لأنفسنا في القول والفعل " [Meyer.M, Questions de Rhétorique , P 92].

إن الوصل بين البلاغة والحجاج عند ابن المقفع يقع في الوظيفة التي تؤديها الأقوال المتميزة بالتوتر والاستدلال بحيث تؤدي إلى الالتفات إلى ما يقوله المتكلم وتنفض إلى اعتقاده بما يجب من سياسة ذلك المقام، باعتقاد الآخر، وهي وظيفة يراها مايير ضرورية في القول لأنها تؤدي إلى نتيجة أو موقف يحمل الغير في الإقرار به اتجاه مشكل مطروح في سياق يوفر للمتخاطبين مواد إخبارية ضرورية للقيام بعملية الاستنتاج المتصلة بالتساؤل والإجابة راجع: [محمد علي الفارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 394].

¹ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 208.

² - المرجع السابق، ص 207.

نطرح التساؤل الإشكالي الآتي: إلى أي مدى تسهم الصورة البلاغية في جعل القول حجاجيا ذي إمكانات تساؤلية هائلة؟

اعتبر " مايير " الصورة البلاغية المجازية " قاذحة للخيال ومعبرة عن الهواء الإنسانية"¹ وأداة سانحة للتفكير والتأمل وفرصة لخلق الملاءمة بين ما يقوله وما يتحاور حوله الناس وما ينتظرونه،² وبناء على تلك الأسباب يعمد المخاطب إلى استخدام عبارات غير معتادة للتعبير عن الطريقة التي تدفعه إلى تصور الأشياء وتمثلها وإقناع الآخرين بها.

وهكذا يرهن مايير تحقيق الصورة البلاغية لدورها الحجاجي بالابتعاد عن الاستعمال العادي للغة الذي يكرر كل ما هو معطى وموجود مسبقا، ويلتجئ إلى مجموعة من المفاهيم المتعارضة، وهي عبارة عن ثنائيات متقابلة، يتشكل بها القول الحجاجي، ويحقق بها غاياته، وخصوصيته، منها: " الابتكار والخلق الذي يفتح الأفق أمام الاختلاف والتجديد، فينتقل بذلك الحجاج من النزوع الاستبدادي القاتل لطبيعة الإنسان الخلاقة، إلى الاتجاه نحو تعزيز قيام بدائل أخرى إضافية للحيلولة دون الوقوع في خطر الحقيقة المطلقة، لأن مجال الحجاج في الخطاب الطبيعي برمته إنما هو الممكن والمحتمل ".³

كما يخضع المستوى البلاغي بدوره لنظرية مايير العامة في المسألة، كون الصورة إذا ما طرحت في الخطاب فذاك يعني أن سؤالا طرح فيه، والتساؤل يستدعي بالضرورة جوابا إشكاليا يستقهم السامع ويدعوه للإجابة عن السؤال المطروح، وتتأتى الإجابة بتجاوز اللفظ الحامل،

¹ - محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 395.

² - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 208.

³ - عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني...، ص 287.

فالجواب سؤال في حد ذاته لأنه يحدد وجهها واحدا من الجواب وتبقى بقية الوجوه متعلقة بأسئلة جديدة تطرح.¹

وانطلاقا من هذا المبدأ التأسيسي العام المتصل في نهاية الأمر ببنية الفكر المسائل ووظيفته، وضّح مايير علاقة السؤال بالجواب ودورها في تأسيس الصورة البلاغية.

حيث أشار مايير إلى ما يلعبه المجاز من دور رئيسي في هذا المجال، فالمجاز عنده " يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره، وهو إلى ذلك طريقة التعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صورة من الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب ".² فيعتمد إلى استعمال عبارات غير معتادة، للتعبير عن الطريقة التي تدفع بها الأهواء إلى تصور الأشياء.

ونورد في هذا السياق نموذجا من خطاب البشير الإبراهيمي الذي تجسّد فيه ما ذهب إليه مايير فيما يتعلق بالصورة البلاغية، موضّحين من خلاله المبدأ الأساسي المتصل بالوجوه المجازية العديدة في خطاب البشير الإبراهيمي.

يقول البشير الإبراهيمي في رسالة بعث بها إلى الأستاذ أحمد توفيق المدني، إثر وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس: " أعتقد أن الراحل أخي العزيز لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس،... فلهذا بعثت أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض، بعد أن فاض،

¹ - ينظر: محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 396.

² - المرجع نفسه، ص 395.

ببقاء آثاره في الرياض، كما يعزى على مغيب الشمس بشفقها وعن ذبول غضارة الشباب ببقاء رونقها".¹ فقد شبه ابن باديس بالبحر لسعة علمه وعمق تفكيره.

فمن خلال النموذج لا ريب إنّ ظاهر اللفظ في هذه الجملة لا يفيد الحقيقة، فكل لفظ - حسب نظرية المسألة - يعبر جوابا عن سؤال مطروح أو مفترض. وعندما يسأل المخاطب عن مقصد المتكلم وعن سبب اقتران ابن باديس بالبحر؟ فالاختلاف القائم بين المسند والمسند إليه هو أصل هذا التساؤل ومصدره. ولكن السؤال لا يكون من الوجهة الدلالية العميقة إلا مسندا إليه (فهو موضوع) ويكون المسند هو الجواب الذي يحتوي على الأخبار، وربما احتوى المسند إليه وأعاد طرحه، ولكن لا يمكن أن يكون هناك تلفظ من غير " الموضوع ".

فكل عمل قولي يفترض وجود موضوع، ولكنه لا يفترض ولا يستوجب إخبارا، لذلك سمي المسند إليه في بعض الأحيان " المبتدأ "، وتكوّن هذه العلاقة بين المسند والمسند إليه أعمق مستوى دلالي في الخطاب. كما يعتمد ضمنيا - في هذه النظرية - على فرضية الإنشاء التي تجعل من كل قول قولا مسبوqa حرفيا أو ضمنيا بفعل لقول، أو أمر أو سؤال أو أحد الوجوه المتعلقة بها.²

وفيما يتعلق بتساؤل المخاطب عن مقصد المتكلم وعن سبب الاقتران القائم بين المسند والمسند إليه، المتسبب في الاختلاف فإنه " لا يكون الحل إلا في الجواب المفسر للتماهي الصوري (البلاغي) بين الطرفين ".³ ويؤكد مايير أن هذا التماهي البلاغي هو الفضاء

¹ - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 37.

² - ينظر: عبد الرزاق بئر، جدل حول الخطابة والحجاج، ص 97.

³ - محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 396.

الإشكالي الذي يواجهه المخاطب، ويعمل مايير على تعميق هذه الفكرة أكثر مشرعا لقراءة المجاز قراءة إشكالية.

ذلك بأن حركة الفكر عند انتظام المجاز تجمع حسب مايير بين ثلاثة مستويات: مستوى الإنسان المراد وصفه (ابن باديس)، ومستوى الشيء المادي - المشبه به - (البحر)، والمستوى المشترك (السعة والعمق)، لكن الانجاز البياني المكتوب أو المنطوق به يسكت عن الحلقة الوسطى وهي السعة والعمق هنا، ويفضي المجاز إلى تماه بلاغي بين (ابن باديس) و(البحر). " وهنا ينهض السؤال الباحث عن عوامل التماهي والاختلاف، وبهذا يقترن المبحث البلاغي لدى مايير بنظريته الفلسفية العامة، فهو يعتبر المجاز ممثلا للفكر في جوهر حركته الاستفهامية، وهو يتيح لكل فرد أن يضع حدا للسؤال المطروح متى شاء ذلك "؛¹ إذ المجاز يؤدي إلى الافتراض، والافتراض يؤول إلى جدل ونقاش وإلى تعارض خصب يترجمه الحجاج، على عكس " الحقيقة التي تؤدي إلى اليقين واليقين يؤول في النهاية إلى الدغمائية والوثوقية واليقينية التي تترجم تعصبا وربما عنفا " ².

إن تحليل مايير لظاهرة المساءلة المتصلة ببنية الوجوه البلاغية يتخلله تأكيد على ما تلعبه من دور حجاجي، مسائرا ما يقول به " برلمان " * من أن الوجوه البلاغية تهدف " إلى إبراز

¹ - المرجع السابق، ص 397.

² - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير...، ص 209.

* - يبقى مايير شديد الاتصال بنظرية ش. برلمان في البلاغة والحجاج، وهي نظرية تعيد الاعتبار للخطابة، فالبلاغة في مظهرها الخطابي لم يعد ينظر إليها من وجهة مساهمتها في الوصول إلى الحقيقة وإنما صار نفعها متصل بما تكشفه في الخطاب من مجالات يتقبلها العقل، تلك المجالات التي يطرح فيها الرأي وخلافه وتقارع فيها الحجة بالحجة بعيدا عن سلطة الضرورة الملزمة والمنطق الرياضي الصارم، هي مجالات ينمو فيها الحجاج ويتأسس. راجع: [محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال مايير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 401، 402].

حضور ما وتوكيده أو تلطيفه كما تحلو للعيان ما قد نفهمه أو نعتبره غير مفيد ¹، فالوجوه البلاغية عنده تكون ضربا من الزخرف إذا لم توظف في خدمة الحجاج، والحجاج عنده - أي برلمان - يعني اختيار الخطاب دون القوة المادية حتى وإن كان مجال ذلك الإغراء أو الإثارة الحاصلة عن الفعل.

وبهذا فهو يرى أن مجال الحجاج المفضل هو الخطابة التي يحددها مايبير تحديدا وظيفيا أساسيا، ف " الخطابة هي مفاوضة المسافة القائمة بين الأشخاص حول مسالة أو مشكل ما".² الشيء الذي يترتب عنه أن تنهض البلاغة لغويا بما يضمن تحديد أشكال الإقناع والتأثير بحسب مقصد المخاطب ومقتضيات المقام. كما تلعب فيه المسألة المتصلة ببنية الأقوال البلاغية دورا تحليليا داخل الحجاج، حيث تبر أهدافه وغاياته الإقناعية.

وتعتبر عملية المفاوضة (أو التفاوض) التي تدور بين المتخاطبين حول المسافة أساسا للقول الحجاجي، وهي الطريقة التي يتعامل بها الناس بما ينجر عنها من تقارب أو تنافر أو اتخاذ موقف، وكل ذلك يدخل في صلب موضوع الحجاج،³ بما يقتضي استعمال أساليب وآليات حجاجية متعددة لتقريب المسافة، وتؤدي إلى أساليب بلاغية معلومة، كما تحدد أيضا أشكال بروز المتخاطبين اللغوية، وتحدد طريقة تشخيصهم للقضايا المطروحة.

وتتمظهر المسافة الحجاجية في كل العلاقات التي تجمع بين البشر والتي اختزلها مايبير في لعبة الهوية والاختلاف، فالهوية " هي تقريب لما هو مشترك بين الناس من عواطف

¹ - Meyer.M, Questions de Rhétorique, P 28. نقلا عن: محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال مايبير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 397.

² - محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال مايبير، ضمن أهم نظريات الحجاج...، ص 397.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 398.

وأساليب؛ أي تقريب للمسافة بينهم، أما الاختلاف فيتجسد في أشكال التعارض والتباين بين الناس، ويتجسد في السلطة والإقصاء الذي يمارسه فعل الاختلاف¹؛ أي توسيع المسافة.

لكن الإشكال الأساسي في لعبة الهوية والاختلاف يرجع إلى اختلاف الناس حول نفس الهوية الجماعية التي تقاسموها، وهكذا تغدو الهوية اختلافاً والاختلاف هوية في لعبة الاقتراب والابتعاد الممكنة، لعبة الاتفاق والإقصاء، "ومن هنا يكون سعي الحجاج في آخر المطاف إلى خلق هوية جديدة؛ أي إلى تحقيق الإقناع... والإقناع هو انتصار يمر عبره المتكلم والمستمع من الاختلاف إلى الاختلاف المؤكد".²

إن الحجاج حول المسافة يعبر عن المجال الممكن أو المحتمل لحل ومعالجة تحديات الواقع، حيث يكمن الإقناع أو الاستمالة في خلق متخيل جديد، يستدعي المتخاطبين إلى استعارة هوية جديدة.

ومنه يكمن الإشكال الحقيقي في الحجاج حول المسافة في تأكيد الهوية أو العثور عليها، لذلك يقدم كل من المتكلم أو المخاطب في أقوالهم إمكانات الرفض أو درجات القبول، وهما عنصران يسمحان للمتخاطبين بالتملص من الاختلاف المعطى، والانطلاق نحو البحث عن الاختلاف الجديد المفترض وتأكيد الهوية المفترضة الجديدة.³

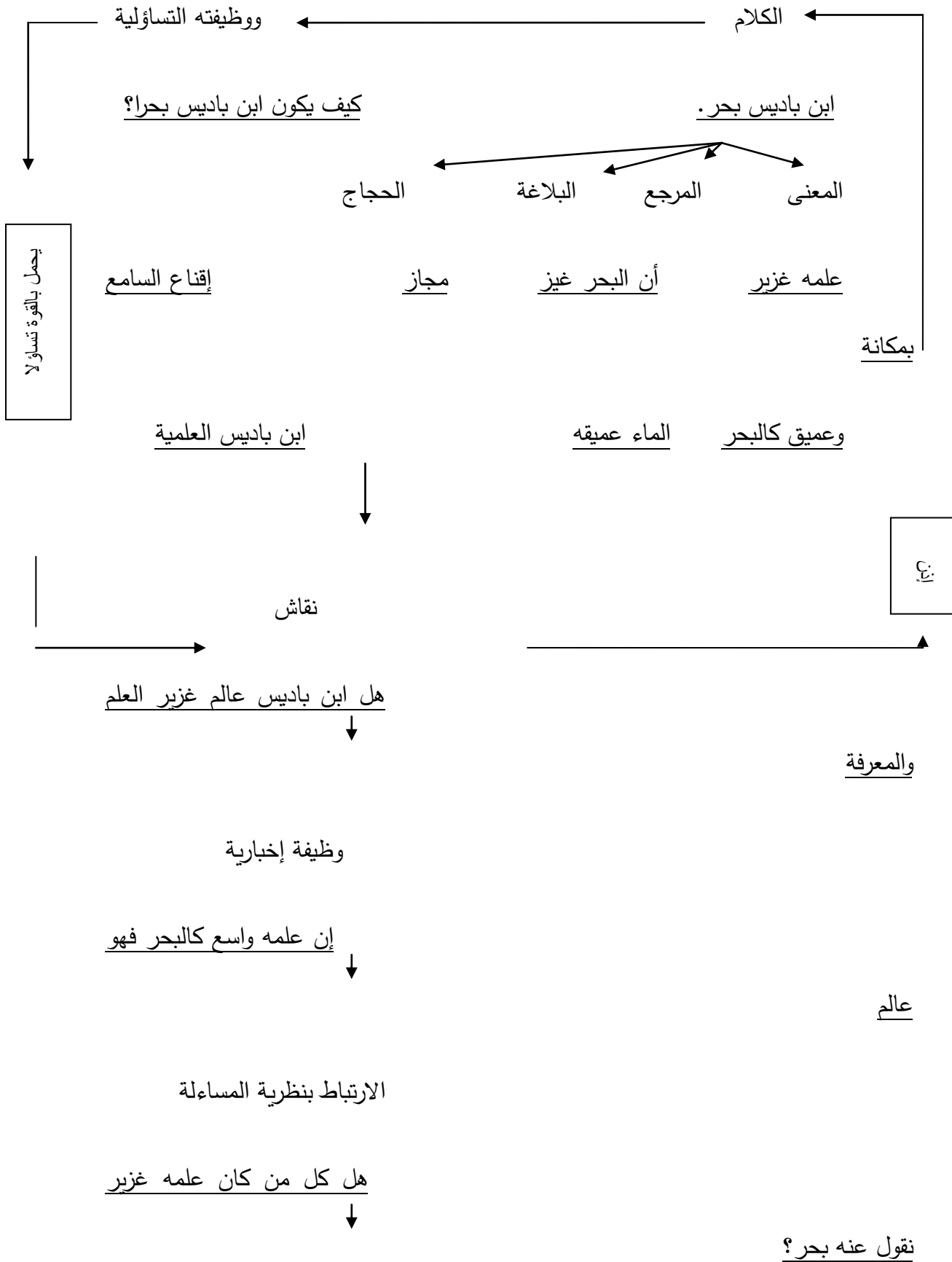
ويمكن إجمال ما تعلق بالصورة البلاغية في ضوء نظرية المساءلة متضمنا المثال

السابق، ضمن الشكل الآتي:

¹ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل بغير...، ص 204.

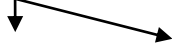
² - المرجع نفسه، ص 205

³ - ينظر المرجع نفسه، 205.



نتيجة أو موقف

كل غزير العلم بحر



سؤال (مصرح به) / جواب (ضمني = إجابات

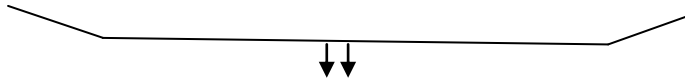
(متعددة)

من يمكن أن نصفه بالبحر؟ * غزير العلم

*كثير المال

* كثير الجود

والعطاء



مرتبط بالبلاغة أو مفاوضة المسافة

2-2- الاستعارة الحجاجية في كتابات الإبراهيمي:

تؤدي الاستعارة في عموماً إلى الحجاج، وسنحاول الانطلاق منها إلى ما حولها؛ أي السياق، لبيان مدى تأثيرها وحجاجيتها وقوتها في النص الذي وُظِّفَتْ فيه بوصفها مجازاً. وحين نتحدث عن استعارة حجاجية، " لأنها تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم بقصد توجيه المتلقي إلى وجهة للخطاب محددة، ومن ثم تحقيق أهدافه الحجاجية " ¹.

إن محسناً أسلوبياً ما لهو حجاجياً إذا كان استعماله وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر، يبدو معتاداً في علاقته بالحال الجديدة المقترحة، وعلى العكس من ذلك، فإذا لم ينتج عن

¹ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 267.

ذلك الخطاب استمالة، فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة؛ أي باعتباره محسن أسلوب، ويعود ذلك إلى تقصيره في أداء دور الإقناع.¹

والاستعارة ذات قوة حجاجية واكتشافية لا يستهان بها في الخطابات غير البرهانية، شأنها شأن جميع الحجج التي تسهم في بنية الواقع، كالمثال. يذهب بيرلمان إلى أن " أي تصور للاستعارة لا يلقي الضوء على أهميتها في الحجاج لا يمكن أن يحظى بقبولنا، إلا أننا نعتقد أن دور الاستعارة سيتضح أكثر بربطه بنظرية التناسب الحجاجي [...] إننا لا نستطيع في هذه اللحظة وصف الاستعارة غلا بتصورها على الأقل من وجهة نظر حجاجية، باعتبارها تناسبا مكتفا ناتجا عن ذوبان عنصر المستعار منه في المستعار له "².

من الواضح إذن أن الاستعارة - في تصور بيرلمان - ذات وظيفة حجاجية في المقام الأول، وبخاصة إذا كانت من النوع الذي يقوم على التناسب، لأنه يتميز بقيمة معرفية واكتشافية، ويتمتع بقدرة إبداعية أقوى من الاستعارة البسيطة غير التناسبية. ولعل الفاعلية الحجاجية للاستعارة تؤول إلى الأسباب الآتية:

1/- أن السمة الجامعة بين المستعار له والمستعار منه يتم انتقاؤه وتجريدها من بين عدد من السمات التي تشكل معها دلالة المستعار منه. وهذا التجريد يجعل من السمة المهيمنة في المستعار منه نحو " الشجاعة " في الاستعمال المجازي لكلمة " أسد " بارزة ولافتة للنظر، وترسم في الذاكرة لأنها غير مقترنة بالسمات الدلالية الأخرى غير المقصودة.³

¹ - ينظر: محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وغربية وعربية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2005، ص 457، 458.

² - Traité de l'argumentation, p 535. نقلا عن: عبد العزيز لحويديق، نظريات الاستعارة في البلاغة العربية من أرسطو إلى لايفوف ومارك جونسون، كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015، ص 240، 241.

³ - ينظر: ميشال لوغين، الاستعارة والحجاج (مقال)، تر: الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، السنة الثانية، ع4 ماي 1991، ص 86. نقلا عن: عبد العزيز لحويديق، نظريات الاستعارة في البلاغة العربية...، ص 244.

2/- البعد القيمي للسمة البارزة في المستعار منه: فسمة الشجاعة بالنسبة للأسد، سمة قيمية صادرة عن تمثل الناس في ثقافة ما لهذا الحيوان، " فالصورة النابعة في ثقافة معينة من أحضان التراث الشعبي والفلكلور والنتاج القصصي أو التعليمي العام، هي التي تزودنا بالسمات القيمة أكثر مما يزودنا بها ما للحيوانات من محاسن وعيوب حقيقية " ¹.

وبهذا يتبين أن البعد الحجاجي للاستعارة يقتضي أن يكون وجه الشبه " جليا بنفسه، أو معروفا سائرا بين الأقوام، وإلا خرجت الاستعارة عن كونها استعارة ودخلت في باب التعمية والإلغاز " ² فالأساس في الاستعارة الحجاجية هو الوضوح الذي لا يتحقق إلا إذا كان الشبه بينا بين المستعار منه والمستعار له.

وبناء على ما سبق يتجلى أن الفاعلية الحجاجية للاستعارة تتأتى من كون الجامع بين طرفيها يكتسي قيمته من اعتماده على العرف والعادة وسنن الناس وتقاليدها في إدراك الواقع والتعبير عنه. ³

3/- إذا كان المستمع يطمئن من جهة إلى المعاني التي تعتمد على رؤية الناس للأشياء وعاداتهم في التغيير، فإنه يقتنع من جهة ثانية، بكل ما يسهم في إنتاجه ويتطلب منه إجهاد العقل في تحديده. فالدور الحجاجي للاستعارة يتأتى من دفعها المستمع إلى الإسهام في إنتاج الجزء الضمني من المعنى انطلاقا من الجزء المصرح به في الاستعارة. ويعد هذا الإنتاج الدلالي الذي يتضمن حكم قيمة مقبولا من لدن المستمع غير قابل للدحض والاعتراض لأنه ثمرة تأويل ذاتي. ⁴ فالقيمة الحجاجية للاستعارة تتجلى في كون حكم القيمة تتخلف في كونها مصرحا

¹ - ينظر: ميشال لوغين، الاستعارة والحجاج، 88. نقلا عن: المرجع نفسه، ص 244، 245.

² - السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وشرح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص388.

³ - ينظر: عبد العزيز لحويديق، نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية...، ص 246.

⁴ - ينظر: المرجع السابق، ص 246.

بها من قبل المتكلم، أو أنها مستنتجة من قبل المستمع، فهو ثمرة تأويل ذلك القول. ومعلوم أن دحض ما يعرضه عليك مخاطبك على وجه التصريح لأيسر من دحض ما تستنتجه أنت بنفسك بواسطة مجهودك التأويلي*. ذلك أن "طي الصفات المشتركة قد تكون أدعى لقبول المتوالية القياسية من لدن المستمع مما لو ذكرت صراحة"¹.

وتأسيسا على ما سبق يرفض بيرلمان المنظور التصوير للاستعارة، لأنه لا ينظر إلى الاستعارة من الزاوية الحجاجية، وإنما ينظر لها - أي المنظور التصويري - من زاوية شعرية لا ترى في الاستعارة إلا الجانب الزخرفي القائم على نقل المعاني المجردة إلى معاني محسوسة. ونخلص فيما يتعلق بالاستعارة إلى:

- الاستعارة بنوعيتها التصريحية والمكنية تؤسس حجاجا، وهي طاقته التي تمنحه قوة ووقعا في النفس والذهن.

* - لعل هذه الطريقة الحجاجية في تقديم المعاني هو ما سماه الفخر الرازي الأسرار اللطيفة، ويقصد بها أن النفس إذا عرفت الشيء من وجه دون وجه، فإن القدر المشعور به من بعض الوجوه يشوقها إلى تحصيل ما لم تكن تعلم. فنقع لها بسبب ذلك التحصيل لذة، وبسبب ذلك الامتناع ألم لأن "الشوق يفيد حصول آلام ولذات متوالية متعاقبة، لأنه بقدر ما يصل يلتذ، وبقدر ما يمتنع وصوله يتألم، والشعور باللذة حال زوال الألم يوجب مزيد الالتذاد والابتهاج والسرور" [الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، ط2، (د ت)، ج1، 1949]. في حين أن النفس إذا أحاطت بالشيء من جميع الوجوه لم يبق لها شوق له أصلا، لأن تحصيل الحاصل ضرب من العبث، كما أنها إذا امتنع عليها معرفة الشيء من جميع الوجوه لم يحصل لها شوق إليه، ومن ثم كان الجزء الذي يتوصل إليه القارئ بنفسه أقدر على الإقناع وأمكن في النفس، ذلك أن "الابهام يوجب ألم النفس لجهلها له، والتفسير يوجب لذتها، واللذة بعد الألم لأقوى منها ابتداء، وهذا معلوم بالوجدان". [ابن علي الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تح: عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص153]. ذلك أنه "من المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشفاق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف". [عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991، ص 139].

¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص 108.

- تكمن حاجية الاستعارة في العلاقة التي تقيمها بين " المستعار منه " و " المستعار له".

- تؤسس الاستعارة حجاجا عميقا مكثفا، يُكشف من الصياغة ومقصد المتكلم.¹
وعموما فالاستعارة شكل لفظي يؤدي وظائف حجاجية ونفسية، وينظر إلى أثرها في النفس والذهن في علاقتها بطريقة اشتغالها داخل النص، وفي علاقتها بالشروط التداولية التي يفرضها السياق.² وتكتب الاستعارة تداوليتها من التأثير الذي تحدثه في المتلقي في سياقات معينة، فهي تقضي بالمتلقي إلى الوعي والحصول على التجربة المعدلة للسلوك والمحاولة من الانفعال إلى الفعل.³ إذ ليست الاستعارة مسألة تخص اللغة فحسب؛ بل هي مرتبطة بالفكر والعقل، فلا يمكن النظر إليها من منظور المقاربة اللغوية فحسب، معتبرينها مجرد تعابير لغوية خالصة.⁴

وسنعمل على كشف - من خلال خطاب الإبراهيمي - ما تمت ممارسته من خلال الاستعارة وأنواعها إيضاحية، تأثيرية، وإقناعية، وسيتم التحليل وفق ما تلقى الاستعارة من حجاج على المتلقي.

وكثيرة هي الأمور المعنوية التي تم إيضاحها بالصورة المحسوسة في خطابات الإبراهيمي، لتصبح شديدة التأثير والأثر في المتلقي، وغالبا ما يتم هذا بتوظيف القرب التناسبي لكي يحدث التأثير والإقناع، ونقصد بذلك القرب هنا، هو قرب المعنى بين المستعار منه

¹ - ينظر: عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية، ص 287، 288.

² - ينظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 261.

³ - ينظر: محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها تقريبا تداولي للمصطلح البلاغي، عالم الفكر، الكويت، مج 28، ع3، 2000، ص 41، 42.

⁴ - ينظر: خليل براءة وعبد المجيد جحفة، الاستعارة والمعرفة، منشورات المختبرات - مختبر اللسانيات والتواصل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك - الدار البيضاء، ط1، 2011، ص 24.

والمستعار له. وبذلك تتولد " قوة إقناعية في النص عن طريق الاستعارة، فتكون وسيلة من وسائل التغيير، لأنها ستصبح جزءا من النسق الذهني أو الفكري عند المتلقي ضمن المعطى السياقي، وبهذا ستنتقل من فضاء اللغة إلى فضاء الفكر، بعملية القرب الذي ينتج قوة في التأثير¹. وإن عملية الإقناع في الاستعارة تتم جراء تدخل المستعار منه في المستعار له ضمن عملية العبور هذه.

جاءت أكثر الاستعارات الحجاجية في خطابات الإبراهيمي في صورة حسية، لأن الغرض منها ليس التصوير الزخرفة بقدر ما هو تحفيز الذهن والتأثير فيه وتغيير سلوكه. وضمن ما ذكر سابقا تم توظيف الاستعارة حجاجيا في كتابات الإبراهيمي، ضمن مقصدية توصيل الخطاب بصورة مؤثرة، كما في قوله:

" لو أن المسيحية كانت تسير برشد وبصيرة، وتجري على شيء من بقايا هدي المسيح، لاتخذت من الإسلام صديق لا عدواً، وحليفا لا منافذا، ولو كانت على شيء من الوفاء وحفظ الجميل لذكرت له مواقفه في الإبقاء عليها"².

وقوله: "تلاقى العقائد الصريحة والقواعد الصحيحة على إنارة غسق الأرض بإشراق السماء، فظلّ الإسلام الكون بعدله وسماحته..."³.

إذ أثر الخطاب القول الاستعاري الحجاجي على القول الحقيقي؛ لكي يكون الإحساس بالفكرة مؤثرا مقنعا وأكمل في النفس، لأن تصوير توجه المسيحية على أنه إنسان يمشي ويعي، بشكل استعاري أقرب للفهم على حد كلمة (تسير / بصيرة / وفيه...). وتقديم صورة حسية في

¹ - مثني كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي - تنظير وتطبيق على السور المكية -، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015، ص 183.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 127.

³ - المرجع السابق، ج3، ص 137.

قالب مادي، فالعقيدة أمر معنوي ترجمها إلى نور حقيقي، ليكشف ظلام الأرض بنور القرآن السماوي، ومنه قد بسط الدين نفوذه بعدله وسماحته.

على أن التناسب مؤكد في المثالين، فهو حاصل بين تجسد المسيحية وكيونيتها وتشكلها في هيئة إنسان يمشي، وكذا التناسب بين العقيدة والنور والإضاءة، مما عمق البعد الإقناعي في سياق النص، وبهذا تم الانتقال من حقل اللفظ الاستعاري إلى حقل المعنى المقنع المؤثر في النفس، بغية الاتعاض وتغيير السلوك، إذ قوت الاستعارة الثانية الأولى المتعلقة بالمسيحية، مما ولد حجاجا للمتلقي بواسطة " فكرة مركبة لا بطريق التحليل أو التجريد، بل بطريق الإحساس المباشر "¹ بالسير والتبصر والوفاء فجعلها شاخصة في الذهن مقنعا في حتمية وقوعها.

إن غاية الحجاج تتضح من خلال توظيف الاستعارة كصورة جمالية في مقام الأداء الإقناعي التأثيري، فهدف الحجاج هو العمل على تحديد دور كل بنية في الخطاب الحجاجي بحيث تتجانس بعضها مع البعض الآخر مع محاولة لتقنين العلاقة بين كل من المقدمات والنتائج، من خلال دمج العلاقة الإسنادية وتحويلها من الواقع الجمالي إلى الواقع الحجاجي.

لقد وظف الإبراهيمي في كثير السياقات الاستعارة توظيفا حجاجيا، دعم به وثبت ما كان يقصده ويرمي إليه من خلال خطاباته من توجيه وإقناع للمتلقين لخطاباته على اختلاف أنواعهم ومشاربهم.

وحافظ الإبراهيمي على الأهمية التي تقدمها الاستعارة الحجاجية، الكامنة في المضمون الدلالي الذي تحمله إلى المخاطب، " بغض النظر عن مستواها غير الحقيقي بغية بناء هوية

¹ - المجاز وأثره في الدرس اللغوي، ص 107. نقلا عن : مثني كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، ص 184.

إقناعية لما تحمله أكثر من بنائها لهذه الهوية، عن طريق الحقيقة على أنها تنهل من الحقيقة المستعار منه ¹، وإعادة توصيفه وتشخيصه ضمن تصورات المرسل.

2/- تداولية الخطاب الحجاجي في كتابات الإبراهيمي:

يقوم الناقد أو الدارس في المقاربة التداولية أثناء التعامل مع النص الأدبي باستخلاص الأفعال الكلامية أو الجمل الإنشائية أو الخبرية، وتصنيفها إلى الأفعال القضوية، والأفعال الإنجازية الخبرية، والأفعال السياقية، وتصنيف الجمل حسب سياقها ومقامها الوظيفي والتداولي والمقصدي.

ومن جهة أخرى ترى المقاربة التداولية والوظيفية بأن النص أو الخطاب استلزام حوارى وإنجازي وهنا نتحدث بطبيعة الحال عن الدلالات الصريحة والضمنية.

فالاستلزام الحوارى يتعلق بالدلالات البلاغية الضمنية التي يستلزمها السياق الكلامي. ومن ثم، يرتبط الاستلزام الحوارى بنظرية الأفعال كما هو عند أوستين وسورل؛ أي ينتقل الكلام من نطاق حرفي وقضوي مباشر إلى معنى حوارى استلزامى غير مباشر، ويتحكم فيه المقام أو السياق أو التداوليين.²

2-1/- الاشتغال الحجاجي لأفعال الكلام في كتابات الإبراهيمي:

¹ - مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، ص 186.
² - ينظر: جميل حمدان، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2014، ص 96.

إن ظهور فكرة الحجاج كان من داخل حقل الأفعال الكلامية، وذلك لما قدّم " أوستين " كتابه " نظرية الأفعال اللغوية العامة "، حاول فيه ربط اللغة بالاستعمال أو الانجاز (الكلام بالفعل).

تذهب " آن روبول " إلى أن " أوستين " يميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية: " العمل الأول: وهو العمل القولي، وهو العمل الذي يتحقق ما عن نتلفظ بشيء ما. أما العمل الثاني: العمل المتضمن في القول، وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئاً ما. وأما العمل الثالث: فهو عمل التأثير بالقول، وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيء ما ¹.

يؤكد ذلك على حقيقة مفادها أن الكلام يتضمن فعلاً حجاجياً، ويكون ناتجاً عن العلاقة التلازمية أو الاقتضائية بين أفعال الكلام، فالفعل الأول فعل الكلام، والثاني قوة فعل الكلام الذي يتبع الأول، ولكنه يكتسب قوته من الإثباتات التي يحتويها القول والتي تعتبر حجة، والثالث لازم فعل الكلام، وهو الأثر الناتج عن المراحل السابقة.

هذا يقودنا إلى استنتاج مهم مفاده أن الكلام مبني على أساس الحجاج، لذلك يمكن مقابلة الأفعال اللغوية ببناء منطقي تحدد ملامحه من خلال المقدمة أو العرض أو الإثباتات ثم النتيجة، وبالتالي يعكس هذا التسلسل رؤية حجاجية تداولية تنمهي في بنية القول.

والحجاج يستند إلى الأفعال الكلامية لتحقيق التأثير على المتلقي سواء أكان في سلوكه أو معتقده وفق ما يقتضيه الموقف الكلامي، لكن هذه الفعال تكتسب إضافات اجتماعية لها قواعدها ومعاييرها ضمن إطار العلاقة بين المتشاركين في الخطاب، هذه المعايير هي الكفيلة

¹ - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2003 ص 31، 32.

بأن تضمن نجاح أو إخفاق هذه الملفوظات، ليحكم عليها بالصدق أو الكذب، وبالتالي تتجاوز اللغة مرحلة التعبير لتصير نشاطا اجتماعيا تفاعليا. فاللغة ذات بنية حجاجية خاصة إذا اقترنت بغرض التأثير، والإنسان يفكر دائما بشكل تداولي وهو معروف بأنه إطار متغير.

ويرفض التصور التداولي اعتبار اللغة مجرد وسيلة لتمثيل الواقع، بل يؤكد بأنها جهاز يمكن من إنجاز أفعال من نمط معينك الأمر، النهي، الاستفهام، النصيح، الشكر، التهنية، الإنذار، الوعد، الوعيد، التعجب، التهديد... وغيرها من الأفعال الكلامية العديدة والمتنوعة¹.

فالأقوال المنتجة في حياتنا اليومية يتنازعها جانبان: جانب لغوي، وجانب فعلي إنجازي، فهي أقوال وأفعال، أو هي أقوال يمتزج فيها القول بالفعل، فهب تهدف إلى تحقيق فعل معين يروم تغيير الواقع².

هذا وانطلق "سورل" من نظرية الأفعال التي قال بها "أوستين" وعمل على تطوير مفاهيمها وتنظيم أفكارها، وكان ذلك في كتابه الموسوم بـ "أفعال اللغة"، فقد أضاف مبدأ سماء مبدأ التعبيرية، ومعناه أن "المتكلم عندما يريد التعبير عن دلالة ما، فهناك تعبير مناسب أو صيغة صحيحة حاملة لهذه الدلالة"³.

ويذهب "سورل" إلى أن تكلم لغة ما، هو تبني شكل من أشكال السلوك، محكوم بقواعد، وهذه القواعد على درجة عالية من التعقيد، ومعنى هذا أن استعمال اللغة أو التكلم هو

¹ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 118.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 119، 120.

³ - Introduction à la linguistique coterporaine, Moeschler et A.Auchlin, Ibid, p 138.

نقلا عن: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني...، ص 159.

سلوك معقد مقصود، وأنه يتمثل في إنجاز أفعال لغوية وفق القواعد التي تحكم استعمال العناصر اللغوية.

كما ميّز سورل داخل الملفوظ بين (واسم المحتوى القضوي) و (واسم القوة الإنجازية)، ففي الملفوظ " أعد بأن احضر غدا " وهو ملفوظ ذو قوة إنجازية ظاهرة، يكون واسم المحتوى القضوي فيه هو " احضر غدا "، وواسم القوة الإنجازية هو " أعدك "، بمعنى أن الإسناد الأصلي يمثل واسم قوة القول، ويمثل واسم الإسناد الفرعي واسم المحتوى القضوي¹. وينطبق الأمر نفسه على الملفوظات المضمرة، فهي عند " سورل " مكافئة للملفوظات ظاهرة الإنجاز.

ومجمل القول في نظرية أفعال الكلام*، بالشكل الذي أسسها عليها " أوستين " وطورها " سورل " أحدثت طفرة في حقل التداوليات، خاصة فيما يتعلق بالمقاصد التواصلية، حيث تم الانتقال من المعاني بوصفها مجرد دلالات ومضامين لغوية، إلى اعتبارها إنجازات وأغراض تواصلية تهدف إلى صياغة أفعال ومواقف اجتماعية أو مؤسسية أو فردية بالكلمات، والتأثير

¹ - ينظر: آن ربول و جاك موشلر، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 68.

* - غير أن ما نلاحظه بصدد هذه النظرية بمستوياتها وشرائطها وقواعدها المختلفة، هو أن أصحابها غلبت عليهم الاشتغال بالأفعال الكلامية البسيطة، ولم يشغلوا إلا لَمَما بالمتواليات من الأفعال الكلامية؛ أي " بالأفعال الكلامية المركبة "، وهذا بالذات ما أراد " فان إيميرن " و " خروتندورست " تفاديه، فقاما بتوسيع هذه النظرية حتى تشمل الأفعال اللغوية المركبة، فضلا عن الأفعال اللغوية البسيطة.

وقد مكن هذا التوسع لنظرية الأفعال الكلامية من إدراج " الحجاج " في جملة الفعال اللغوية، فالحجاج عند " فان إيميرن " و " خروتندورست " هو عبارة عن " فعل تكلمي لغوي مركب ". ومعنى ذلك أن الحجة فعل تكلمي لغوي مؤلف من أفعال تكلمية فرعية وموجهة، إما إلى إثبات أو إلى إبطال دعوى معينة، وأخذا بمبدأ " سورل " في تحديد شروط أداء الفعل الكلامي، تولي هذه اللسانيات استقصاء الشروط التي يؤدي استيفائها إلى تفوق المتكلم في أداء فعل " الحجاج "، وقد قسمها إلى " شروط الحجة المثبتة " و " شروط الحجة المبطلّة " [راجع: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 262].

في المخاطب وذلك بحمله على فعل ما أو تركه أو دعوته إلى ذلك، أو تقرير حكم من الحكام، أو توكيده أو نفيه، أو التشكيك فيه، أو وعد المتكلم للمخاطب أو وعيده...¹

واللغة من منظور هذه النظرية ليست مجرد أداة للتواصل - كما هو الحال في تصور المدرسة الوظيفية -، أو مجرد رموز للتعبير عن الفكر - كما هو الحال في تصور المدرسة التوليدية التحويلية -، وإنما هي أداة لتغيير العالم وصنع أحداثه والتأثير فيه.

و " من المعلوم أن للفعل الكلامي وظائف تداولية مرتبطة بقصد المخاطب من أهمها وظيفته الحجاجية التي تزيد ن فاعليته الإنجازية التي أرادها له أوستين وسورل، ولاسيما تلك المرتبطة بوظيفتين: التأثير والإقناع"².

اقترح " ديكرود " صنفا من أفعال الكلام، وهو الفعل الحجاجي، وفي هذه النقطة تلتقي الحجاجيات اللسانية مع نظرية أفعال الكلام، حيث سيحتل فعل الكلام موقع الأساس من النشاط الحجاجي³. وقد تأثر ديكرود بمفهوم الفعل الانجازي، والذي مقتضاه الفعل نفسه الذي ننجزه أثناء القولن وليس وصفا لما نحن بصدد فعله حينما نقول ما نقول، أو تأكيد على القيام به.⁴ واقترح ديكرود ذلك لما رأى أن نظرية أفعال الكلام تتصف بعدم كفاية التصنيفات المقترحة للأفعال اللغوية.

¹ - ينظر: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج في القرآن...، ص 161.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 260.

³ - ينظر: رشيد الرضي، مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر، ع1، ص 233.

⁴ - ينظر: جان سيرفوني، الملفوظية، تر: قاسم المقداد، مطبعة إتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 1998، ص 96.

ويتضمن الفعل الانجازي قوة غرضية في فعل الكلام التلفظي تصاحب المعنى الصريح والحرفي الذي ينتجه هذا الفعل، والقيمة الغرضية / الانجازية الماثلة في فعل القول اللفظي تخضع للمقام الذي ينجز فيه العملية التواصلية والمواضعة اللسانية - الاجتماعية والعلاقات التخاطبية، ذلك أن الفعل المنجز يتطلب متلقيا يعمل على تأويل ما يتلقاه وفق عدة معطيات متعلقة بالتواضع والسياق وأحواله.¹

والفعل الحجاجي يتميز بوصفه فعلا كلاميا بخاصية الاصطلاحية والمؤسسية والمقصدية وهذه الخيرة تعد أهم خاصية، وهي من الفرضيات الأساسية التي قامت عليها الحجاجيات اللسانية في بداية أمرها*؛ إذ قالت بأن التآليفات الحجاجية التي تتم بين الملفوظات ما هي إلا التحقيق الخطابي للـ " الحجاج "**، وهو ما يعني التسليم بأن الأمر يتعلق بقصدية سابقة لدى متكلم معين يسعى إلى سوق جملة من الوقائع بغاية إقرار صدق النتيجة أو على الأقل مشروعيتها، فهناك إذن فعل قاصد للمتكلم خلف هذه الظاهرة الخطابية².

¹ - ينظر: صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أوكسفورد، دار التنوير، بيروت، ط1، 1993، ص 196. نقلا عن: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج في القرآن...، ص 163.

* - لقد انطلقت اللسانيات الحجاجية من الخلاصة التي انتهت إليها نظرية أفعال الكلام الأنكلوساكسونية، حيث يبنى مفهوم الحجاج فيها على أساس هذا المفهوم، فقد اعتبر " ديكر " و " أونسكومبر " أن الملفوظ (ومن ضمنه الملفوظ الحجاجي) ما هو إلا إنجاز لمظهر مخصوص من المظاهر الثلاثة للفعل اللغوي (الفعل الكلامي والتكلمي والتكلمي)، وبالضبط الفعل التكلمي من حيث هو إنجاز قولي مصحوب بقصدية معينة، وهو ما يتم الاصطلاح عليه في هذه النظرية بـ " التلفظ "؛ فالتلفظ إذن فعل يقوم به المتكلم فتتبع آثاره واضحة في الملفوظ الذي ينتجه هذا الفعل. [راجع: رشيد الرضي، مفهوم الموضع وتطبيقاته...، ص 234 (الهامش)].

** - هذه الفكرة التي تتجلى بوضوح خلفيتها الممتدة إلى نظرية أفعال الكلام هي التي ستطرح في التصور الدلالي للنظرية الحجاجية اللسانية، والسبب الذي يصوغ هذا الموقف هو أن فعل الحجاج المفترض في التصور السابق ينبغي أن يبنى على معرفة قبلية بالواقع واستحضار مسبق لخصائص الوقائع المستقلة عن النسق اللساني الخالص.

² - ينظر: رشيد الرضي، مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبر، ع 1، ص 233.

ومعلوم أن أهم خاصية تميز الفعل الحجاجي باعتباره فعلا كلاميا، هي خاصية القصدية وتتجلى الطبيعة القصدية للفعل الحجاجي في مستويات عدة، أهمها أن عرض الحجة في أثناء إنجاز الفعل الحجاجي يكون الغرض والقصد منه تدعيم نتيجة معينة، بحيث لا يمكن فهم الملفوظ / الحجة إذا نظرنا إليه منعزلا، وبالتالي نحتاج إلى قراءته كفعل حجاجي له علاقة بنتيجة معينة.¹

وتتجلى مقولة " القصدية " بالخصوص في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب، في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية.²

وينقسم الفعل الحجاجي عند " ديكرود " إلى فعل اقتضاء، وفعل مفهوم (مضمرات)، ويصنف هذين النوعين ضمن الأفعال اللغوية غير المباشرة. ذلك أنه إذا كان " م1 " مؤديا بالضرورة إلى ظهور " م2 " صراحة أو ضمنيا، وإذا كان " م2 " ضمنيا فإن ضمنيته هذه تكون إما على سبيل الاقتضاء أو على سبيل المفهوم / القول المضمر خاصة.³

وقد حصر ديكرود وظيفة الفعل الحجاجي في التوجيه*، سواء على مستوى السامع أو الخطاب؛ بل وحصر دلالة الملفوظ في التوجيه الناتج عنه.

¹ - ينظر رشيد الرضي، مفهوم الموضع وتطبيقاته...، ص 233.

² - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب...، ص 10.

³ - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن...، ص 35، 36. وأيضا: ينظر: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج في القرآن...، ص 164.

* - إن أهم مأخذ يعيب على هذه النظرية حصر صاحبها - ديكرود - دلالة الملفوظ في " التوجيه "، والرأي عندنا أن دلالة الكلام (وحق الكلمة) ليست التوجيه فحسب، وإنما التوجيه جزء من دلالة ذلك الكلام وبعض

سيعتصر البحث على الأفعال الكلامية المباشرة؛ لأن المبحث الأساس لجهود أوستين وسورل في مجال الأفعال الكلامية انصب في مجمله على الأفعال الكلامية الإنشائية. وثمة من يرى أن " استحضار الأفعال المباشرة، تعطي مقصدية واضحة للغة، ولاسيما من ناحية البعد التداولي والسياقي، كما أن الجمل الإنشائية تتوافق مع توجهات الخطاب الحجاجي ¹ .

فالمخاطب يستعمل الأفعال الكلامية المباشرة عندما تكون ثمة رغبة كامنة في النفس، لتبليغ أمر ما يراد منه مصلحة معينة، آنية أو مستقبلية الحدوث، فيتجه صوب الأساليب كالاستفهام والأمر والنهي والنداء، بوصفها منجزات طلبية مباشرة، ولما كان الحجاج " كل منطوق به موجه إلى الغير، لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها بحسب القيمة التي تحملها ² ، فإن القيمة الإنجازية التي تصطبغ فيها جملة الاستفهام والأمر والنهي والنداء، تعد قيمة ذات قوة دلالية مؤثرة ³ ، فالحجاج يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال التي تحقق حيزها الأفعال الكلامية الإنجازية، وتوجهاتها ضمن الفعل الإنجازي.

يحرص الخطاب الإبراهيمي على حضور الأفعال الكلامية المباشرة في مخاطباته، خاصة وأن هذه الأفعال مما يتضمن في سياقها توجهات، ويعود إلى غايته التبليغية التي لا تتم إلا بالحجاج، فلأفعال الكلام في كتابات الإبراهيمي إنجازات تعطي بعدا دلاليا، ذات تأثير قولي

منها، فقد يكون لهذا الكلام بحسب المواقف التأويلية التي نفقها منه، دلالات تتجاوز الحجاج والتوجيه. [راجع: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن...، ص 36].

¹ - فرانسو آرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، ط1، 1986، ص6. نقلا عن: مثني كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي...، ص 137.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 226.

³ - ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 34، 35.

/ تأثيري هدفه الإقناع، وأن هذه النظرية تدرس النص وفق المستوى الخطابي واللغوي وعلى المستوى المتواري من خلال السياق وما يتعلق به.

2-1-1- الاستفهام:

في تداوليات الخطاب يخرج الاستفهام عن طبيعته الإخبارية، ليصير فعلا كلاميا ذا قوة إنجازية، فتتولد عنه معان تتحدد تبعا للسياق الذي ورد فيه وللغرض الإنجازي الذي ورد فيه.

ولا ينظر في المنظور التداولي إلى حروف المعاني على أنها مجرد دلالات ومضامين لغوية؛ بل إنها إضافة إلى ذلك " أفعال كلامية ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو ذاتية بالكلمات "؛¹ إذ يرمي المتكلم من توظيفها إلى التأثير في المخاطب بحمله على فعل أو ترك، أو دعوته إلى ذلك أو تقرير حكم من الأحكام أو تأكيده ...

ويعد الاستفهام من الوسائل الحجاجية المهمة التي تحفز المتلقي، ويمكن من خلاله معرفة الموقف ضمنا أو علنا بقرائن السياق² التي تثير المتلقي، ولأسيما أن الاستفهام يرتبط بعامل القصدية، وهذه القصدية تكمن وراءها ردود أفعال متوقعة، وهذا ما يجعل الاستفهام شديد الإلزام لمشروطية الإنجاز.

ومن هذا المنطلق يعرف الاستفهام الحجاجي على أنه " نمط من الاستفهام يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقا من قيمته الحجاجية "؛³ لأن المستفهم متى طرح سؤاله؛ فإنه

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 217.

² - ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 141.

³ - أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص 57.

يدعو المتلقي إلى اتخاذ موقف أو قرار ما؛ بل إن الجواب حتى وإن كان معلوما يثير التساؤل حول المستفهم عنه، كما في الاستفهام المجازي¹، فالاستفهام الخارج من بنيته المقامية في الخطاب، والداخل في معان أخرى يهدف إلى إضافة موقف المتلقي معنوياً وإلزامه بالجواب والإقرار بما يريده المرسل.

بعدول الاستفهام واتجاه معناه الحقيقي إلى الضمني، فإن المرسل لا يريد الفهم بقدر ما يريد إفهام المتلقي بفكرته ومنه ينطلق في تبليغ خطابه، لذا فالاستفهام ملفوظ إنجازي ضمن المتداول في حيز الفعل الإنساني، فهو من الآليات التوجيهية . بوصفه يوجه المتلقي إلى ضرورة الإجابة عنه أو التفكير في مادة العدول التي صنعها المرسل فيه فأصبح يسيطر على مجريات الأحداث، والسيطرة على ذهن المتلقي وتسيير الخطاب نحو ما يريده.²

يتفق غير واحد من الباحثين على أن الركيزة الأساسية للاستفهام هي إنجاز المعنى؛ أي أن الاستفهام يختص بأداء وظيفة حاجية تدرك قيمتها بالتأمل في العمل الحجاجي، ولا سيما في المخاطبات العامة والتداولية، وقيمه تعود إلى اختصاصه بإنجاز العمل الحجاجي، سواء أعلق ذلك بالاستفهام الحقيقي أم المجازي³.

¹ - ينظر: محمد عي القارص، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج... ص 394.

² - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب...، ص 324.

³ - ينظر: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة لابن قتيبة - دراسة تداولية -، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، 2009، ص 304. نقلا عن: مثني كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي البلاغي، ص 141.

كما تكتسي صيغ السؤال بعدا تداوليا لا يكتسبه غيرها من الصيغ*، ويرجع السبب في ذلك إلى القيمة الحوارية التي تضيفها هذه الحروف على المبادلات الكلامية بين المتحاورين، للتداول في القضايا محل النزاع.¹

وتعتبر الهمزة من أحرف الاستفهام التي تختص بطلب حصول التصور كما تختص بطلب حصول التصديق، وفي كتابات الإبراهيمي عدد كبير جدا من الأسئلة التي استفهمت بالهمزة.

ولو حاولنا فحص تلك الاستفهامات فإنها أتت جميعها طلبا لحصول التصديق في ظاهرها، مع ما تستنبطه من استلزامات خطابية لخدمة وظائف العملية التواصلية في بعدها التداولي؛ إذ يتوقف تمام الفائدة في انتظارات السائل من جواب المجيب. كما في قول الإبراهيمي مستفهما: "أندرون لماذا ملكنا الغربيون؟ لقد ملكونا لأننا انغمسنا في الكماليات السخيفة التي غمرونا بها ... ² [أي أنهم يجيبون ب: نعم نعلم].

* - لم يضع العلماء العرب للاستفهام تعريفا واحدا، كما لم ينسبوه لجملة واحدة من ضربي الإنشاء (الطلبي / غير الطلب)، وإن عده أغلبهم من الإنشاء الطلب، فكل " مخاطبة وكل قول يخاطب به الإنسان غيره فهو إما يُقتضى به شيئا ما وإما يعطيه به شيئا ما (...) والقول الذي يُقتضى به شيء ما فهو يُقتضى به إما قول ما وإما فعل شيء ما. والذي يُقتضى به فعل شيء ما فمنه نداء، ومنه تضرع، وطلبه، وإذن، ومنع، ومنه حث، وكف، وأمر، ونهي ". [كتاب الحروف، ص 162.] والذي يُقتضى به قول شيء ما هو الذي سماه الاستفهام؛ إذ " اقتضاء القول هو السؤال " [كتاب الحروف، ص 163.].

¹ - ينظر: نور الدين اجعيط، مناظرة علي للخوارج مقارنة تداولية، ضمن مصنف التحليل الخطابي للحجاج، ص 400.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 211.

وقوله كذلك: "... وسلوا رجال الدين: لو أن واحدا منهم لحقته مظلمة أو إهانة، أكانوا ينتصرون له ويحتجون، ولو ... بالاستعفاء الإجتماعي؟ ... إنهم لا يفعلون ذلك ولو سقطت السماء على الأرض"¹. [أي أنهم يجيبون بـ: لا].

ومن أمثله أيضا قوله: "أليس معنى مقاومة التعليم نشر الأمية وتكاثر الأميين؟ لا يقتضي المنطق إلا هذا"². [أي: بلى]. ففي النماذج السابقة وما ماثلها لا يلتفت في المنظور التداولي إلى السؤال في ذاته، وإنما إلى علاقته بمقام التواصل الذي تم فيه.

وتكمن القوة الإنجازية لهذا النوع من الأسئلة في قدرته على توريث المخاطب ببيان فساد رأيه، وهو ما يدل عليه مثلا استقهام الإبراهيمي حول محاكمة الاستعمار لمعلمي العربية والإسلام مدعين الديمقراطية في أحكامهم، قوله: "... وحسب الاستعمار (ديمقراطية) أن يحاكم معلمي العربية والإسلام، ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام، في محكمة واحدة، وسجن واحد، وظرف واحد، وقد يكون يوم جمعة في الغالب، أليس هذا احتراما للإسلام، ومن مصلحته كما يقول العاصمي؟ أليس هذه هي الديمقراطية؟ فما لكم تكذبون؟"³. ففي هذا الاستقهام تبكيت وتقريع وإقامة الحجة التي لا يملك معها إدارة المستعمر أو من يمثلهم من أمثال العاصمي أي جواب أو ردّ منطقي مقبول.

والاستقهام بالأداة "هل" والتي تقرن "أبدا في المشهور وبادئ الرأي بقضيتين متقابلتين"⁴، ولا يُطلب به إلا التصديق¹، وفي طلب التصديق تكمن قوته الإنجازية، وقد استعمله

¹ - المرجع نفسه، ج 3، ص 157.

² - المرجع نفسه، ج 3، ص 345.

³ - المرجع السابق، ج 3، ص 345.

⁴ - مفتاح العلوم، ص 200.

الإبراهيمي في معرض تذكيره وتحفيزه على الإنفاق في ضوء العمل على إصلاح جامع الزيتونة ومنظومته التدريسيين قوله: "وأما المال فإن الإصلاحات تتطلب أموالاً طائلة، ونفقات سخية، ... إن الكليات حتى في أغنى أمم العالم لا تقوم على مال الحكومة المحدود وحده، وإنما تقوم على عطاء الكرماء وبذل المحسنين، فهل آن لأمتنا أن تعلم هذا فتعمل به؟" ².

فالمقام مقام بحث عن حصول التصديق، والذي يهمه أن يكون مصدقا في رأيه هو الإبراهيمي، فقد كان حرصه كبيرا على بيان الحقيقة لمفارقيه رغبة في دفعه لهم إلى إنفاق المال في صالح إصلاح الأوقاف الإسلامية ومنها جامع الزيتونة.

وقد أتت أداة الاستفهام "هل" مقترنة بالزمن الماضي، ومرد هذا التخصيص يكمن في أن الأغراض البلاغية لهل؛ الإثبات أو النفي، فكان المطلب التداولي للإبراهيمي إثبات الحقيقة الواقعة - أي الإنفاق المالي بغية الإصلاح - التي استتهم مخاطبيه حولها، فكان السكوت بمثابة الإقرار؛ أي: نعم. وفي هذا الاستفهام إنكار من الإبراهيمي على تقاعس المنفقين والتعويل على الحكومة في أداء هذا الدور.

ثم هناك الاستفهام بالأداة "ما" والتي تأتي للسؤال "عن الجنس وللسؤال عن الوصف" ³، كما تأتي "لمجرد الاستخفاف والتحقير ... وللتعجب" ⁴، وفي كتابات الإبراهيمي من أمثلة هذه الاستفهامات، قوله: "كنت وصفتم ببعض هذه الصفات تقاريق، وقد جمعها الشيخ (بيرك) ووصفكم بها جملة، وإن التقاريق لأخف وقعا من الجملة، وأنا اليوم حي وهو ميت لا

¹ - المرجع نفسه، ص 419.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 551.

³ - مفتاح العلوم، ص 421.

⁴ - المرجع نفسه، ص 424.

ترجون رحمته ولا تخافون بطشه، فما لكم لا تثورون عليه بعض ثورتكم علي؟ وما لكم لا تحشدون الأنصار للرد عليه ونقض كلامه؟¹. بمعنى أي ثورة ثرتموها ضدي، فصارت بذلك ثورتهم ضده مظنة التعجب والاستخفاف، فكيف تثورون عليه لسبب قد حصل لكم مع غيره ولم تثوروا. ولأن من معاني " ما ": " أي شيء؛ إذ " الشيء هو أعلم ما يمكن أن نعلمه "² فإن الذي ثاروا من أجله، دفع الإبراهيمي إلى السؤال عن سببه إذ لم يثوروا منه قبل، فكان في دلائل التعجب والاستخفاف من أمر ثورتهم القوة الإنجازية للسؤال بـ " ما "، فإذا علم أن الذي ثاروا من أجله مرفوض لما فيه من خداع ومكر " جهل الشيء الذي جعل ندا له "³ وهو مقارنة قبولهم لمثل هذا الذي قيل فيهم دون ثورتهم بما أحدثوه مع الإبراهيمي، ولا يأتي ذلك إلا بالاستفهام بـ " ما " لتكون قضيتهم أعم وأدعى لأن تعلم.

وفي قول الإبراهيمي أيضا: "... وهل يأتيك بصلاح الدين إلا أمتك؟ وهل يجدد لك حطين إلا قومك الذين بدؤوها؟ ولكن هل أمتك مستعدة لأن تأتيك بصلاح الدين مرة أخرى؟ وهل قومك أهل لأن يجددوا موقعة حطين وفيهم أمثال عبد الله...؟"⁴.

يدعو الإبراهيمي هنا إلى الاعتراف بعدم مقدرة الأمة على الإتيان بأمثال صلاح الدين في هذه الفترة أو من أمثلة من قاتلوا اليهود في حطين، فالاستفهام حمل تنبيها وتقريراً، وذلك بحمل الاستفهام نفياً لوجود من يأتي بأمثال صلاح الدين، فقد حملت في النص طاقة حجاجية إقناعية، اتجهت صوب التقرير والإثبات، فضلاً عن أن مراعاة المقام كانت لها وقعها في تحديد

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 198.

² - كتاب الحروف، ص 166.

³ - المرجع نفسه، ص 166.

⁴ - آثار البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 331.

الدرجة الإنجازية لفعل الكلامي الموجه داخل مجمع يحتفل بالمولد النبوي الشريف. فالسياق النصي الوارد حوا بئى لغوية ذات خصائص ارتبطت بمقامها الإنجازي.

فالاستقهام يدخل ضمن التوجيهات عند أوستين وسورل، ليكون الغرض منه توجيه المتلقي للخطاب للبحث عن إجابة عما تساءل عنه المتكلم، فقد هيمن الفعل الكلي (عجز الأمة وضعفها) عن الإتيان بأمثال صلاح الدين في هذه الحالة من الضعف والعجز، وبرز في الاستقهام النمط الاستدلالي الذي أشار إلى أن الأمة التي أنجبت صلاح الدين وأقامت موقعة حطين هي أمة قادرة على تكرار ذلك ولكن ليس في الحال التي هي عليه الآن.

2- الأمر:

يسمي أوستين فعل الأمر بـ (الفعل القولي)، وذلك لأنه يهدف بالأساس إلى صياغة مواقع جديدة بحضور طرفي الخطاب في الزمان والمكان، ويرتبط المر بردة فعل المتلقي وحمله على القيام بعمل معين أو نصحه إزاء شيء ما، فهو - أي الأمر - دقيق في تشخيص من ينفذ الفعل الإنجازي، وتتجلى قيمته الإنجازية بالحدث السلوكي المتحقق أو الذي سيتحقق مستقبلاً.

ويضفي الأمر بعداً حجاجياً بوصفه قاعدة للإنجاز، وحضور فعل الأمر في خطابات إبراهيمي، يدل على استمرارية الحدث والزمن، ولعل مرد ذلك إلى التعليم والتنبيه والتدعيم والاعتبار، وبالنتيجة التأثير والإقناع.

و " فعل الأمر فعل كلامي مباشر ترتبط به دلالاته بالقول، ويشكل بذلك قوة إنجازية ترتبط بذلك القول ¹ المتولد عن العدول، لغرض تداولي مما يصعد من كفاءة الإنجاز بتحقيقه

¹ - دراسات في نحو اللغة العربي الوظيفي، ص 174. نقلاً عن: مثني كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي البلاغي، ص 145.

الأغراض المطلوبة ضمن معناه المحمول فيه كنمط فاعل في المستند الطلبي، وهذا في أن
 " الأمر يمثل واقعا ذهنيا متحققا يكمن في اختيار المنفذ أو من ينتخب للتنفيذ لتحقيقه في
 الواقع"¹.

سيقنصر الإجراء على فعل الأمر في صيغة (افعل) لأن هذه الصيغة أقوى من بقية
 الصيغ كما أن المرسل يلقيها إلى المخاطب أمرا إياه بإيقاع الفعل، فضلا عن كثرة ورودها في
 الكلام عامة ومنها كتابات الإبراهيمي. كما في قوله:

" أخلصوا العمل وأخلصوا بصائركم في الله واذكروا دائما، وفي جميع أعمالكم، ما دعاكم
 إليه القرآن من الصبر في سبيل الحق، ومن بذل المهج والأموال في سبيل الدين، واذكروا قبل
 ذلك كله قول الله: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾"².

وأن تكرر فعل الأمر (أخلصوا) و (اذكروا) منح النص تأثيرا ضاعطا يفضي إلى
 الإلزام مع الأمر؛ أي إلزام المتلقي بالإخلاص مهما كانت الأعمال وكان عددها، فقال: (جميع
 أعمالكم)، ومهما كانت الحال فقال (دائما)، وذكرها بهذا الشكل في النص جاء حاسما لفعل
 الأمر الإنجازي، وأدت به إلى الحجاج مما جعل النص يفضي إلى وجوب أمر الإخلاص والذكر
 وأن لا مفر منهما في سبيل تحقيق ما يريدون.

إن عملية استثمار أفعال الأمر (اخلصوا) (اذكروا) جاء بإدراك واعٍ لمضمون المقام
 بوصفه دعوة للخصم بالالتزام بما تلفظ به المرسل (الإبراهيمي) من فعل انجازي مستقبلي،
 فالمرسل فرض سيطرته على ذهن المتلقي بهذه الأفعال الإنجازية والحجاجية، والتي " ترتبط بما

¹ - دراسات في نحو اللغة العربي الوظيفي ، ص 178. نقلا عن: المرجع نفسه، ص 145.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج5، ص 35.

يؤول إلى أفعال داخل الحياة الاجتماعية بدوافع عقلانية لأن الإقناع والتوافق غنما يؤولان إلى الالتزام بالفعل أو الإقرار به ¹.

وجاءت تلك الأفعال الإنجازية متحققة عن طريق الإلزام، متجهة نحو التوجيه والإرشاد من الأمر (الإبراهيمي) إلى المأمور (الشعب الجزائري)، وقد أدت إلى الحجاج نظرا لتغير الظروف والمقام، فلم يغفل الإبراهيمي من الإفادة من تغير الموقف، فدفعهم بطريقة مباشرة إلى الامتثال لأمره وتحفيزهم - عن طريق الاستشهاد بالقرآن - على إنجازه على أكمل وجه وبتراتبية مدروسة، فالشرط المقامي - الانتقال من عدم اهتمامهم إلى السؤال عن الكيفية التي يمكن أن يساهموا بها - قد ساهم إلى حد كبير في إنجازية الفعل الذي جاء ضمن مسارات المقام الرسمي، ولأسيما أنه مقام الإبراهيمي (داعية معروف ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) أعطى قوة الإنجاز للمتلقي لهذه الأفعال في إطار الخطاب، فضلا عن توافر الانسجام النصي بين المرسل والمتلقي الذي قام على أساس المشترك بينهما (الثورة الجزائرية).

3/- النهي:

للهي طاقة حجاجية فاعلة؛ لأنه يتضمن إنجازا لأفعال معينة تحت عنوان الترك أو الكف عن فعل ما وإنجاز فعل مضاد له، بوصفه إنجازا ضمنيا؛ لأن النهي يحمل دعوة توجيهية للمتلقي، وبالنتيجة إقناعه بهذه الدعوة². فالمرسل يتواصل مع المتلقي من خلال طاقة ترك الفعل المنهي عنه، وإنجاز فعل آخر نقيضه؛ إذ ثمة أفكار راسخة تستدعي الكف عنها عن طريق الحجاج بصيغة النهي؛ لأن صيغة النهي تبرز فيما بعدها وهو (المفضل) وأن هذا المفضل

¹ - عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص 91.

² - ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 149.

ادعى إلى الانتباه إليه وترك ما يناقضه وهذا ما يستلزم السرعة في الترك، ومن هنا أشار العلماء " وأجمعوا على أن النهي يقتضي الفور ¹؛ أي السرعة في التنفيذ.

وعلى المرسل أن يدرك قدرة المتلقي على الإنجاز؛ لكي يتحقق الحجاج في الخطاب، و" مادام الحجاج خلقاً للعلاقة بين خطابين لغويين، فلا بد إذن من وجود تلازم بين القول والحجة، وهو تلازم قد يصرح به وقد يضمن ² دعماً لمقولات الخطاب التي تحقق ميثاق التواصل بين المرسل والمتلقي ضمن المقام.

وتقرز صيغة النهي وهي متحركة من موضعها دلالات متعددة تستمد قوتها من المعنى الأصلي مشبعة بطبيعة السياق معتمدة على قرائن الأحوال ³، فالنهي أسلوب خطابي مقنع على وجه الإلزام ⁴، ولعل المرسل يتخذ منه معبراً إلى بنية حجاجية ضمنية ذات شحنة عميقة متصلة بالسياق. كما في قول الإبراهيمي:

" أيها المسلمون أفراداً وهيئات وحكومات:

لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه.

ولا تتوله في سلم ولا في حرب فإنه مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم.

¹ - البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ص 154. نقلاً عن: مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي البلاغي، ص 148.

² - محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 194.

³ - ينظر: محمد عبد المطلب، جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوندان، مصر، ط2، 2004، ص 198، 199.

⁴ - ينظر: مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي البلاغي...، ص 148، 149.

ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له.

ولا تأمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان.

إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدت في عمره يوماً بموالاتكم له.

ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه¹.

إذ تؤسس صيغة النهي فضاءً للكف عن موالاة الاستعمار، والكف عن معاهدته، والكف عن انتمائه، والكف عن التحالف معه، ولكي يكون النهي مؤثراً، ويعمق الفعل الإنجازي بين عاقبة من يخالف ذلك النهي بما سيلقاه، فذلك خروج عن الدين، وتحالف مع العدو ضد النفس والوطن، وأن عاقبته سيهلك أولاً على يد الاستعمار. وإن بيان العاقبة للموالي والمعاهد والمؤمن والمحالف للاستعمار بهذه الطريقة، أضفى نوعاً من الحجاج على ما يراد تقريره في الذهن، مما أدى إلى تعميق فكرة الكف للنتيجة الحتمية التي ستؤول عند عدم الالتزام بالنهي.

كما جاءت صيغة النهي تحمل النصح والإرشاد عن طريق الكف، وترك موالاة الاستعمار بأي شكل من الأشكال والدعوة إلى جهاده ومحاربته، وإن هذه الصيغة التي خاطبت الجميع، فإنها تستدعي من كل متلق أن يستشعر هذا الكف على أنه خاص به، لتعميق إحساسه بالتزامه لأن النهي لا يؤدي فعله إلا بـ " تواصل فعله التأثيري المشروط بحسن العرض، الموصول بدقة البسط حتى تثبت المحتويات الفكرية، وترسخ القيم التصورية التي ينوي المحاجج

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج5، ص 70.

إيصالها إلى جمهوره؛ ليقنعه بها، ويضمن يقينه من خلالها¹. وبناء على هذا جاءت المآلات بعد النهي لتقرر عاقبة عدم الكف.

4/- النداء :

النداء بنية ينتج عنها الإقبال حساً أو معنىً، ويتحقق من حرف مولد من الفعل (أَدْعُو أو أُنَادِي) وقد يكون الحرف ملفوظاً على مستوى السطح أو مضمراً على مستوى العمق²، فهو إذن توجيه دعوة إلى المخاطب، وتنبيهه إلى الإصغاء وسماع ما يريده المرسل³، والأصل في حروف النداء وأكثرها انتشاراً هو " الياء " - (يا) -، ويدل على المسافات بأنواعها (قريبها ووسطها وبعيدها) لذا حمل دون سواه سعة في الدلالة⁴، فالنداء بالنتيجة له التأثير الكبير على المتلقي؛ لأن النداء لا يؤتى به لمجرد الانتباه والإصغاء فحسب، وإنما يؤتى به لتنفيذ فعل انجازي ما عن طريقه، لذا دخل في الأفعال الكلامية.

جاء النداء في الخطاب الإبراهيمي بغية توصيل ما يراد عن طريق الاستدعاء، لذا كان اختيار الأسلوب النفسي المؤثر فيه لتوصيل النداء، لما للنداء من استقطاب للمتلقي ضمن فرضية الإنجاز في ما نادى به المرسل في سياق تنظيم نصي؛ " إذ إن للنداء فعلاً إنجازياً مخصوصاً يميل إلى الاتجاه صوتياً إلى المخاطب، على أن المنادى ليس هو المركز فقط، وإنما ينتشر إلى أبعد من المنادى وهو الأشكال والبنى التي بعده، فهي التي تكسبه طاقة الإنجاز من

¹ - علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 379.

² - ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 299، 300. نقلاً عن: مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي البلاغي، ص 150.

³ - ينظر: عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د ت)، ج1، ص 4.

⁴ - ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب، ص 488.

خلال قراءة طاقة ضمانياته بالقيمة التي يعطيها السياق ¹، ومما لاشك فيه أن ما سيأتي بعد النداء ذو أهمية خاصة يراد له أن ينتبه إليه المتلقي ويتأمله جيدا، وبالنتيجة يحصل التواصل، فالحجاج من خلال المباشرة في إنجاز الفعل الكلامي. كما في قول الإبراهيمي:

" يا شباب الجزائر، هكذا كونوا ... أو لا تكونوا... ²."

إذ عمل النداء على تحقيق هدفه الإنجازي المباشر، فالنداء جاء توجيهيا حفز المتلقي أو المنادى (شباب الجزائر)، لينفذ ما سبق له من تكليف بعد الإقبال، وقد شكل الأمر (كونوا) بعد النداء بؤرة انطلاق مكثفة لتحقيق الفعل أو تنفيذه؛ لأن الأمر المباشر بعد الإقبال والانتباه جاء للمنادى المقصود بذاته دون سواه؛ أي (شباب الجزائر) فقط.

والنداء فعل تكليفي نافذ في الخطاب، جاء مرتبطا ببعد حجاجي بعد طلب الإبراهيمي إقبال شباب الجزائر وانتباههم بالنداء، لتوجيههم إلى الحالة التي يجب أن يكونوا عليها؛ إذ سيطر بهذا النداء على أذهان الشباب الجزائري ثم بعدها توجيههم بالإنجاز.

وبالنتيجة فإن شباب الجزائر قد أنجز فعلا إنجازيا معاكسا للحالة التي هو عليها، من خلال النداء الذي يعد مدخلا للأفعال الكلامية، وذلك لأن السياق الوارد بعد النداء حمل مقصدية المنادى، وهو أن يكونوا على ما تمثله الإبراهيمي من خصال وصفات، ومن هنا نفهم الإنجاز لا يؤتى به قصد الإقبال فحسب وإنما يحقق فعلا إنجازاً مع ما بعده.

هذه فقط نماذج لبعض الأمثلة التي خرج فيها الاستفهام والأمر والنهي والنداء عن معانيها الأصلية لتشكل أفعالا لغوية غير مباشرة يحاول فيها الإبراهيمي تقرير معاني الإثبات، أو

¹ - مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي...، ص 151.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج3، ص 510، و ص 512، وص 515، وص 517.

النصح أو الإرشاد وغيرها لدى مخاطبيه. على أن ما يهم من هذه الأمثلة ليس خروجها إلى هذه المعاني في حد ذاتها، وإنما هو الجانب الحجاجي الذي نجم عن هذا الخروج، كدفع المخاطب إلى الإقرار، أو حمله على التثبت والالتزام.

2-2- الحوار الاستلزامي في كتابات الإبراهيمي:

كثيرة هي الجمل التي تدل على معنى غير ذلك الذي يوحي به معناها الحرفي في بعض المقامات. ذاك أن الحمولة الدلالية للعبارة اللغوية يمكن أن تصنف إلى صنفين: الصنف الأول يشمل " المعاني الصريحة "، وهي تلك التي تدل عليها صيغة الجملة ذاتها، أما الصنف الثاني فيضم المعاني " الضمنية "؛ أي تلك التي لا تدل عليها صيغة الجملة، وإنما تتولد طبقا للسياقات أو المقامات التي تنجز فيها.

وعليه ففي اللغة المتداولة - تحت تأثير أهداف تواصلية محددة - قد نستعمل جملة ما قاصدين معنى غير الذي هو في ظاهرها، ومن ثم يتم الانتقال من معنى " مباشر صريح " إلى معنى " غير صريح " أو " مستلزم حواريا " ¹.

فما هو الاستلزام الحواري؟ وكيف يتم التفاعل بين المتحاورين لإبلاغ وإدراك المعنى المستلزم من خلال كتابات الإبراهيمي ؟

يعتبر الاستلزام الحواري (conversational implicature) من أهم المفاهيم التي تقوم عليها التداوليات (pragmatics)، وعلى الرغم من وجود تقارب بين هذين المفهومين، فإن هناك فوارق حاسمة دعت الفيلسوف الأمريكي " غرايس " (Paule Grice) -

¹ - ينظر: العياشي أراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني - من وعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها -، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011، ص 15.

واضع هذا المفهوم - إلى اشتقاق مصطلح جديد من المصدر (implicate) ذاته، وتخصيص عملية الاستدلال التي تدري في التداول اللغوي باسم (implicature) ، تمييزاً لها عن (implication) المتعارف عليها.¹ وهذا المفهوم مرتبط بلسانيات الخطاب، إذ انصب اهتمامه بعملية التخاطب في حد ذاتها.

لقد ظهر مفهوم الاستلزام الحواري* مع " غرايس "، الذي حاول أن يضع نحواً قائماً على أسس تداولية للخطاب، تأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد المؤسسة لعملية التخاطب، فهو يؤكد أن التأويل الدلالي للعبارات في اللغات الطبيعية أمر متعذر إذا نُظر فيه فقط إلى الشكل الظاهري لهذه العبارات.

¹ - ينظر: Paul Grice, " logic and conversatin " in Cole, Peter and Morgan, Jerry L. (eds): Speech acts, in " Syntax and semantics ", Vol.3 New York, 1975, p: 47.

نقلاً عن: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 17.

* - لقد تم الانتباه في الفكر اللغوي العربي القديم إلى ظاهرة الاستلزام الحواري، ليس من حيث كونها مفهوماً، وإنما باعتبارها إشكالا دلالياً، يبرز من حين لآخر أثناء الخطاب. لذا طرحت جملة اقتراحات لوصفه واستقصائه وخاصة في علم البلاغة ونموذجه السكاكي من خلال كتابه " مفتاح العلوم "، وعلم الأصول ونموذجه الغزالي من خلال كتابه " المستقصى في علم الأصول "، وكذا علم النحو ونموذجه الزمخشري من خلال كتابه " المفصل في علم العربية " وشرح ابن يعيش لمفصل الزمخشري، وقد تناول العياشي أدراوي هذه الموضوعات الثلاث بالتفصيل من خلال كتابه " الاستلزام الحواري في التداول اللساني "، ص 25 - 67. للاطلاع يرجع لذلك.

بيد أن هذه الاقتراحات بقيت في نطاق ملاحظة " الظاهرة " والتمثيل لها، ثم وضع مصطلحات تتباين ببيان العلوم المعنية كـ " الأغراض التي تؤديها الأساليب " و" دلالة المفهوم " و" المعنى المقامي " و" المعنى الفرعي ". [للإطلاع والتوسع يراجع في هذا إطار المؤلفات الآتية، على سبيل المثال لا الحصر:

- الآمدي سيف الدين، الإحكام في أصول الأحكام، 1/136.
- التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون، 2/301-284.
- الماوردي أبو الحسن، أدب الدنيا والدين، ص 271.
- السرخسي أبو بكر، أصول السرخسي، 2/248.
- المراكشي ابن البناء، الروض المربع في صناعة البديع، ص 76]

وعليه يقترح ما يلي:¹

أ. معنى الجملة المتلفظ بها من قبل متكلم في علاقته بمستمع.

ب. المقام الذي تتجز فيه الجملة.

ج. مبدأ التعاون (Principe de coopération).

وعلى الإجمال يبقى الاستلزام الحواري* من أبرز الظواهر التي تميز اللغات الطبيعية، على اعتبار أنه في الكثير من الأحيان يلاحظ أثناء عملية التخاطب، أن معنى العديد من الجمل إذا روعي ارتباطها بمقامات إنجازها، لا ينحصر في ما تدل عليه صيغها الصورية.

ويعني هذا أن التأويل الدلالي الكافي للكثير من الجمل يصبح متعذرا إذا تم الاقتصار فيه فقط على المعطيات الظاهرة. الأمر الذي يتطلب تأويلا دلاليا آخر، ومن ثم يتم الانتقال من المعنى الصريح إلى معنى غير مصرح به (معنى مستلزم حواريا)، يبقى أن هذا الانتقال من معنى إلى آخر يطرح العديد من الإشكالات تتعلق بالأساس بماهية التأويل الممكن إعطاؤه للجملة التي يتحمل هذه المعاني.²

¹ - Paul Grice, " logic and conversatin ", p:23-31 نقلا عن: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 18.

* - من أهم التعريفات الحديثة التي قدمت بخصوص الاستلزام الحواري:

- " المعنى التابع للدلالة الأصلية للعبارة " .

- " ما يرمي إليه المتكلم بشكل غير مباشر، جاعلا مستمعه يتجاوز المعنى الظاهري لكلامه إلى معنى آخر " ينظر في هذا الإطار:

- Dictionary of language teaching applied linguistics, Second Edition, 1992, p:175.
- Oxford dictionary of linguistics, O.U.P, 1997, P: 172.

² - ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 18.

يبقى أن نشير إلى أن أهم مميزات الاستلزام - من حيث كونه آلية من آليات إنتاج الخطاب - أنه يقدم تفسيراً صريحاً لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل؛ أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة.¹

وأن هناك مجموعة من المقومات المتمثلة في المعتقدات والعادات والمعارف المشتركة تتدخل في تحديد المدلولات، وغيرها من المقتضيات التي تمكن المخاطب من استخراج ما هو ضمني وما هو مستلزم حوارياً فيما بلغه له المتكلم.

كما أن اللجوء للاستلزام لا يكون سلوكاً تواصلياً ملائماً إلا في بعض الحالات التي يصعب فيها الأخذ بالمعنى الصريح والمباشر؛ إذ يتسبب أحياناً في التظاهر بعدم قول أشياء قلناها أو أن نقول ما لم نقل، ولهذا قد يلجأ المتكلم أحياناً إلى الاستعانة بالشرح أو التعقيب على ما قيل أو إردافه بأشياء تحدد المعنى المقصود.²

وعليه فإنه إذا كانت الدراسات التي أنجزها كل من " أوستين " و " سول " قد ركزت بالأساس على الجانب المرتبط بأفعال اللغة المباشرة وغير المباشرة، فإن " غرايس " باشتغاله بأفعال اللغة غير المباشرة - كما أثارها سول - يولي اهتمامه في الأبحاث التي قام بها إلى أصول الحوار.

نظر غرايس في الشروط المناسبة لاستعمال الألفاظ والعبارات، فناعة منه بأن تعدد الفعل الكلامي لا يشكل حلاً لمشاكل المعنى. من هنا سعى إلى وضع الأسس العامة للحوار بأن حدد القواعد التي يجب أن يبنى عليها. وتتمثل فكرة غرايس في أن مساهمات المتكلمين في

¹ - ينظر: عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، عالم الفكر، مج 2، ع 3، الكويت، 1989، ص 141، 142.

² - ينظر: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2003، ص 130.

المحاورات يحكمها أثناء المحادثة مبدأ عام مقبول ضمناً من المتخاطبين، وهو تلبية المتكلم المساهم في محادثة ما، ما هو مطلوب منه بحسب الكيفية التي جرت بها المحادثة والوجهة التي اتخذتها.

وقد انطلق في هذا التحديد من مبدأ عام هو " مبدأ التعاون "، ومفاده: أن على أطراف التخابط أن تتعاون فيما بينها لتحقيق المطلوب.¹ أو لتكن مساهمتك في المحاورة التي تشارك فيها بقدر ما يتطلبه الهدف، أو الوجهة المختارة لهذه المحاورة.²

كما يمكن أن يصاغ - أي مبدأ التعاون - على هذا النحو: " لتكن مهمتك في المحادثة لحظة حصولها وفق ما يقتضيه هدف المحاورة اللغوية التي انخرطت فيها أو وجهتها المقبولة".³

انطلاقاً من هذا المبدأ العام حدد الفرضية الأساسية فيما مفاده أن التبادلات والتفاعلات الحوارية تبلغ مقاصدها بمقتضى التعاون القائم بين أطراف الحوار.

وهو ما يتطلب أن يكشف المخاطبون عن مقاصدهم، أو على الأقل التوجه العام لهذه المقاصد، وبذلك افترض منذ البدء وجوب تعاون أطراف الحوار على تحقيق المطلوب الذي حدد منذ البداية أو أثناء التماور.⁴ " هذا ما لم يكن غرض المرسل هو مغالطة المتلقي بقوله، أو بفعل معين يحمل رسالة ما، حيث يفهم المتلقي ما لم يكن المرسل قاصداً إليه".⁵

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص 126.

² ينظر: حسن بدوح، المحاورة مقارنة تداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص 161.

³ - جاك موشر، وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 214.

⁴ - ينظر: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص 126.

⁵ - حسن بدوح، المحاورة مقارنة تداولية، ص 164.

ومبدأ التعاون، مبدأ تداولي للتعاون، ومفاده أن على أطراف الحوار أن تتعاون فيما بينها لتحقيق المطلوب. بمعنى أنه يجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف من الحوار الذي دخلا فيه، وقد يكون هذا الهدف محددا قبل دخولهما في الكلام، أو يحصل تحديده أثناء هذا الكلام¹.

ويوضح مبدأ التعاون أكثر بالاعتماد على أربع مقولات عامة تتصل بكمية المعلومات المقدمة، وبمدى صحتها ومناسبتها والكيفية التي صيغت بها وقد أطلق على هذه المقولات اسم حكم المحادثة.

يبدو أن لمبدأ التعاون دورا محدودا جدا في عملية التعرف على العمل غير المباشر، فالدور الأساسي منوط بنظرية الأعمال اللغوية، وبالجوء إلى المعارف المشتركة المحصلة سلفا. وفضلا عن ذلك فإن مبدأ التعاون يختزل تقريبا وبصفة كلية في مبدأ مساعدة يتصل بعقلانية القائل (المُخاطَبُ يفترض أن القائل كائن عقلائي إلا إذا وجدت إشارات صريحة تدل على خلاف ذلك)، وقد يتعلق الأمر باستلزام محادثي معمم؛ أي يستعمل صيغة لطلب شيء لأنها متداولة².

يفترض غرايس أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون. فالمشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية ومتعاونة لتيسير تأويل أقواله.

¹ - ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، ص 98.

² - ينظر: آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 60.

فما قال به غرايس فيما يتعلق بالمبادئ والقواعد العامة التي تكلم فيها كشروط للحوار، لا تعدو أن تكون تداوليات كلية، والتي تعني " وجود بنيات تبلغ منتهى العموم والإحاطة [أو وجود شروط كلية] موضوعة أمام التواصل مادام التواصل هو هدف الحوار"¹. إذن موضوع التداوليات الكلية هو تعداد الشروط الضمنية التي على أطراف الحوار أن يقرروا بها قبل الدخول في التعاون التواصلية وأثناء مجرياته.

ولا تعدو أن تكون تلك التداوليات الكلية سوى دعاوى الصلاحية المذكورة آنفا والتي يفصلها مبدأ التعاون الغرايسي بتدقيق.

يشرح غرايس هذا المبدأ مقترحا أربع قواعد متفرعة منه، من المفترض أن يحترمها المتخاطبون وأن يستغلوها، وهي:

قاعدة الكم Quantité: وتخص كمية الإخبار التي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية، فهي تعتبر حدا دلاليا، القصد منه الحيلولة دون أن يزيد أو ينقص المتحاورون من مقدار الفائدة المطلوبة، وتتفرع إلى مقولتين:

أ/- اجعل مشاركتك تُفيد القدر المطلوب من الإخبار.

ب/- لا تجعل مشاركتك تُفيد أكثر مما هو مطلوب.

¹ - محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلية - دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية -، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2010، ص 42.

قاعدة الكيف Qualité: القصد منها منع إدعاء الكذب أو إثبات الباطل. ولهذا يطلب

من المتكلم ألا يورد سوى العبارات التي وقف على دليل يثبت صدقها، ونصها " لا تقل ما تعتقد أنه كاذب، ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه "¹.

قاعدة الملاءمة Pertinence: بمثابة حد مقصدي هدفها منع المتكلم من أن ينزلق

إلى مقاصد أخرى مغايرة ومتباينة مع تلك التي استهدفها الخطاب². وهي عبارة عن مقولة واحدة " لنكن مشاركتك ملائمة ". أو ليلائكم قولك مقامك.

وتعني أن يناسب القول ما هو مطلوب في كل مرحلة، وقد يعبر عنه بالقول: " لكل مقام مقال "؛ أي وجوب تعلق الخبر بالمقام.

قاعدة الجهة Modalité: تختلف عن القواعد السابقة من جهة كونها لا تتعلق بما قيل

بل بما نريد قوله والكيفية التي يجب أن يقال بها، قصدها منع الشبهة والاضطراب والإجمال والإطالة في القول³؛ أي أنها تنص على الوضح في الكلام، وتتفرع إلى:

أ/- لتحترز من الالتباس (دع اللبس).

ب/- لتحترز من الإجمال (دع الغموض).

ج/- لتتكلم بإيجاز (تجنب الحشو).

د/- لترتب كلامك (كن منظما).¹

¹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 34. وينظر: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص 126.

² - ينظر: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص 127.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 127.

إن هذه القواعد من وجهة نظر غرايس تستهدف مبتغى واحدا يتمثل في ضبط مسار الحوار، حيث يؤكد أن احترام هذه المبادئ كفيل بأن نبليغ مقاصدنا وأن نحقق صورة تواصلية مثالية.

بالرغم من أن المكونات الحجاجية المرتبطة بالتوجيه الدلالي الحجاجي، ترتبط بالعناصر الضمنية وبالعناصر السياقية، وتؤدي تلك العناصر بالمتلقي إلى الاستنتاج الصحيح وبالتالي يمكن الحديث عما يدعى بقابلية الوصول أو التواصل.²

ويفضي كل خروج عن تلك القواعد أو عن واحدة منها إلى تيه العملية الحوارية التخاطبية، وفي هذه الحالة على المخاطب أن ينقل كلام مخاطبه من معناه الظاهر إلى معناه الخفي الذي يقتضيه المقام، وهو ما تناوله تحت مفهوم " الاستلزام الحوارى "³.

أو فلنصنع هذا بطريقة أخرى، فنقول بأن المحاور إذا خالف قواعد التخاطب على مستوى المنطوق فإنه يتبعها إتباعاً على مستوى المفهوم.⁴

من خلال ظاهرة الاستلزام الحوارى ميّز " غرايس " في نظرية الأفعال اللغوية بين القوة الإنجازية الحرفية، والقوة الإنجازية المستلزمة، أما الأولى فهي المدركة مقالياً، والتي يدل عليها بصيغة الفعل، كالأمر أو الأداة في حالة النهي مثلاً.¹

¹ - ينظر: العياشي أدراوى، الاستلزام الحوارى في التداول اللسانى، ص 100. وينظر: حسن بدوح، المحاوره مقاربه تداوليه، ص 162.

² - ينظر: ذهبية حمو الحاج، التداولية واستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015، ص 403، 404.

³ - ينظر: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص 127. وينظر: العياشي أدراوى، الاستلزام الحوارى في التداول اللسانى، ص 100.

⁴ - ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 104.

ويراد بالقوة الإنجازية المستلزمة، القوة الإنجازية المدركة مقاميا، والتي تستلزمها الجملة في سياقات مقامية معينة، ولا قرائن بنيوية تدل عليها في صورة الجملة.²

والفائدة الكبرى من قواعد غرايس لا تكمن في وجود احترام المتخاطبين لها، بل في قدرة المتخاطبين على استغلالها. ومن هنا ندرج المفهوم العام للاستلزام الخطابى:

" يفترض مفهوم الدلالة غير الطبيعية* ألا يُحْتَزَل دائما تأويل قول ما في الدلالة اللغوية التواضعية للجملة الموافقة له، إذن يوجد فرق بين ما قيل (الدلالة اللغوية التواضعية للجملة)، وما تم نقله... أو تم تبليغه... (تأويل القول). ويوافق هذا التمييز الذي أهمله سيرل مفهوم الاستلزام الخطابى، فالدلالة هي ما قيل، والاستلزام الخطابى هو ما تم تبليغه، ويختلف ما تم تبليغه عما قيل "³.

ويشترط غرايس لتحقيق " الاستلزام الحواري " أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار المعطيات الآتية:

- المعنى الحرفي للكلمات المستعملة، وتعريف العبارات الإحالية.
- مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه.
- السياقات اللغوية وغير اللغوية للخطاب.
- عناصر أخرى تتصل بالخلفية المعرفية.

¹ - ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 96.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 97.

* - مفهوم الدلالة غير الطبيعية عنده يقوم على مقصد مزدوج: مقصد تبليغ محتوى، ومقصد تحقيق هذا المقصد نتيجة لتعرف المخاطب عليه [راجع: آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم، ص 79].

³ - آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم، ص 56.

- يجب على المساهمين في الحوار أن يكونا على علم بالمعطيات الآتفة الذكر، وأن يصدر أثناء عملية التحوار عن افتراض هذه المعطيات.¹

وبالجملة فإن الاستلزام الحوارى ينجم عن العدول عن إحدى القواعد المتحكمة في الحوار اللغوى مع التشبث بمبدأ التعاون.²

واحترام المبادئ الغرايسية كفيل بتحقيق تواصل مثالي بين الأفراد، إلا أن هذا التواصل يصعب إن لم نقل يستحيل تحقيقه في المحاورات التي تتم بين الأفراد يوميا؛ " إذ غالبا ما تستعمل اللغة كأداة للتسوية وممارسة النقاش الاجتماعى، حيث يستطيع المرسل أن ينفي قصده الذي قد يعتقده المتلقي أن المرسل قصده من كلامه " ³، كما يمكن للمتلقى بدوره الادعاء بأن فهمه لما تلفظ به المرسل لم يتجاوز حدود المعنى المباشر لما سمعه.

لذلك لابد من تطعيم هذه المقاربة الاستدلالية بمجموعة من المعطيات، مثل: المحددات النفسية والمعرفية المشتركة... وكذا إضافة بعض المبادئ من طبيعة أخلاقية، مثل: مبدأ التأدب... والتي أشار إليها غرايس مجرد الإشارة دون أن يفصل فيها القول.

وهذه المبادئ لا تكتسب تداوليتها أو حاجيتها إلا في نطاق النشاط الخطاب باعتباره نشاطا عقليا.

¹ - ينظر: العياشي أدراوى، الاستلزام الحوارى في التداول اللسانى، ص 104.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 104.

³ - حسن بدوح، المحاوره مقارنة تداولية، ص 165.

وهذا النشاط بدوره ليس معزولا عن مضمونه السوسيو - أخلاقي والتواضعي (العرفي)، ودليل ذلك أن كل مناقشة أو تفكير حجاجي أو غير حجاجي هو تفكير مع الآخر وتواصل معه.¹

هذا وقد شكلت القواعد التي حددها غرايس محط انتقادات وتعديلات وإضافات واختزالات، ويمكن الخروج بملاحظة عامة مفادها أن أغلب تلك الأبحاث ذهبت إلى النموذج التخاطبي عند غرايس لم يأخذ بعين الاعتبار العديد من السلوكيات اليومية العادية التي تتوفر على دلالة أكبر مما شكل حقل اهتمامه، فقواعده قد لا تكون قادرة على الاستجابة لمتطلبات الحوار اليومي والعادي.²

ومن الانتقادات الأخرى التي وجهت لهذا المبدأ كونه يقتصر على الجانب التبليغي دون الأخذ أو التركيز على جوانب أخرى، حيث استبعد الجانب الاجتماعي والتعديلي، وغيرهما من الجوانب الأخرى التي تمت الإشارة إليها فقط أو أنها أغفلت كليا على الرغم من الدور الذي تلعبه في العملية التخاطبية.

وعليه فقد ذهبت بعض الدراسات من بينها سبرير - ويلسون إلى القول بأن قواعد غرايس غيببت قاعدة تداولية أساسية تخص عملية الفهم، واقترحا مقارنة معرفية تقوم على التوجيه

¹ - ينظر: فرانسو آرمينكو ، المقاربة التداولية، ص 85. نقلا عن: هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواع وخصائصه، ص 91.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 131. وينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحوار في التداول اللساني، ص 118.

التنسيقي وتعتمد على علم النفس لبناء تصور جديد وتقديم مقارنة مختلفة*، وحاولا بلورة موقفهما ضمن ما سمي بالتداوليات المعرفية.¹

وقد انتقد طه عبد الرحمن من جانبه ما فعله غرايس وأمثاله من محلي الخطاب الذين ربطوا المحاور بعدد من القواعد العقلانية*، حيث ذهب إلى أن السلوك الإنساني بما فيه سلوكه العقلي مرتبط بما اسماء " بالقواعد الأخلاقية " المرتبطة بدورها بالجانب التعاملي في كل تفاعل

* - في هذا إطار عمد كل من سبربر و ويلسون إلى سوق مبدأ الملاءمة الذي يشكل في نظرهما أساس كل عملية تواصلية. وهو ما سيجعلهما يركزان على المقارنة النفسية عوض المقارنة المنطقية في التأويل. فالقواعد التي نتوسطها لتدبر عملية التأويل هي من طبيعة نفسية لا منطقية، وعليه فمتى استحضرننا مفهوم الملاءمة وجدنا أنفسنا نتكلم إما عن ملاءمة (ملفوظ، سياق) أو ملاءمة (ملفوظ، خطاب) أو ملاءمة (شخص، سياق). وإذا كان هذا المفهوم قد أضحى من المفاهيم الأساسية في التحليل التداولي للخطاب خصوصا منذ غرايس فساحتل مركز الصدارة في الأبحاث المعرفية مع كل من سبربر و ويلسون. ففي الوقت الذي يعتبر فيه غرايس الملاءمة قاعدة من ضمن القواعد الحوارية الأخرى، يرفض هؤلاء هذا الموقف ويصران على اعتبارها مبدأ. ذلك أن اعتبارها مجرد قاعدة يجعلها عرضة للاحترام والخرق حالها في ذلك حال بقية القواعد الأخرى، وبالتالي تصبح معلقة بما يقوم به شخص ما في سياق محدد. بحيث نتحدث عن الملاءمة متى وجدت علاقة تربط الملفوظ بالسياق وبوضعية الخطاب من جهة، ومتى كان الاستلزام المرتبط بها صادقا من جهة أخرى. ونقول بعدم ملاءمتها كلما انتفت العلاقة بينهما وبين وضعية الخطاب أو السياق من جهة، ومتى كانت كاذبة من جهة أخرى. وبموجب هذا نلاحظ اتصاف الملاءمة بخاصيتين تتمثلان في أن ملاءمة ملفوظ ما يتعلق بصدق الاستلزامات المرتبطة به، ثم إنها تصور يرتبط بالخطاب الذي يتخذ الحوار موضوعا له. فالخاصية الأولى تحدد الملاءمة بحدود استنتاجية والثانية بحدود استطرادية [للتوسع أكثر راجع في ذلك: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص (145 - 150)].

¹ - ينظر: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص 131.

* - هذا الشيء دفع طه عبد الرحمن إلى اقتراح عدد من المبادئ التي تندرج تحتها قواعد فرعية، مع تركيزه بالأساس على مبادئ التأدب التي أغفلها غرايس، وهذه المبادئ نختصرها في:

- التأدب واعتبار جانب التهذيب.
- التواجه واعتبار العمل.
- التأدب الآقي واعتبار التقرب.
- مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص. [راجع: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص (239 - 253)].

إنساني¹، لأن التفاعل عبارة عن متوالية من السلوكات²، وهذه السلوكات تخضع للعامل الأخلاقي أكثر مما تخضع للشروط العقلية.

سنعمل في هذا الجزء على محاولة استخراج بعض النماذج الحوارية الاستلزامية في كتابات الإبراهيمي، محاولين تبين نوع القاعدة التي تم اختراقها أو مخالفتها من قواعد التحاور، والتي بموجب خرقها يحصل الحوار الاستلزامي. وقبل الشروع في ذلك نُنَوِّه إلى أنه قبل دراسة الاستلزام الحواري لابد من معرفة أمرين اثنين:

- أولاً: لابد من مراعاة إجراءات خاصة للمتكلم حين يستعمل الاستلزام الحواري، وهو ظن المتكلم بأن المخاطب يفهم مقصوده مهما كان مختلفاً بالمعاني الحرفية، وعلى المخاطب فهم تداولية مقصد المتكلم حسب سياق الكلام.
- ثانياً: أن ندرك بأن هناك ثلاثة أمور تؤدي دوراً مهماً في نجاح المحادثة؛ إذ لا بد من مراعاتها، وهي: صحة ظن المتكلم، إجادة المخاطب في الفهم حسب سياق الكلام، فهم تداولية التخاطب والمحادثة عموماً.

وفيما يلي نماذج من كتابات الإبراهيمي مع تحليلها:

في خرق قاعدة الكم:

والتي تخص كمية الإخبار التي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية.

النموذج الأول:

¹ - ينظر: حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ص 168، 169.

² - ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 237 وما بعدها.

قوله: " بل يبلغ الغلو ببعضهم (كالتيجانية)...وحق الشيخ في المال قبل حق الفقير والمساكين. بل إنهم يصرفون لهم الزكاة كاملة وينقلونها لأجلهم من بلد إلى آخر. فأين حكمة الله في الزكاة؟ وأين مصارفها التي بينها القرآن؟ لعمرك إن الطريقة في صميم حقيقتها احتكار لاستغلال المواهب والقوى... " ¹.

هنا أخل الإبراهيمي بقاعدة الكم، على اعتبار أنه لم يقدم المعلومات اللازمة، وبما أن الاختلال لا يمكن إرجاعه إلى قصور في معرفة الإبراهيمي، فالمفترض أنه تجنب التصريح بالإفادة المطلوبة حتى لا تقرأ بأنها حكم على أن مال الزكاة سرقه أصحاب الطرق، وهو [أن الطريقة هي التي صرفت الزكاة في غير ما شرعه الله لها].

والإبراهيمي كان بإمكانه أن يتجنب الإجابة فبمجرد ذكر السؤال وسكوته عنه تفهم الإجابة لأنه كان يقرن في نقاشه بين الطريقة ومصارف الزكاة، لكنه بمجرد أنه فعل ذلك فقد أظهر حسن نيته في التعاون، فقد قصد التبليغ بشكل غير صريح موظفا طريقة بيانية تعرف بالتعريض أو التلويح.

النموذج الثاني:

قوله: " فقلت له: إنني أخشى أن تتحرك الصين الشعبية ومن ورائها روسيا فنقذكم في البحر، فقال مبادرا: يا ليتهم فعلوا .. " ².

في إجابة الجنرال الفرنسي كان بالإمكان أن تكون إجابة يقدم فيها معلومات الملائمة للسؤال القاضي بماذا لو... فكان عليه أن يقول بأنهم يقومون بأمر ما أو يوضح طبيعة العلاقات

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 172.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج5، ص 96، 97.

في تلك الحرب حتى يجد مبررا لتدخل تلك الدول من عدمها، وما يمكن أن يقدموا لو أنهم فعلوا، ولكنه بادر بالقول: " يا ليتهم فعلوا ". فكأن بع يعرض إلى أنه ليس لديهم مل يفعلون، لكن في ذلك الموقف والسياق ودرءا للإحراج لم يعطي إجابة صريحة على السؤال، كما أنه كان بالإمكان تجنب الإجابة خاصة وأن فيها إحراجا إلا أنه أثر التعاون فقدم تلك الإجابة، فانتقل بذلك من المحتوى القضوي الصريح إلى الضمني.

النموذج الثالث:

قوله: " إذا كان الأقوياء يقادون بالهوى فما الظن بالضعفاء؟ إن خصومنا الضعفاء جُهال بمعاني الحياة وأسبابها، جبناء في مواقفها... " ¹.

فلقد خالف الإبراهيمي هنا قاعدة الكم مرة أخرى، فلم يعط الإجابة الواضحة المباشرة، وهذا لا يرجع لنقص في المعرفة عنده، وإنما عمد إلى التعريض مبينا أن من هم أكبر من ذلك يقادون به ويساقون فما بالك بأقل منهم فهم أهون. فقد كان بإمكانه القول [الظن فيهم أنهم أهون]، ولكن تجنب التصريح متجنباً للإحراج والتجريح، كما كان بإمكانه ألا يجيب لولا أنه أثر مبدأ التعاون وه و الهم في العملية التفاوضية.

في خرق قاعدة الكيف:

والتي مفادها ألا تقل ما تعتقد أنه كاذب، ولا تقل ما لا يمكنك إثبات صدقه.

النموذج الأول:

" الجَلّالي: مَا هَذِهِ الْأَلْغَازُ يَا جَنَانُ؟ "

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 277.

الجنان: إنَّ الرئيس دائماً (حَرْنَانُ) ¹.

في إجابة (الجنان) لسؤال (الجلاي) قدّم إجابة مخالفة لمضمون السؤال أو مغايرة للسير فيه، وكأنه تهرب من الإجابة بشكل يوحي بأنه يضع اللوم على الرئيس، على الرغم من أن السؤال لم يكن في ذلك التوجه، فلم تلائم إجابته المقام، وأنكر اقتراح الجلاي متهما الرئيس بأنه المتسبب في ذلك، وكأن به يقول: [أن تلك الألباز وغيرها لولا أن الرئيس ليس خرنانا لما كانت].

مع أنه في سياق آخر قد يقضي الجواب توجيه الانتباه إلى طرح السؤال على الرئيس فهو أهل لأن يجيب على مثل هذه الأسئلة.

وفي كلا الحالتين يبقى أن الجنان بإجابته أيا كان مدلولها قد آثر التعاون من خلال تقديم جواب ما.

النموذج الثاني:

قوله: " أفيجوز في حكم الإنصاف أن تؤخذ التقارير عنا من قوم هذا شأنهم؟ نقول (الجهد) فيفهمون (الجهاد) ونقول (الأساس) فيفهمون (السياسة)! ... قالت الإدارة: إنهم محلفون... ².

في هذا المثال وفي إجابة الإدارة الفرنسية (المحتلة) وهي: أن هؤلاء محلفون. هو كذب ظاهر لأي مستمع على اعتبار أن ما صرحت به لا يطابق ما تعتقده أو تفكر فيه.

¹ - المرجع نفسه، ج2، ص 97.

² - المرجع السابق، ج1، ص 198.

وإذا أخذنا في الاعتبار أن الإدارة الفرنسية لم ترفض مبدأ التعاون في هذه المحادثة، وأنها أرادت أن توصل أمراً ما، فلا بد من البحث في قضية لها علاقة بما قيل، والأكيد أن القضية المقصودة في هذا السياق هي نقيض ما صرّحت به الإدارة الفرنسية، ولكنها عمدت إلى المخادعة والمراوغة بتجنب التصريح بالصواب.

النموذج الثالث:

قوله: "ولو قال قائل للحكومة: أخبريني، لقلت له: سلّ قرار «ريني»، ولو قال لها: اعذريني، لقلت: يأبى ذلك قرار «ريني»" ¹.

ففي هذه المحاورة كان بإمكان الحكومة حسب ما طلب منها، أن تقول أعذرك أو العكس لا أعذرك، ولكنها قالت يأبى ذلك قرار ريني، فهي تعلم بأنها إذا ردت بغير ما يجب أن ترد به، فهذا الرد مخالف لما تعتقده، وكان بإمكانها رفض الإجابة ومن ثم رفضت مبدأ التعاون بالأساس، ولكنها أرادت من وراء هذه الإجابة أن توصل أمراً ما يتعلق بهذه القضية [وهو مخالف أو على عكس ما قالت]، وهي في هذا السياق في حالة التباهي أو التعالي بقرار ريني فأرادت تكريسه في كل ردودها.

النموذج الرابع:

قوله: "ولكن بماذا تكون تقوية الشعور الديني وإعداد النفوس للرغبة منه والرغبة فيه؟ أبالكتابة في الجرائد؟ هذا زرع غير مثمر لأن القراءة مفقودة والأمة أميّة والأمر لله" ².

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 313.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 91.

ينصب عدم الإخلال بقاعدة الكيفية بالأساس على التزام الوضوح وتجنب الغموض والالتباس القصدي الذي يحصل عادة عندما تحتل العبارة معنيين أو أكثر، دون أن توجد قرينة منع ذلك، أما المعاني المرادة فقد تكون كلها حقيقة أو بعضها حقيقي وبعضها مجازي أو كلها مجازية.¹

وفي النموذج الذي بين أيدينا كانت الإجابة على السؤال القاضي بإجابة واضحة إن بنعم أو لا أو غيرها، وهو: أبالكتابة في الجرائد؟ إلى الكلام على أن ذلك زرع غير مثمر فالقراءة مفقودة والأمة أمية.

فنتقوية الشعور الديني ليس صحيحا أن يكون بالكتابة ولكن قدم أكثر من احتمال يجعل ذلك غير ممكن في هذا المقام وهذا السياق، وهو عدم الجدوى، القراءة غير متاحة (الناس لا تقرأ)، الأمية (جهل الناس بالقراءة أصلا).

لك أن ترجح واحدة منها تكون الإجابة أو أن تردّها كلها، وكان بالإمكان تجنب الغموض والالتباس، ولكن أخل بقاعدة الكيف، مع ذلك إجابته تبقي على أنه متعاون في هذا الخطاب أو المحاوره.

في خرق قاعدة الملاءمة:

والتي في الأصل تفيد أن يناسب المقام المقال.

النموذج الأول:

¹ - ينظر، العياشي أدراوي، الاستلزام الحوار في التداول اللساني، ص 115.

قوله: " وإنك لتسمع بعض الألسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة نردّد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟ كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم غول السياسة "¹.

ففي هذا النموذج كان لابد أن يوافق المقال المقام وأن يناسبه، لكن نرى أن الإجابة كانت لا تتلاءم مع المقام. وهذا يُفسر على أنه إنكار من الإبراهيمي لمقترح طارحي السؤال وهو (رفض مشاركة العلماء في السياسة وإنكار ذلك عليهم)، فبدل أن يجيب عن معنى المشاركة وعن دوافع وأدوار وأداء المشاركة وغيرها، فبخلاف ذلك ذهب إلى الكلام في سياق موضوع آخر، وهو التخويف والتهويل من المشاركة في السياسة والدخول في معتركها، فكان جوابه: [كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم غول السياسة].

النموذج الثاني:

قوله: " فقلت: أوقد بلغت بي إلى هذا الحد يا أمة الله؟ فقلت: ولا بد من الكتابة عليّ في هذا العدد. فقد كتبت على بعض النفوس فقال الناس أحسنت التصوير "².

في هذا الجواب خروج عن ملاءمة الجواب في هذا السياق للسؤال الذي طرح، وكان يقتضي إجابة واضحة بتحديد المدى الذي وصلت إليه الجريدة في عتاب الإبراهيمي، وفي شكل مفاجئ للرد تحدث عن لابد من الكتابة عنها في العدد الذي سوف يصدر، فلم يناسب هذا المقال المقام وإن كان يوحي برفض فكرة العتاب وأن الإبراهيمي أراد أن يتهرب من موضوع الكتابة عنها

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 258.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج2، ص 215.

فردت إليه من خلال إجابة غير متوقعة، وذلك في ضوء مبدأ التعاون العام من خلال تقديم الإجابة.

النموذج الثالث:

" الجنان: ما لك عن ذكر الإله تَعْفُل؟

الجلّالي: الناس ترقى والرئيس يسفل " ¹.

الشيء نفسه في هذا النموذج أجاب إجابة مخالفة لنسق السؤال بشكل لا يلائم السياق الذي يسير فيه الحوار، وذلك في إنكار تام للطرح المقدم من طرف (الجنان) وهو الغفلة عن ذكر الله. أو بالتوجه إلى أن هذا السؤال يتعلق بالرئيس - من خلال تقديم وصف له - ولا يتعلق به هو منكرا بذلك غفلته عن ذكر الله.

في خرق قاعدة الجهة:

النموذج الأول:

قوله في قصيدة بعنوان تساؤل نفس:

" سؤال: أين - يا أخت - الحسام المنتضى ** لصروف الدهر في اليوم العصيب

أين - يا أخت - الإمام المرتضى ** ذو البيان الحرّ والرأي المصيب

أين؟ من أن أمحل الفكر مضى ** يرحض الأمحال بالفكر الخصيب

جواب: جاءه المحتوم من صرف القضاء ** فقضى، لم يرض بالدنيا نصيب ¹

¹ - المرجع نفسه، ج2، ص 95.

في هذا النموذج قدم إجابة بشكل غير صريح، مقدما توصيفا مجازيا للموت، فكان بالإمكان أن يجيب بأنه مات، ولكن نظرا للسياق وللضرورة بأن يجيب ببيت شعري فقد قدم الإجابة بشكل فيه من الالتباس والغموض وعدم الوضوح، فهو إضافة إلى الضرورة التي تحدثنا عنها، خاصة مع الإلحاح في السؤال فكان الأولى أن تكون الإجابة صريحة لا مضمنة أو أن يعترئها شيء من الغموض. كل ذلك في ضوء الإقرار بمبدأ التعاون الذي أثره خلال تقديم الإجابة وعدم الامتناع.

النموذج الثاني:

" ثم قال: بماذا أضعنا فلسطين؟

الجواب: أضعناها بالكلام؟².

في جواب لسؤال بماذا أضعنا فلسطين؟ ربما كان سيجيب أضعناها بكذا وكذا... ولكن اختزل كل ذلك بشكل تعريضي، قائلا: أضعناها بالكلام. فهل للكلام أن يضيع فلسطين؟ يقصد من وراء ذلك أن أضعناها بعدم العمل وأداء الواجب. فكل تارك لأداء مهمته وواجبه يُعرّض عليه بالوصف بأنه مجرد متكلم، فالكلام هنا ليس مقصودا في ذاته، وإنما المقصود المفهوم العام منه، وهو عدم العمل والتخلي عن أداء الواجب.

النموذج الثالث:

" النبّهاني: أتعرف هذا؟

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج2، ص 38.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 283.

مرافق الإبراهيمي: وكيف لا؟ هذا الشيخ رضا.

النبهاني: هذا أضر على الإسلام من ألف كافر¹.

فيرد مرافق الإبراهيمي في شطره الأول، وكيف لا؟ كان بإمكان القول والاكتفاء بأعرفه، أو نعم، ولكن قصد من خلال هذا الجواب وطرحه بهذا الشكل بأن يشنّع به ويشهّر به، فأنت تسأل عمّن يعرفه كل الناس لا بحسن عمله أو مواقفه بل لسوء ما هو عليه، فعلى الرغم من أن إجابة وكيف لا؟ تقضي بأنه يعرفه إلا أنه تؤخذ من ورائها مدلولات عديدة مضمرة، وهي تلك المقصودة من هذا الجواب فحملت معنى الحقيقة وعدمها.

¹ - المرجع نفسه، ج1، ص 180.

الفصل الثالث:

الاقتضاء في كتابات إبراهيم وظائفه الحجاجية

1- حجاجية المقتضى المعجمي لبعض

الكلمات

2- المقتضى التركيبي ووظائفه الحجاجية

3- الاقتضاء واتساق الخطاب

تعتبر اللغة نسقا ملتبسا، وهذا الالتباس كامن في جوهرها، لذلك يكون استعمالنا لها استعمالا غير محدد على النحو الذي نريد، فالإمكانات القولية التي تتيحها تفرض على المستعمل الاختصار على قول دون آخر، وهذا الاختيار مؤسس على العلاقات التي ينسجها الفكر بين الأقوال، فيتم إلغاء بعضها والإبقاء على بعضها الآخر تحت دافع الاقتصاد في الجهد وضغط الشروط المقامية.

وأمام هذا المعطى " يخضع الإنتاج اللساني للتكثيف تارة والانتساع تارة أخرى حسب مقتضيات المقام، فتنشأ بذلك بؤرة صريحة وأخرى مضمرة داخل الخطاب... وكلما وظف المتكلم الاستراتيجية الإضمارية في الخطاب، إلا وشغل المخاطب آلية فك الإضمار باعتماد قرائن مقالية ومقامية"¹.

وينقسم المعنى المضمّر (L'implicite) إلى تضمينات (Sous-entendus) واقتضاءات (Présuppositions) واستلزمات (Implications)، ويعد الاقتضاء أحد أبرز أشكال الإضمار.²

كما حظي الاقتضاء باهتمام بالغ في الدراسات الأصولية والحجاجية والدلالية والتداولية وغيرها، وقد تنبّه الباحثون إلى قوته الحجاجية في الكلام، وأشاروا إلى أهميته في الكشف عما يخفيه الخطاب من معان مضمرة وعما تضمنه ثنايا الكلمات من بنيات غير مصرح بها.

¹ - محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية: ضمن التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف وتقديم: احمد قادم وسعيد العوادي، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن، ط1، 2016، ص 91.

² - ينظر: دومينيك مانغينو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 2008، 105.

مفهوم الاقتضاء :

الاقتضاء لغة مصدر مشتق من " قضى يقضي قضيًا وقضاء، بمعنى حكم وفصل بين الخصمين؛ أي: فصل وحكم، وقضى الله: أمر، ومنه قوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا)¹. وقضى الدين: أداه. والاقتضاء: الطلب والاستلزام من الفعل اقتضى، وقولهم اقتضى الدين أي طلبه، واقتضى أمرا: استلزمه وتطلبه، ويقال: افعل ما يقتضيه كرمك؛ أي: ما يطالبك به. وسهل الاقتضاء: الطلب. واقتضيت مالي عليه؛ أي قبضته وأخذته. واقتضى الأمر الوجوب دل عليه"².

ويعرف معجم اللسانيات* الاقتضاء بكونه تلك " العلاقة التي تجمع بين وحدتين لسانيتين (Unités linguistiques؛ إذ إن حضور إحداها في هذه السلسلة شرط ضروري لحضور الأخرى...

¹ - سورة الإسراء، آية 23.

² - لسان العرب، فصل (قضى).

* - تتداخل في هذا التعريف مجموعة من الجوانب المتحركة في الظاهرة الاقتضائية كالمنطق والدلالة والتداول، ومن المصطلحات التي اختارها المترجمون العرب مقابلا للمصطلح الفرنسي *presupposition* والانجليزي *presupposition* :

- التضمنين: اختاره عبد القادر الفاسي الفهري، معجم المصطلحات اللسانية: إنجليزي- فرنسي - عربي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، لبنان، 2009، ص 262/217/197/181/98/38/36.

- الافتراض - الافتراض المسبق: استعملت " ريتا خاطر " في ترجمتها للمصطلح الغربي مصطلح " الافتراض "، فلم تكتف بهذا المصطلح بل استعملت مصطلحا آخر وهو الاستلزام، المضمّر، ص 636. في حين اختار مترجم " المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب " محمد يحياتن مصطلح الافتراض المسبق معتمدا في ذلك ترجمة حرفية، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 105. وترجم محمود أحمد نخلة المصطلح الغربي بـ " الافتراض السابق "، محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 26.

والاقتضاء هو القضية المضمرة (أو القضايا) التي تستبق منطقيا قضية أخرى صريحة،
تفترض صدق جميع الأحوال المقررة في القضية الثانية، وتقتضي القضية (أ) القضية (ب) إذا
كانت القضية (أ) ونفيها يستلزم تماما القضية (ب) ...

ويثبت صدق الاقتضاء بمراعاة عالم الخطاب الذي هو مرجعه، فإذا كان المقتضى كاذبا
نستنتج أن القضية كاذبة هي الأخرى أو يتعلق الأمر باستعمال مفرط للغة... والاقتضاء باعتباره
مفهوما تداوليا يستلزم مطابقة بين الملفوظ وسياق تلفظه... كما يضمن الاقتضاء اتساق الخطاب
من خلال تقادي التكرار عديم الجدوى، إنه يفرض على المنخرطين في التواصل إطارا ضمنيا
للخطاب".¹

وفي الثقافة الغربية عموما فقد عرّف المقتضى تعاريف متعددة تختلف باختلاف الأطر
المرجعية التي تحكم كل باحث، إلا أنها في عمومها تعارف يغلب عليها إما الطابع المنطقي /
الدلالي* أو الطابع التداولي.

- **الاقتضاء**: هذه الترجمة اختارها طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 415. التوجه نفسه سار عليه أصحاب " **التداوليات علم استعمال اللغة** ".

ويرجح الرأي القائل بـ " الاقتضاء "، ذاك أن بنية الاقتضاء كما عرفها الأصوليون تشبه إلى حد بعيد بنية الاقتضاء
لدى التداوليين الغربيين من خلال الشرطية الضرورية التي يتميز بها المقتضى، بالإضافة إلى الخاصية الإضمائية،
ثم أسبقية المقتضى على المقتضي، وهذا ما يشترك فيه الأصوليون مع التداوليين الغربيين في مسألة الاقتضاء.
راجع: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية: ضمن التحليل الحجاجي للخطاب، ص 93، 94.]

¹ - ينظر: Jean Dubois, Dictionnaire de linguistique, 1^{ere} édition, Larousse, Canada, 1994, p 378. نقلا عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ص (93 - 96).

* - من الملاحظ أن التعاريف ذات الطابع المنطقي / التداولي قد استندت إلى معياري الصدق والكذب في تعريفها
للاقتضاء، ولتأكيد ذلك نورد تعريفين منطقيين / دلاليين للاقتضاء: أولهما لـ " ستراوسن " يقول فيه: المنطوق (أ)
يقتضي (ب)، عندما تكون حقيقة (ب) شرط مسبق يحتمل الصدق أو الكذب لـ (أ). أما ثانيهما فيعود
إلى " فان فراسن "، يقول فيه: (أ) يقتضي (ب) فقط إذا:
- (أ) صادق فإن (ب) صادق كذلك.

ظهرت مجموعة من التعاريف التداولية للمقتضى استندت إلى " الاعتقادات والخلفيات المشتركة بين المتخاطبين "¹، فلم يعد المخاطب يتوقف على المكونات اللسانية للجملة لوحدها في توصيله للاقتضاءات، وإنما استعان في ذلك أيضا بالاستناد إلى المعارف والحقائق التي يشترك فيها مع مُتكلّمه.

يقول " ستالنكر " : " إن مفهوم الخلفية المشتركة هو أول تقريب لمفهوم الاقتضاء التداولي الذي أود أن استخدمه هنا. تعتبر قضية " ق " اقتضاء تداوليا لمتكلم ما في سياق معين إذا افترض المتكلم " ق " أو اعتقد أن " ق "، واعتقد وافترض أن المخاطب يفترض أو يعتقد بـ " ق "، وافترض أو اعتقد أن المخاطب على دراية بأن المتكلم يضمن هذه الأشياء أو يعتقد بها "². وهو في هذا التعريف جعل المعرفة المشتركة بين المتخاطبين شرطا ضروريا لصياغة الاقتضاء.

ويذهب " ديكر " إلى أن كل عمل لا قولي يفترض تحقيق عمل اقتضاء، لذلك فإن تحليل الاقتضاء يتحدد من المكون اللغوي باعتباره عنصرا دلاليا من القول³.

ويعتبر " ديكر " المقتضى فعلا لغويا وموقفا من المتكلم، له خصائصه ووظائفه، إنه فعل كلامي خاص، فعل مثل الإثبات أو الاستفهام أو الأمر، لأنها تقوم بتعديل العلاقات بين الذات المتخاطبة. وتكمن خصوصية الاقتضاء في الطريقة التي يفرض بها على المخاطب إطارا لاستمرار الخطاب: يجبره على الفعل وكأن محتوى الاقتضاء حقيقة مؤكدة لا يمكن أن يعاد النظر

- (أ) كاذب فإن (ب) صادق. [راجع إحالة هذين التعريفين ضمن: أحمد كروم، أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاتهن ج1، ص 148].

¹ - بن عسي أزييط، الخطاب اللساني العربي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012، ص 35.

² - Robert C. Stalnaker: Pragmatic presupposition. نقلا عن: الزماني كمال، حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي - كرم الله وجهه-، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016، ص 285.

³ - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 372.

فيها، وإذا وجد ربط فهذا الأخير لا يمكن من حيث المبدأ أن يؤدي إلا على مستوى المثبت وليس على مستوى المفترض.¹

فالافتضاء حسب مسجل في بنية اللغة ويدرك من خلال الحدود اللسانية للملفوظ، كما يظم كل المعلوم المستفادة من التلفظ مباشرة، بغض النظر عن طبيعة ذلك التلفظ الذي وردت فيه، أو السياق سواء أكان في علاقة مباشرة بالرسالة أم لا، فهو لا يخضع لاعتبارات سياقية محددة، الشيء الذي ينأى به عن الدحض والإنكار

كما قد يحتاج أحيانا إلى معرفة مشتركة بين أطراف العملية التواصلية، تساعد المتكلم على الصياغة كما تقوم المخاطب إلى الفهم (فهمه).

من خلال التعريفات السابقة للافتضاء نستنتج ما يلي:

- الافتضاء علاقة تشارطية بين وحدتين لسانيتين، فالعلاقة الشرطية من جانب واحد والتشارطية متبادلة بين الجانبين، فيكون المقتضى شرطا لتحقيق المقتضي، والعكس صحيح، كما تكون الشرطية مزدوجة، والمقصود بازدواج الشرط هنا أن يكون المقتضى شرطا للمقول المقتضي ولنقيضه معا.²

- الافتضاء علاقة بين قضية صريحة وأخرى مضمرة، فالقضية الصريحة " أ " تقتضي القضية المضمرة " ب "، إذا كانت القضية " أ " ونفيها يتضمنان القضية " ب ".³

¹ - ينظر: جون سيرفوني، اللسانيات التداولية، تر: الحاج حمو ذهبية، مجلة اللسانيات، ص 2. نقلا عن: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني...، ص 165، 166.

² - ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 111.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص (114 - 116).

- الاقتضاء حاصل في البنيات المعجمية، فبعض الكلمات تحوي مقتضيات في حد ذاتها بالرجوع إلى معانيها المعجمية، وحاصل كذلك في البنيات التركيبية؛ إذ ينظمها اقتضائيا لينجم عن تركيبها مقتضيات دلالية.
- الاقتضاء علاقة للقول بسياقه الذي قيل فيه، إنه مطابقة بين الملفوظ وسياق تلفظه، فكل كلام ينبغي أن يكون مناسباً للسياق الذي قيل فيه.
- يقوم المقتضى بمهمة حفظ إطار التخاطب، فمادام المتكلم يقدم مقتضياته على أساس أنها مسلمات، ومادام المخاطب لا يعارضها فإنها تشكل أرضية متوافقة بشأنها، وهنا تظهر الفاعلية الحجاجية للاقتضاء¹.
- كما تجدر الإشارة إلى أن القدامى اعتبروا الاقتضاء Présupposition، إجراء تعتمده اللغة في نشاطها التحويري، ومفهوما تقصده العبارة في حجاجها المنطقي والتداولي.²

* - هذا التصور التداولي للاقتضاء يتم في إطار التداولية المدمجة التي تدمج التداول في الدلالة، وسنعمل على تبين ذلك في لاحق البحث فيما يتعلق بالجانب التطبيقي في الكلام على تعالق الاقتضاء والحجاج معا في هذه النظرية.

¹ - ينظر: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الخطابى للحجاج، ص 96، 97.

² - ينظر: أحمد كروم، أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته...، ص 339.

** - يدخل مفهوم الاقتضاء عند الأصوليين في باب دلالة الألفاظ على المعاني، ويتفق معظمهم في تعريفه بكونه دلالة اللفظ على معنى مضمّر لازم للمعنى الذي وضع له، ومتقدم عليه، ومقصود للمتكلم، وجب تقديره ضرورة لتوقف صدق الكلام أو صحته العقلية أو الشرعية عليه.

فيعرفه الشريف الجرجاني بقوله: "هو عبارة عن جعل غير المنطوق منطوقا لتصحيح المنطوق. ومثاله: (فتحرير رقبة) وهو مقتضى شرعا لكونها مملوكة؛ إذ لا عتق فيما لا يملك ابن آدم " [راجع: الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 191]. فيزاد عليه ليكون تقدير الكلام: فتحرير رقبة مؤمنة.

يمثل الاقتضاء بنية أساسية لها دور فعال في مجال الدرس التداولي الحجاجي، فالأقتضاء " إجراء تعتمده اللغة في نشاطها التحويري، ومفهومها تقصده العبارة في حجاجها المنطقي والتداولي".¹

والمبدأ المنظم لإطار المحادثة وإطار الخطاب عموماً، هو عمل الاقتضاء باعتباره عملاً لغوياً وموقفاً من المتكلم له خصائصه ووظائفه.

وللأقتضاء مظهر مهم في العملية الحجاجية بين المتخاطبين فهو ييسر إدخال المخاطب ضمن عالم اعتقادات المتكلم أو الإيهام بذلك على الأقل، بغية فرض قوله وما يستلزمه حجاجياً من طرق في مواصلته.²

ولابد من إحلال المقتضى المحلّ الذي يحتله فعلاً ضمن التفاعل اللغوي بين المتخاطبين. فهو ليس رهين المحادثة وظروفها المقاميّة وتفاعل الذاتيات المتجاذلة عند استعمال اللغة فحسب؛ بل هو مندرج في مستوى المكوّن اللغوي، " ويقدم المتكلم الاقتضاء لغوياً على أنه جانب مشترك

كما عرّف الآمدي المقتضى تعريفاً شاملاً، قال فيه: " هو ما كان المدلول فيه مضمراً، إما لضرورة صدق المتكلم، وإما لصحة وقوع الملفوظ به " [راجع: الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ط1، ص 81، 82]. وقد عرّفه أبو حامد الغزالي تعريفاً مفصلاً، قال فيه: " هو الذي لا يدل عليه اللفظ، ولا يكون منطوقاً به، ولكن يكون من ضرورة اللفظ، إما من حيث لا يمكن كون المتكلم صادقاً إلا به، أو من حيث يتمتع وجود الملفوظ شرعاً إلا به، أو من حيث يتمتع ثبوته عقلاً إلا به " [راجع: أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ج3، ص 403].

ومن خلال ما سبق في تحديد مفهوم الاقتضاء عندهم، تحدد عناصر بنية الاقتضاء فيما يلي:

- * المقتضى: هو المذكور الذي يتطلب أمراً مضمراً ليستقيم صدق الكلام أو صحته العقلية أو الشرعية.
- * المقتضي: هو المضمّر الذي يصح به المذكور (المقتضى).
- * دلالة الاقتضاء: هي الدلالة الناتجة عن اقترانهما معاً.
- * حكم المقتضى: هو الحكم الثابت بعد تقدير المقتضى.

¹ - أحمد كروم، أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب، ص 139.

² - ينظر: شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف أهم نظريات الحجاج...، ص 374.

بينه وبين المخاطب، وبما أنه مشترك بين المتخاطبين فلا يمكن من ثمة إلاّ قبوله¹؛ أي قبول المقتضى. ويعتبر الاقتضاء علاقة تداولية* بين الأقوال لا علاقة دلالية بين القضايا.²

هذا ويتصل الحجاج بالأطراف المكونة لبنية الاقتضاء (القول - المقول - المقتضى)، لكونه يوجد دائما عندما يتعلق الأمر بجل أو افتراض، أو استعطاف أو مبالغة، أو شرط أو تحضيض...، أو أي غرض مقولي يتعين في الجملة بإشكال ما. وهو إطار تتم فيه المحاورة ويعبر عن اختيار خاص للمتكلم في استعماله انسجاما مع مقتضيات الخطاب المفهوم من خلال العناصر الثلاثة، أو من خلال عنصري المنطوق والمقتضى.³

ونحن هنا بصد القيام بمقاربة حاجية خطابية للاقتضاء، لأنها تهتم بالوظائف الحجاجية لهذه الظاهرة المركبة، وتبحث في الجزء التداولي المدمج في الدلالة، المسجل في أبنية اللغة وتوضيح شروط استعمالها الممكن.

فالاقتضاء من زاوية التداولية والتداولية المدمجة ملفوظ كامن في الوحدات اللسانية الصغرى والكبرى، وتلفظ تداولي حامل لموجهات حاجية.**

¹ - المرجع السابق، ص 373.

* - قاد هذا الرأي - القائل بأن الاقتضاء علاقة تداولية - إلى ظهور توجهين مختلفين من حيث تقاليدهما دون أن يكون أحدهما مقصيا للآخر؛ إذ نجد من ناحية نظرية تجعل من الاقتضاءات مجموعة من الاعتقادات الحلفية لأقوال المتكلم، ونجد من ناحية أخرى نظرية تجعل من الاقتضاءات مجموعة من شروط اتساق الخطاب. [راجع: القاموس الموسوعي للتداولية، ص 249].

² - ينظر: آن روبول، وجاك موشلار، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 249.

³ - ينظر، أحمد كروم، أدوار الاقتضاء وأغراضه الحجاجية في بناء الخطاب، ص 143.

** - وقد أجاد أصحاب الفروق اللغوية حينما دققوا في أهمية الأدوار اللغوية للاقتضاء، حيث ذكر العسكري في (معجم فروق اللغة) أن للاقتضاء سياقات لغوية تدعو المتكلم للاحتجاج والمطالبة بها في ظروف مختلفة. فقال: "الفرق بين الاقتضاء والطلب: أن الاقتضاء على وجهين: أحدهما اقتضاء الدين؛ وطلب أدائه والآخر مطالبة المعني لغيره كأنه ناطق بأنه لا بد منه، وهو على وجوه منها: الاقتضاء لوجود المعني كإقتضاء الشكر من حكيم

وعلى هذا الأساس سنقوم برصد تجليات الظاهرة الاقتضائية في الكلمة والتركيب، ثم إبراز الوظائف الحجاجية التي تؤديها هذه الاقتضاءات في سياق الخطاب ككل من خلال ربطها بالعناصر التداولية، على اعتبار أن تصور التداولية المدمجة يعتبر اللغة حاملة لمتتالية من الإمكانيات الحجاجية المسجلة في معجمها وفي بنتياتها التركيبية المختلفة، وهذه الإمكانيات تتحقق داخل الخطاب من خلال إعطاء الأولوية للعلاقات الخارجية¹.

وقد قسم المقتضى في التداوليات إلى أجزاء متعددة، وقسم تقسيمات مختلفة، إلا أنه يمكن عموماً حصرها بحسب طبيعة السند المسؤول عن وجوده في قسمين اثنين، وهما:

- المقتضى المعجمي.

- المقتضى التركيبي.

وهو ما سنتناوله بالدراسة هنا مع مدونتنا، بالإضافة إلى دور الاقتضاء في اتساق الخطاب.

1/- حجاجية المقتضى المعجمي لبعض الكلمات:

المقتضى موجود في مستويات الكلام، ومنها مستوى الكلمة، ويسمى البعض الحاصل منه في الكلمة مقتضا معجمياً ويشمله المقتضى الدلالي، ويعرف بأنه: "ما ينشأ عن معنى الوحدة المعجمية، فكلية (يرفض) في جملة (يرفض فلان أن ينام) تقتضي أنه طلب إليه أن ينام، وهو

لوجود النعمة، وكاقتضاء وجود النعمة لصحة الشكر، وكاقتضاء وجود مثل آخر وليس كالضد الذي لا يحتمل ذلك [راجع: أبو هلال العسكري، معجم فروق اللغة (الفرق بين الاقتضاء والطلب)].

¹ - ينظر: L'argumentation dans la langue, p8. نقلاً عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة...، ص

مقتضى ناجم رأساً عن معنى يرفض "1، وفي العادة ما يُصاغ ما نفرضه على سامعينا في شكل مقتضيات " فالمقتضى وسيلة حاجية ناجعة "2.

إن المسائل المتعلقة بالمقتضى المعجمي أكبر من أن تحصى في هذا المقام، ولكننا نلخص ما يهمننا منها في بحثنا هذا في النقاط التالية:

1/- إنَّ المقتضى المعجمي مأتاه معنى الكلمة المعجمي وهو ما يقتضي منا عند البحث في مقتضى الكلمة عند الإبراهيمي أن نتدبر معناها المعجمي بأقصى قدر ممكن.

2/- إنَّ المقتضى المعجمي الذي للكلمة يشكّل محتواه، فيما نرى " ملفوظاً " يقبع تحت المُحتوى الملفوظ للمنطوق.

3/- من شأن المقتضى المعجمي أن يسم الملفوظ الذي يحمله بميسم دلالي وحاجي خاص أي بما يسميه ديكر، عند تحديد دور الكلمة في الملفوظ.³

وفي الواقع شبه استحالة أن نأتي على جميع الكلمات في كتابات الإبراهيمي، بحثاً عن مقتضاها المعجمي لذا ركزنا على الكلمات الأكثر تواتراً وهيمنة في خطابه، والتي تحمل بين طياتها مقتضيات معجمية، فحصلنا على مجموعة من النتائج اخترنا منها كلمات لم نقف بالضبط عند عدد تواترها وذلك لسعة المدونة مما يفضي بصعوبة إن لم نقل باستحالة إحصائها بشكل دقيق، لذا وقفنا عند تبين مقتضاها المعجمي الناجم عنها، لننتقل في الأخير إلى إبراز حاجية هذا المقتضى.

¹ - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 89.

² - المرجع نفسه، ص 89.

³ - المرجع نفسه، ص (89 - 91).

والكلمات التي اخترناها لإبراز مقتضياتها المعجمية من كتابات البشير الإبراهيمي هي:

الإيمان - الفتنة - الحق - الخير - الكفر - الظلم - الدين - الحرب - الإسلام - الإصلاح.

ومع كل تخريج للمقتضى المعجمي لتلك الكلمات سنمثل لكل منها بمجموعة من النماذج

من خطابات الإبراهيمي على النحو الذي يكون فيه للكلمات عدد من المقتضيات التي تستنبط من بنيتها، والتي تكون منغرسه بالضرورة في هذه البنية.

وتبيان ذلك أن قولنا " ضرب " مثلاً يقتضي:

- وجود من قام بالحدث أي " الضارب "، لأن " الفعل حديث وخبر فلا بد له من محدث

عنه، يسند ذلك الحديث إليه وينسب إليه، وإلا عدمت فائدته " ¹.

- وجود الذي وقع عليه الضرب أي " المضروب "، لأن " الضرب نسبة بين الضارب

والمضروب لا يقوم بأحدهما دون الآخر، بل بهما لصدوره عن أحدهما ووقوعه على

الآخر " ².

- وجود سبب للضرب " لأنه علة وعذر لوجود الفعل، والعلة معنى يتضمنه ذلك الفعل،

وإذا كان متضمناً له صار كالجزم منه يقتضي وجوده وجوده " ³.

وهكذا في الكلمات الحاملة لمقتضيات معجمية، فإن ورود أي منها في الخطاب يحمل معه عدداً

من المقتضيات التي تكون إما:

- دالة على الحدث.

¹ - ابن يعيش، شرح المفصل، ج1، ص 199.

² - الرضي الاسترادي، شرح الرضي على الكافية، ج1، ص 187. . نقلاً عن: الزماني كمال، حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 295.

³ - ابن يعيش، شرح المفصل، ج1، ص 451.

- أو دالة على سبب الحدث.
- أو دالة على القائم بالحدث والمتحمل له.
- أو دالة على الذي وقع عليه الحدث.
- أو دالة على المفضل والمفضل عليه والصفة التي يزيد فيها أحدهما على الآخر بالنسبة لاسم التفضيل ... وغيرها من الاقتضاءات الأخرى¹.

المقتضى المعجمي لكلمة " الإيمان " :

قال ابن منظور: " قالوا للخليل ما الإيمان؟ قال: الطمأنينة² وجاء عنه كذلك قوله: " واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق³ ضد التكذيب.

فالإيمان يرد بمعنى الطمأنينة، كما يحمل معنى نقيض التكذيب. قال تعالى: (وما أنت بمومن لنا ولو كنا صدقين)⁴، قيل معناه بمصدق لنا، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن⁵.

وفي الحديث النبوي عن الإيمان قال: " أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره^{6*} أي: أن تصدق بكل هذا.

¹ - ينظر: ريم الهمامي، الاقتضاء وانسجام الخطاب، ص 294.

² - لسان العرب، فصل (أمن).

³ - المصدر نفسه، فصل (أمن).

⁴ - سورة يوسف، آية 17.

⁵ - ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: مكتب الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، ج1، مكتبة نزار مصطفى للنشر، (د ط)، (د ت)، ص 25.

⁶ - صحيح مسلم، ج1، ص 28.

* - هذا جزء من حديث طويل للنبي - ﷺ - بين فيه معنى الإسلام والإيمان والإحسان [راجع: صحيح مسلم، ج1، ص 28].

وفي التنزيل العزيز (وءامنهم من خوف) ابن سيده: الأَمْن نقيض الخوف¹.

فلإيمان يقتضي عدة معان: أنه ضد الكفر، والتصديق ضد التكذيب وهو أيضا نقيض

الخوف.

ومن أمثله في خطابات الإبراهيمي:

- " ومن مظاهر الاعتماد على النفس في الأعمال التي ذكرنا، وإلّا إيمان بوجود بشيء اسمه الأمة"².

- " يعتقد المسلمون كلهم أن سلفهم كانوا أكمل إيماناً من خلفهم وهذا صحيح، ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الإيمان في السلف... وما دام الكلام في الإيمان... وقد كانوا يؤمنون بأنه كل لا يتجزأ... فوجوده يعرف الإيمان بالصفات اللازمة... من الآيات الجامعة لشعب الإيمان وخصاله... ففهموا من القرآن ما هو الإيمان وما هي الأعمال الصالحة، فأمنوا وعملوا الصالحات وكان إيمانهم أكمل إيمان بالعمل... منذ صاروا يفهمون الإيمان من القواعد التعليمية... حتى ضعف إيمانهم... إلى قولهم إن الإيمان هو التصديق..."³.

- " أن هؤلاء المجاهدين لا يقاتلونه بالأسلحة التي تعرفها الحرب، وإنما يقاتلونه بسلاح الإيمان والثقة بالله وبالنفس"⁴.

¹ - لسان العرب، فصل (أمن).

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 187.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 326.

⁴ - المرجع نفسه، ج5، ص 247.

إن كلمة " الإيمان " إذا جاءت على شاكلة " المؤمنون " و " الذين آمنوا " إذ جاءت لتفيد معنى " المطمئنين " و " المصدقين "، فهي تشريف للموصوفين بها، وتقيد اقتضاء " النجاة من الخوف والخروج منه إلى فسحة الأمل والطمأنينة " ¹.

ويفاد المعنى الاقتضائي في الكلمة من دورها في تذكير المخاطبين بحالة الخوف متعدد الأشكال - أي الخوف من العدو ومن الفقر والمرض والجوع والعذاب.... - التي كانوا عليها قبل لحظة الإيمان، وفي ذلك التذكير الدائم ترغيب دائم في التزام الإيمان والعمل بمقتضاه على جميع المستويات.

إن ارتباط كلمة " الإيمان " بالأوامر والنواهي، وبالنظر إلى مقتضاها الذي يحضر المتلقي، من شأن ذلك أن يعين على إنجاح الفعل الإنجازي طمعا في الأمن واستمرار النعمة. ²

المقتضى المعجمي لكلمة " الفتنة ":

كلمة " الفتنة " في اللغة تدل على " الابتلاء والامتحان والاختبار " ³. كما تدل كذلك على " الضلال والإثم " ⁴. فالفتنة: المضلُّ عن الحق والفتنة: الشيطان لأنه يضلُّ العباد... بخداعه وغروره وتزيينه للمعاصي ⁵. يقول تعالى: ﴿ ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ ⁶

¹ - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 127.

² - ينظر: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني...، ص 246.

³ - لسان العرب، مادة (فتن).

⁴ - المصدر نفسه، مادة (فتن).

⁵ - المصدر نفسه، مادة (فتن).

⁶ - سورة الصافات، آية 162.

أي " بمضلين إلا من أضله الله تعالى " ¹.

وانطلاقاً من هذه المعاني فإن توظيف الإبراهيمي لهذه الكلمة في كتاباته تخلق فيها عدداً

من المقتضيات نذكر منها:

• أن الفتنة بمعنى " الامتحان " تقتضي:

- وجود ممتحن: وهو الله تعالى الذي يمتحن صمود هؤلاء المخاطبين أمام الفتن التي حلت بهم، فضلاً عن امتحان حقيقة إيمانهم وصدقهم.

- وجود ممتحن: وهم المخاطبون الذين يجب عليهم النجاح في هذا الامتحان لإظهار صحة إيمانهم وصدق إخلاصهم لله تعالى.

- وجود موضوع للامتحان: وهو يتجسد في مختلف الفتن التي حلت بالمخاطبين ابتداءً من فتنة الاحتلال وما يتبعه من سوءات، إلى الافتتان في دينهم ومساومتهم بحياتهم.

ومثاله من قول الإبراهيمي:

- " فقد أفاقت من نومتها في عجيح من الأصوات اختلط فيها الناصح بالغاش، وعلى فتنة متماحلة التبس فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال " ².

- " وسألناه توفيقاً يعصم من مصارع السوء ويقي من مزلق الفتن " ³.

• أن الفتنة بمعنى " الضلال " تقتضي:

- وجود ضال: ويمثله عادة فئة من المخاطبين.

¹ - محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، مادة (فتن).

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 242.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 272.

- وجود سبب للضلال: ويتمثل ف خضوع هؤلاء المخاطبين لأهوائهم ورفضهم محاربة المفتتين وتثاقلهم عن الجهاد وضعفهم وجبنهم.

- وجود مَضِل: ويمثله كل من حاول إحداث الفتن السابقة ابتداء بالاستعمار وحكومته إلى من والاهم وعمل على إثارة الفتن، كـبعض الطريقين وبعض موظفي الحكومة الاستعمارية، وكذا الجلة الذين تنطوي عليهم كل حيلة.

ومثاله من كتابات الإبراهيمي:

- " فقد اختار القائمون عليها من شخوص الجن أصلح الأوقات لإثارة الفتن، وأمتن الأسباب لتحريك الاحن،... وأصحابنا لا عقول لهم وإنما هم أتباع أهواء وأبواق فتنة ¹."

- " وأوصانا بأن لا نغمس يدا في فتنة وأن لا نبدأ أحدا بالقتال ²."

- **المقتضى المعجمي لكلمة " الكفر " :**

جاء في لسان العرب: الكفر نقيض الإيمان، وكفر النعمة جحودها، وهو ضد الشكر، ورجل كافر أي جاحد لأنعم الله، والكفر مشتق من السَّتر؛ لأنه مغطى على قلبه. وهو كما أقره أهل العلم على أربعة أنحاء: كفر إنكار، كفر جحود، كفر معاندة، وكفر نفاق. ³

وأصل الكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه. وقيل: هو من التكفير الذل والخُصُوع. ⁴

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 276.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 247.

³ - لسان العرب، مادة (كفر).

⁴ - لسان العرب، مادة (كفر).

ويمكن إرجاعها كلها إلى المعنى الجامع بينها وهو عدم الاعتراف بالإنعام والنعمة والمنعم والعمل بمقتضى ذلك.¹

وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك أداء شكرها، وأعظم الكفر جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود. والكفر وصف جار على كل من هو فاسق أو فاجر.²

فالكفر يحمل فيما يحمل من معانيه: أنه نقيض الكفر، وهو العصيان والامتناع، وهو جحود النعمة. كما أنه نقيض الشكر، وهو - أي الكفر - الستر والتغطية، وكذا معناه الدل والخُصُوع.

وإذ اعتبر " الراغب " مقتضى " الكفر " جحود النعمة، فذلك مناط القيمة الحجاجية للمعنى الاقتضائي لها.

ومن أمثلة ذلك في كتابات الإبراهيمي:

- " وإن أزهر الصحائف في سجل حياته* هي تلك المواقف العاتية التي كان يقفها في

الدفاع عن الإسلام ونصره، ورد عداوي الكفر والضلال عنه "³.

- " وليس عندنا إلا مسألة واحدة يعدّ التساهل أو الغلط فيها جريمة بل كفرًا، وهي

¹ - ينظر: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني...، ص 246.

² - ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (433 - 435).

* - الضمير عائد على حامل لواء الإصلاح الإمام السيد محمد رشيد رضا تلميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

³ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 179.

مسألة الحقوق الشخصية الإسلامية¹.

إن وصف فعل فئة من المخاطبين هنا بالكفر وما يجري في معناه كالفسور والظلم أمر ضيّق لهم بما يفيد منطوق الوصف " الكفر " و " كفرا " ، ولو كان ذلك لحظة إنجاز الفعل ، وكذا خلق حقيقة ثابتة يتضمنها مقتضى اللفظ / الوصف .

ويحمل الملفوظ الوصفي " الكفر - كفرا " اقتضاء لحقائق ثابتة جدها المخاطبون ، ويقدم هذا المقتضى ضمن الملفوظ على أنه من الحقائق الثابتة التي لا تقبل النقاش وذلك في علاقة اتصال تام مع منطوق الوصف " الكفر - كفرا " الذي يفيد جحود تلك الثوابت (نعمة الإسلام و مسألة الحقوق الشخصية الإسلامية) ، فما يربط منطوق الوصف ومقتضاه هو علاقة تحصيل حاصل* ؛ وبهذا الاعتبار فإن " الوظيفة التي تقوم بها الاقتضاءات بالنسبة إلى المحتويات المنطوقة هي نفسها الوظيفة التي يقوم بها العمق بالنسبة إلى الصورة في نظرية الصورة"².

أما في قول الإبراهيمي:

- " أما الطريقون فلعلمنا أنهم رمونا بالكفر فكيف بما دونه؟... "³.

فقد ارتبط مقام إيراد مقتضى " معنى الكفر " بوظيفة إثارة غضب المخاطب ، والذي في أغلبه يتجه نحو النزاع والخصام بين صاحب الخطاب والمستهدف به . وإن كان هنا المستهدف هو

¹ - المرجع السابق ، ج1 ، ص 249 .

* - وردت مجموعة من صور هذه الآلية الحجاجية اللغوية (تحصيل حاصل) ، في استراتيجيات الخطاب لعبد الهادي بن ظافر الشهري ، ص 489 وما يليها .

² - جاك موشلر وآن روبل ، القاموس الموسوعي للتداولية ، ص 259 .

³ - آثار البشير الإبراهيمي ، ج1 ، ص 199 .

صاحب الخطاب ذاته بما رماه به خصومه الطريقون، وهم بذلك لا يتوخون انقلاباً سيحدث في ذهن المخاطب، وإنما المقتضى المتوخى من ذلك هو التشويش على أتباعهم وقلب الدائرة على الخصم عندهم.

ويأتي هذا الخطاب في سياق ذكر ما عاب به الطريقون الإبراهيمي وجمعية العلماء بما ليس فيهم؛ بل إن هذا الوصف قد يتجه في سياق الخطاب ضدهم ويكون هو قد عابهم بما هو من فعلهم، " ويصعب عليهم نفي المقتضى المتضمن... خاصة وأن نفي أي مقتضى يسهم في تحويل الحوار إلى خصومه، ومواجهة مقتضيات الخصم لا تكون إلا بمواجهة الخصم نفسه "¹.

المقتضى المعجمي لكلمة " الحق "

جاء في لسان العرب: " الحق ضد الباطل ... حَقَّ الأمرُ يَحِقُّ وَيَحِقُّ حَقًّا وَحَقُّوًّا صار حَقًّا وثبت. قال الأزهري: معناه وَجِبَ وَجِبُ وَجُوبًا "². ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾³، أي " وجبت وثبتت "⁴. ومعنى قول " من قال: حق عليك أن تفعل [أي] وجب عليك "⁵.

وتدل كلمة " الحق " كذلك على الحُكْم المطابق للواقع يُطْلَقُ على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتغالها على ذلك ويُقَابِلُهُ الباطل "، فالمطابقة " في الحق تكون من جانب الواقع

¹ - ينظر: Ducrot, Dire et ne pas dire, op cit, p92. نقلا عن: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج

القرآني...، ص 248.

² - ابن منظور، لسان العرب، مادة (حَقَق) .

³ - سورة الزمر، آية 71.

⁴ - محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، مادة (حَقَق)

⁵ - لسان العرب، مادة (حَقَق) .

"، ولذلك فإن معنى " حَقِّيقَتَه: [أي] حَقِّيَّةٌ مُطَابِقَةٌ لِوَاقِعِ إِيَّاهُ ". فإن طابقه فهو حق وإن لم يطابقه فهو بخلاف ذلك.

ولقد وردت كلمة " الحق " في كتابات الإبراهيمي في مواضع عديدة جداً، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- " وكل ما يجب عليك من حق فهو لأخيك في الطريق... " ¹.
 - " ولكن الذي يضرهم ويقض مضاجعهم هو أن ترتفع كلمة حق بكشف مخازيهم وحيلهم الشيطانية " ².
 - " والتأثير الأكبر في تكوينها على هذه الصورة يرجع في الحقيقة إلى... " ³.
 - " في مقاصدهم الخاطئة كما هي عادتهم في إلباس باطلهم لباس الحق " ⁴.
 - " فمن الحق والعدل أن تُلغى هذه القوانين الجائرة وتُحى من الوجود " ⁵.
- لم ترد كلمة " الحق " في كتابات الإبراهيمي باعتبارها صفة للمخاطبين أو ...، وإنما كانت ترد في موضع الدعوة إلى الالتزام بها كما في المثال السابق. " فإنه يمكن القول إن المقتضى الأساس الذي يمكن صياغته منها هو وجود دائرة أو واقع للحق يميزه الكرامة والعزة والمجد، إلا أن المخاطبين يوجدون خارج هذا الواقع لتخاذلهم وتناقلهم وتهربهم من الجهاد " ⁶، فدعوة الإبراهيمي إياهم إلى الحق تقتضي أنهم بخلافه.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 172.

² - المرجع السابق، ج1، ص 173.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 181.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص 188.

⁵ - المرجع نفسه، ج1، ص 235.

⁶ - كمال الزماني، حاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 296.

المقتضى المعجمي لكلمة " الخير ":

الخير: ضد الشر

وهو خَيْرٌ منك وَأَخَيْرُ

وقوله تعالى: (أولئك لهم الخيرات)، جمع خَيْرَةٍ؛ وهي الفاضلة من كل شيء.

وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: (فيهن خيرات حسان) قال: المعنى أنهن خيرات الأخلاق

حسان الخلق.

قال الليث: رجل خَيْرٍ وامرأة خَيْرَةٍ فاضلة في صلاحها¹.

فالخير في عموم معناه ضد الشر، والفاضل من كل شيء، ويحمل معنى حُسن الخلق

والخلقِ وصالح الخصال.

ومن أمثله في كتابات الإبراهيمي:

- " وكلمة الله هي نشر العدل والإحسان في الأرض ونشر الخير والمحبة في نفوس أهل

الأرض"².

- " ... هذه اللفظة المبهمة الغامضة التي يتسع معناها لكل خير ولكل شر "³.

- " كل ذلك لكلمة خير قالها فيهم وسعي صالح سعاد في مصلحتهم "⁴.

- " لأنهم يعلمون ما في مشاركة العلماء في المؤتمر من خير وفائدة للأمة "¹.

¹ - لسان العرب، مادة (خير).

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج5، ص 76.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 175.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص 247.

المقتضى المعجمي لكلمة " الظلم ":

جاء في لسان العرب: " الظلم وضع الشيء في غير موضعه "². ومن أمثال العرب " من أشبه أباه فما ظلم؛ أي: ما وضع الشبه في غير موضعه "³، ومنه " ظلم الأرض ظلماً إذا حفرها في غير موضع حفرها... وظلم البعير ظلماً إذا نحره من غير داء "⁴، فأصل الظلم هو " مجاوزة الحق "⁵، إما " بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه "⁶. فإذا كان الحق " يجري مجرى نقطة الدائرة "⁷، فإن مجاوزة الظالم له تكون وكأنه " هو الذي أزال الحق عن جهته وأخذ ما ليس له "⁸.

وانطلاقاً من هذا المعنى، فإن إطلاق الإبراهيمي كلمة الظلم على الطريقة، بقوله:

- " وكل العقلاء يعلمون أنه إذا كان هذا الاندفاع الجديد من الطريقين ليس من طبيعة الطريقة، فهو واقع - لا محالة - بدوافع خارجية... ولكن القوم لا يعقلون، وهيهات أن يعملوا لكرامة الأمة وإعزازها، وهم بشهادة التاريخ والواقع الساعون في إذلالها، أو يسعوا في إنقاذها من الظلم وهم كانوا ولا زالوا أظلم الناس لها، استعبدوا أرواحها ثم عبّدوا أبدانها للغير وأكَلَت مَالُهَا باسم الدين، ثم أسلموها للمعتدين "⁹.

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 257.

² - لسان العرب، مادة (ظلم).

³ - ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط)، 1978، ص 28.

⁴ - محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، مادة (ظلم).

⁵ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، ص 411.

⁶ - المرجع نفسه، 411.

⁷ - المرجع نفسه، 411.

⁸ - ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص 29.

⁹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 296، 297..

يقتضي أنهم بظلمهم لأتباعهم وللشعب الجزائري، حيث استعبدوا الناس بأرواحهم وأبدانهم وسلبهم أموالهم، وأبقوا على جهله، بل أظلم منه أنهم يسلموا كل ذلك للمعتدين، فإنهم قد تجاوزوا دائرة الحق وخرجوا عنها، وأنهم موجودون في الموضع غير الصحيح.

ومن أمثله كذلك في كتابات الإبراهيمي:

- ولأرشدكم إلى تطهير الروح المدبرة، واستبدال السيئة بالحسنة، والظلم بالعدل، والاستئثار بالإيثار...¹.

- " وكانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل في ما تحمل من معان، أنها ثورة على الظلم والجور والاستعباد، وتلك الشرور التي ضربنا الأمثلة على سائرها...².

- " ... أن المطالب الجزائرية تنقسم إلى قسمين: قسم لا يختلف فيه نظر ولا يتشعب فيه رأي، لأنه عبارة عن مظالم صريحة وأوضاع شاذة...³.

- " هي شر ما خلفت عصور العسف والظلم، وكانت الأمة محرومة حتى من رفع الصوت بالشكوى والتظلم...⁴.

المقتضى المعجمي لكلمة " الدين " :

ورد في لسان العرب لابن منظور: " الدّين: الجزاء والمكافأة. ودنّته بفعله دَنًا: جَزَيْته ... ويومُ الدّين: يومُ الجزاء. وفي المثل: (كما تَدِينُ تُدان) أي كما تُجازي تُجازى، أي تُجازى بفعلك

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج5، ص 245.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 247.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 232.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص 245.

وبحسب ما عملت ... ودائه دِيناً أي جازاه. وقله تعالى: ﴿أعنا لمدينون﴾¹ أي مَجْزِيُونَ ... ومنه قوله تعالى: ﴿ملك يوم الدين﴾²، وقيل معناه مالك يوم الجزاء³. فكلمة " الدين " تدل على الجزاء والمكافأة.

كما أن من معاني كلمة " الدين " اللغوية معنى الطاعة كذلك، بل ذهب صاحب تاج العروس إلى أن هذا المعنى هو أصل هذه الكلمة، إذ يقول: " الدين: الطاعة وهو أصل المعنى، وقد دنته ودنت إليه أي: أطعته... وفي الحديث: " الخوارج يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية "⁴، أي من طاعة الإمام المفترض... ومنه قوله تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾⁵، أي: طاعه، وقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾⁶ يعني الطاعة، فإن ذلك لا يكون في الحقيقة إلا بالإخلاص، والإخلاص لا يتأتى فيه الإكراه بل في الطاعة⁷.

وتحمل هذه الكلمة كذلك فيما تحمل من معاني، معنى الذل، فقد قال الزبيدي: " الدين: الذل والانقياد، قيل: هو أصل المعنى وبهذا الاعتبار سميت الشريعة ديناً "⁸.

¹ - سورة الصافات، آية 53.

² - سورة الفاتحة، آية 4.

³ - لسان العرب، مادة (دين).

⁴ - أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ج2، حديث رقم: 1086، ص 329.

* - هذا جزء من حديث النبي - ﷺ - وليس الحديث كله [راجع ذلك في: أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ج2، حديث رقم: 1086، ص 329].

⁵ - سورة النساء، آية 125.

⁶ - سورة البقرة، آية 256.

⁷ - محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، فصل الدال.

⁸ - المصدر السابق، فصل الدال.

نخلص من خلال هذه التعاريف إلى أن كلمة الدين لها عدة معانٍ، إلا أن معانيها الأصلية لا تخرج كما أشار إلى ذلك كل من ابن منظور والزبيدي، عن ثلاثة معانٍ وهي: الجزاء والطاعة والذل^{**}. وهذه المعاني تجعل لهذه الكلمة ثلاث مقتضيات معجمية وهي:

- أن الدين بمعنى "الجزاء" يقتضي ضرورة وجود مُجَاز وهو الله تعالى، وجزاء وهو الجنة أو النار، ومجازى وهو المقصود أو المقصودون بهذا الجزاء.
 - أن الدين بمعنى "الطاعة" يقتضي ضرورة وجود مطاع وهو الله تعالى، أو غيره بحسب سياق الكلام، ومطيع وهم المخاطبون.
 - أن الدين بمعنى "الذل والانقياد" يقتضي ضرورة وجود مُتَذَلِّلٍ إليه وهو الله تعالى، ومُتَذَلِّلٌ وهو المخاطب أو المخاطبون المقصودون بهذا الدين.¹
- ومن أمثلتها في كتابات الإبراهيمي حيث وردت على عدة معاني، وهي على سبيل التمثيل لا الحصر:

- "وكان مستقر الدين من نفوس البشر تتعاوره نزعتان مختلفات وهما التعطيل المحض والشرك، ... تفرق أهل الكتب السماوية في الدين قبل الإسلام".²
- "ولكن الصلاح لم يأتيهم من التصوف أو الطرق وإنما هو نتيجة التدين".³

^{**} - دلالة كلمة "الدين" على هذا المعنى تشير إلى أن هذه الكلمة ليست أصلية في حقل الشريعة، وإنما هي مستعارة لهذا الحقل. يقول الراغب الأصفهاني: "والدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة، والدين كالملة لكنه يقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشريعة" [انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، ص 233].

¹ - ينظر: كمال الزماني، حاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 297، 298.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 161.

³ - المرجع السابق، ج1، ص 175.

- " يرجع إلى ما كان يثبته رجال الإصلاح الديني فرادى بين الأمة،... شعور عام بلزوم

إصلاح عام يشمل الدين والعلم والاجتماع " ¹.

- " وتريه ما يتعارض منها مع الدين وما لا يتعارض " ².

- " لأنه آثر رضاهم على رضى الحق، وإرضاءهم على إرضاء الدين " ³.

المقتضى المعجمي لكلمة " الحرب ":

لكلمة " الحرب " معان كثيرة، فهي تدل على " نقيض السلم " ⁴، كما تدل على " الترامي

بالسهم، ثم المطاعنة بالرمح، ثم المجادلة بالسيوف، ثم المعانقة والمصارعة " ⁵.

وتحمل كلمة " الحرب " معنى " السلب " وهو المقصود هنا ويعنيها، فقد قال الأصفهاني: "

الحرب معروف والحرب السلب في الحرب، ثم قد يسمى كل سلب حرباً... وقد حُرب فهو حريب

أي سليب " ⁶. وفي حديث الحديبية: " فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْثُورِينَ مَحْرُوبِينَ " ⁷؛ أي " مَسْلُوبِينَ

مَنْهُوبِينَ " ⁸.

¹ - المرجع نفسه، ج1، ص 187.

² - المرجع نفسه، ج1، ص 199.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 223.

⁴ - لسان العرب، مادة (حرب).

⁵ - محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، مادة (حرب).

⁶ - نظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، ص 146.

⁷ - أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ج31، حديث رقم: 18928، ص 244.

* - هذا جزء من حديث النبي - ﷺ - وليس الحديث كله [راجع ذلك في: أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد،

ج31، حديث رقم: 18928، ص 244، 243].

⁸ - محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس، مادة (حرب).

وعليه فانطلاقاً مما سبق، فإن ذكر كلمة " حرب "، التي يرتبط معناها بالسلب يولد لدى المتلقي عدداً من المقتضيات نذكر منها: ضرورة وجود سالب، ومسلوب وما سلب منه، ونسقطه على قول الإبراهيمي التالي:

- " وجميع أعمال الاستعمار ترمي إلى تحقيق هذا المقصد، فاحتضانه للحركات

التبشيرية وحمايته لها وسيلة من وسائل حربه على الإسلام ¹.

- ضرورة وجود سالب، وهو الاستعمار.

- ضرورة وجود مسلوب، وهو الإسلام.

- أن هذا المسلوب بما أنه أخذ منه ما هو حق له فهو مظلوم، وذلك بسلبه أحقية اعتناق

أهله له، وأحقّيته في الانتشار والاعتناق.

ومن أمثله أيضاً في كتابات الإبراهيمي:

- " ويأتي في آخر الأسلحة التي يستعملها الاستعمار الغربي لحرب الإسلام اتفاهه

بالإجماع على خلق دولة إسرائيلية في صميم الوطن العربي ².

- " وقد كانت الحروب قبل اليوم لمعانٍ لبعضها شريف، وقد يكون أحد الجانبين فيها

على حق. أما هذه الحروب التي لا تنتهي الواحدة منها إلا وهي حامل مُقَرَّب بأخرى

أشدّ منها هولاً،... وإنما هي حرب مجنونة يبعثها حب الاستغلال والتسلّط على

الضعفاء، والاستثثار بخيرات أرضهم، والضعفاء هم الأدوات التي تقع بها الحرب،

وتقع عليها الحرب، فهم في السلم محل النزاع، وفي الحرب ميدان الصراع ³.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج5، ص 69.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 69.

³ - المرجع نفسه، ج5، ص 69، 70.

- " وتتطلب منهم اضطراباً في سكون وسلماً في حربٍ وحرباً في سلم وأنواعاً شتى من المصارعات " ¹.

المقتضى المعجمي لكلمة " الإسلام "

جاء عند ابن منظور: السَّلامُ والسَّلامةُ: البراء. وتسَلَّم منه: تبرَّأ.

وقال ابن الأعرابي: السلامة العافية.

والإسلام والاستسلام: الانقياد.

والإسلام في الشريعة: إظهار الخضوع.

وفي التهذيب: مسلم وفيه قولان: أحدهما هو المستسلم لأمر الله والثاني هو المخلص لله العبادة. ²

ومنه المعنى الذي تحمله كلمة " الإسلام " هو: البراءة، العافية، الانقياد، الخضوع، الإخلاص، القبول، والخضوع.

ويقتضي المعنى الإظهار في كلها لذا قيل " الإسلام باللسان والإيمان بالقلب " ³.

وقد وردت كلمة " الإسلام " في كتابات الإبراهيمي بشكل كبير جداً، وحملت أكثر تلك المعاني التي ذكرنا.

ومن أمثلة ذلك:

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 203.

² - لسان العرب، فصل (سلم).

³ - لسان العرب، فصل (سلم).

- " فالإسلام دين الحرية والتحرير... والإسلام شرع الرحمة والرفق، وأمر بالعدل والإحسان... والإسلام يدعو إلى السلامة والاستقرار... والإسلام يثبت الأديان السماوية ويحميها " ¹.

- " إن الإسلام في جوهره لإصلاح عام من الله به على العالم الإنساني بعد أن طغت عليه غمرة حيوانية عارمة... " ².

- " أي شباب الإسلام: حملة الأمانة... أي شباب الإسلام: إن الأوطان تجمع الأبدان... " ³.

- " وأول ما نشأ في المجتمع الإسلامي من جرائم التفرق في الدين الكلام في القدر والخوض في الصفات... وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية... أما آثارها في العلوم الإسلامية فإنها لم تمدّها إلا بنوع سخيّف من الجدل المكابر... " ⁴.

المقتضى المعجمي لكلمة " الإصلاح " :

جاء في لسان العرب:

الصَّلاح: ضدّ الفساد؛... وَصَلَحَ: كَصَلَحَ. ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء. ومصلح في أعماله وأموره.

والإصلاح: نقيض الإفساد... والاستصلاح: نقيض الاستفساد.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي ، ج5، ص 68.

² - المرجع نفسه، ج1، ص 161.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 163.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص 164، 165.

وأصلح الشيء بعد فساده: أقامه. وأصلح الدابة: أحسن إليها فَصَلَحْتُ.

وفي التهذيب: تقول أَصْلَحْتُ إلى الدابة إذا أحسنت إليها.

والصُّلح: السلم¹.

فمن المعاني التي يحملها الإصلاح أنه نقيض الإفساد، وهو السلم، وإقامة الشيء وهو الإحسان.

ومن أمثله في كتابات الإبراهيمي:

- " والشعور بالفساد هو أول مراحل الإصلاح... إن أكثر الفضل في تنبيه ذلك الشعور

في الأمة يرجع إلى ما كان يبثه رجال الإصلاح الديني فرادى بين الأمة، فلم يمتص

إلا قليل من الزمن حتى غمر الأمة شعور عام بلزوم إصلاح عام يشمل الدين والعلم

والاجتماع².

- " مبدأ جمعية العلماء المسلمين هو الإصلاح الديني بأوسع معانيه³.

- " في موضوع له تعلق بجوهر الإصلاح كمناهجه وطرقه، أو مكانته بين فروع

الإصلاح الدنيوي وصلته بها⁴.

ويمكن إجمال مقتضيات الكلمات السابقة باختصار ضمن الجدول التالي:

¹ - لسان العرب، فصل (صلح).

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 186، 187.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 189.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص 200.

الكلمة	المنطوق (معناها المعجمي)	المقتضى
الإيمان	- التصديق	- وجود ما يقتضي التصديق أو التكذيب.
الفتنة	- الامتحان - الضلال	- وجود ممتحن وممتحن وموضوعا للامتحان. - وجود ضال ومُضِلّ وسبب للضلال.
الكفر	- العصيان والامتناع - جحود النعمة - التغطية - النذل	- عدم طاعة الله في أوامره ونواهيه من المخاطبين. - عدم الشكر على النعم. - عدم إدراك الحق من بعض المخاطبين. - الذي لا يشكر الله ولا يطيعه يهان.
الحق	- مطابقة الواقع	- عدم مطابقة بعض المخاطبين للواقع وخروجهم عن دائرته.
الخير	- الفاضل من الشيء وصالح الخصال	- وجود من المخاطبين من يعمل بصلاح الأعمال ووجود العكس.
الظلم	- وضع الشيء في غير موضعه	- وجود المخاطبين في وضع غير صحيح.
الدين	- الجزاء والمكافأة - الطاعة - النذل	- وجود مُجَازٍ وجزاء ومجازى. - وجود مطيع ومطاع. - وجود مُتَدَلِّلٍ ومُتَدَلِّلٍ إليه.
الحرب	- السلب	- وجود سالب يحاول أخذ ما ليس له. - وجود مسلوب أخذ منه ما هو حق له.

الإسلام	- البراءة من الكفر وأهله - الخضوع والاستسلام لله	- وجود من المتخاطبين من يوالي الكفار. - وجوب إظهار الخضوع لله.
الإصلاح	- نقيض الفساد وإقامة الشيء.	- وجود المفسد من المخاطبين.

إن الكلمات السابقة بانطوائها معجميا على مقتضيات ما، تحمل بعدها الحجاجي في تلك المقتضيات؛ إذ تسجن المتلقي في وضع ذهني يكون فيه في موقع الضعيف العاجز، توجه بعد ذلك الحوار أو التخاطب معه من خلال السلطة الكامنة وراء تلك الكلمات من خلال مقتضياتها المعجمية،¹ والذي لا يمكنه معه إلا القبول بمضمون الخطاب.

يقدم المقتضى المعجمي باعتباره " شيئا مشتركا بين المتكلم والمخاطب "²، على أن المقتضى المعجمي قابع في بنية اللفظ نفسه لا بطرفي المحادثة؛ أي أنه لا يرتبط بالمتكلم عند صياغته للمفوض، ولا يرتبط بالمخاطب عند عملية تأويله له. إن هذه الخاصية هي سر قوة المقتضى، وهي التي تجعله " يمثل مستوى حجاجيا أقوى "³.

يعتبر المقتضى عند ديكرو شيئا واضحا في الكلام يستمد وضوحه من الاتفاق الذي يحظى به بين طرفي المحادثة. وهذا ما يجعله يقدم باعتباره إطارا غير قابل للإنكار، ويجعل المحادثة تدون ضرورة باعتبارها تنتمي إلى عالم الخطاب، فتقديم الفكرة في الخطاب على هيئة مقتضى، تبدو كما لو لم يكن باستطاعته إلا القبول بها، كما لو كانت شيئا متقفا عليه مسبقا بين

¹ - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 106.

² - Oswald Ducrot, Le dire et le dit, Op.cit, p20. نقلا عن: الزماني كمال، حجاجية الأسلوب...، ص 304.

³ - عبد العزيز لحويديق، الأسس النظرية لبناء شبكات قرائية للنصوص الحجاجية، ضمن مصنف الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص 863.

المخاطبين، فيقدم المقتضى على اعتباره شيئاً مشتركاً في المحادثة¹. وفي هذا التعبير المشترك بين طرفي المحادثة تكمن القوة الحجاجية للمقتضى ويكمن انفلاته من أي رفض أو إنكار*.

وما يزيد حجاجية المقتضى كذلك هو أنه يبدو على صعيد الزمن وكأنه حدث سابق على الملفوظ. فهو شيء يسبق التقوه بالكلام لأنه موجود عند المتكلمين²، على عكس المنطوق الذي يأتي متزامناً معه، وهذا ما يجعل المتكلم يستند إليه في عملة الإقناع مستغلاً في ذلك عامل الزمن الذي يشكل عنصراً حاسماً في حركة الحجاج³، حيث يبدو المقتضى لحظة التلفظ وكأنه اختير في نفس اللحظة التي تم فيها اختيار الملفوظ، وكأنه عملية استرجاع لمعرفة سابقة.

¹ - Oswald Ducrot, Le dire et le dit, Op.cit, p20. نقلاً عن: الزماني كمال، حجاجية الأسلوب...، ص 304.

* - اعتبر طه عبد الرحمن أن رفض المقتضى يجعل القول بدون فائدة ويحوّله إلى مجرد " لغو ". وفي هذا يقول: المقتضى لازم تضميني يترتب عن نفيه فقد القيمة لا مجرد فقد الصدق، مثاله:
- شراب النبيذ حرام.

فإن هذا القول ينطوي على معنى مضمّر هو:

- النبيذ شراب.

فهذا المعنى هو بمنزلة لازم متقدم لحصول فائدة القول، بحيث يمكن إيراد مع هذا القول فيزيده بياناً كأن نقول:

- النبيذ شراب وشربه حرام.

فإذا نحن قدرنا ارتفاع هذا اللازم ارتفعت فائدة القول ولغاً لَعُوّا كما إذا قلنا:

- ليس النبيذ شراباً وشربه حرام. [راجع: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 155، 156].

² - ينظر: جورج بول، التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، الرباط، المغرب، ط1، 2010، ص 51.

³ - ينظر: Oswald Ducrot, Le dire et le dit, Op.cit, p20. نقلاً عن: الزماني كمال، حجاجية الأسلوب...، ص 305.

وبالعودة إلى الكلمات السابقة، يمكن القول إن حاجبية مقتضياتها المعجمية تكمن في كونها تقدم على أنها تشكل معلومات " قديمة ومسلم بها " من قبل المخاطبين ليتم من خلالها بناء " معلومات جديدة " تكون قابلة للنقاش على نطاق واسع من طرفهم.

إن البعد الحجاجي في النماذج السابقة جميعها يكمن في دفعها المتلقي إلى قبول المعطيات الجديدة التي يحاول الإبراهيمي تمريرها إلى مخاطبيه (الدعوة إلى الجهاد، إبراز فضائله في تحقيق العزة والكرامة، عدم الخوف من الحرب، إثارة حماسهم إليها، توبيخ المتخاذلين عن الجهاد أو دعم الثورة، ...)، وذلك بالانطلاق من معطياتها القديمة التي تتمثل في المقتضيات المعجمية التي تحملها هذه الكلمات بين ثناياها، والتي يكون مسلما بها سلفا من قِبَل هؤلاء المخاطبين، فالمقتضيات تمثل " طريقة بارعة في جعل المعلومة التي يعتقدونها المتكلم هي نفسها التي يتوجب على المستمع تصديقها " ¹.

إن الواقع الحجاجي للكلمات السابقة ينبع من خصوصية دلالتها المعجمية، فهذه الكلمات إذ تظهر في عالم الخطاب محملة بهذه الدلالة، فإنها تكون مسرحا لظهور المنطوق المقتضى معا، فهما لا ينفصلان؛ إذ أن منطوقها يؤدي إلى مقتضاها، ومقتضاها في منطوقها أو على الأقل ينحدر منه، فهي تحمل في الوقت نفسه تهمة من جهة المنطوق، حقيقة من جهة المقتضى، ونفي التهمة أي المنطوق لا يمكن إلا أن يمر عبر نفي الحقيقة؛ أي المقتضى، ولا يتأتى ذلك إلا بمهاجمة القائل نفسه ومناصبته العداء. ²

وهكذا في كل الأمثلة، فإن المخاطبين يستطيعون أن يعترضوا على المعطيات الجديدة لكونها جاءت مصرحا بها على لسان الإبراهيمي، لكن لا أحد منهم يستطيع أن يعترض على

¹ - جورج بول، التداولية، ص 56.

² - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 118.

مقتضياتها المعجمية لكون هذه المقتضيات هي عبارة عن " شيء بديهي ومسلم به، ومن المفروض أن يتشاطرهم عموم الأشخاص المنتمين إلى نفس الجماعة " ¹. وبهذا التسليم ترسم هذه المقتضيات منطقة مشتركة بين الإبراهيمي وبين مخاطبيه؛ منطقة يتخذها أساسا ومطية لدفعهم إلى قبول ما يعرض عليهم من أطروحات وإقناعهم بما يريد إقناعهم به.

2/- المقتضى التركيبي ووظائفه الحجاجية:

بعد دراسة الكلمة على مستوى المقتضى المعجمي، تأتي دراستها في مستوى التشكيل؛ أي على المستوى المعجمي، ويقصد بالتركيب* هنا هو " العلاقات التي تنسجها الوحدات اللغوية فيما بينها من خلال احتلالها موقعا خاصا؛ إذ إن المبدأ الذي يحكم توارد الوحدات اللغوية داخل البنيات

¹ - Catherine Kerbrat Orcchioni, L'implicite, Op.cit, p29,30. نقلا عن: الزماني كمال، حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 310.

* - في الدرس النحوي العربي عند القدامى والأصوليين، ينقسم التركيب إلى قسمين: تركيب الأفراد: وهو " أن تأتي بكلمتين، فتركبهما، وتجعلهما كلمة واحدة، بإزاء حقيقة واحدة، بعد أن كانتا بإزاء حقيقتين... نحو حضر موت " وغيرها. وخاصيته أنه لا يفيد إلا بعد أن تضاف إليه كلمة أخرى مثل: حضر موت طيبة. [راجع: ابن يعيش، شرح المفصل، ج1، ص 72.] وهذا النوع من التركيب غير معني به بحثنا.

- تركيب الإسناد: وهو " أن تركب كلمة مع كلمة تنسب إحداها إلى الأخرى... على السبيل الذي به يحسن موقع الخبر، وتمام الفائدة" [راجع: ابن يعيش، شرح المفصل، ج1، ص 72.] ويشترط في هذا النوع من التركيب تعلق الكلمة بالأخرى، وحصول الفائدة، ولذلك فهو لا يتأتى إلا في " اسمين أسند أحدهما إلى الآخر، نحو (زيد أخوك) و(الله ربك)، أو اسم أسند إلى فعل نحو قولك (ضرب زيد) و(قام عمرو) " [راجع: أبو حامد الغزالي، المستقصى من علم الأصول، ص 24]. أما باقي الإسنادات الأخرى فهو لا يتأتى فيها؛ إذ " لا يتأتى من فعلين، لأن الفعل نفسه خبر، ولا يفيد حتى تسنده إلى مُحَدَّثٍ عنه، ولا يتأتى من فعل وحرف، ولا حرف واسم، لأن الحرف جاء لمعنى في الاسم والفعل، فهو كالجاء منهما، وجزء الشيء لا ينعقد مع غيره كلاما " [راجع: ابن يعيش، شرح المفصل، ج1، ص 73]

وهذا التركيب؛ أي التركيب الذي يؤدي إلى حصول الفائدة، هو ما يسميه الأصوليون والنحويون بالكلام أو الجملة التي حدها ابن جني بقوله: " هي الألفاظ القائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها " [راجع: ابن جني، الخصائص، ج1، ص 32]؛ أي تلك الألفاظ التي تشكل من خلال علاقة الإسناد التي تجمع بينهما معنى ما، يجعلها في غنى عن غيرها. فشرط الإفادة والاستقلالية هما شرطان ضروريان لكل جملة. وهذا النوع الثاني من التركيب هو الذي سيقف عند بعضه بحثنا.

التركيبية المختلفة هو الاقتضاء¹. فتنظيم تلك الوحدات على نسق خاص وفق علاقات اقتضائية، وهذا التنظيم التركيبي المخصوص هو الذي تنتج عنه اقتضاءات دلالية تدخل في صميم الاستراتيجية الحجاجية.

إن ما يجعل الجملة تشكل سمة أسلوبية هو الانزياح، فإن ما يجعل هذه السمة دالة على أسلوب متكلم ما هو تردها الالفت في الملام وتكرارها فيه أكثر من غيرها. " فبهذا التكرار تتبدى ملامح ذلك النوع من التراكيب التي يميل المتكلم إلى توظيفها بدلا من غيرها، حتى تصبح من خلال تكرارها في خطابه²، سمة مميزة في ذلك الخطاب.

• حاجية المقتضى التركيبي الناتج عن بنية الاستفهام:

تشتمل بنية الاستفهام في بعض الحالات، على مقتضيات دلالية صادقة. ومثال ذلك الجمل المستفهمة بـ " متى "، " أين "، " لماذا "، " كيف "، " من "، فهذه الجمل تبني إطارا اقتضائيا يفرض على المخاطب التوافق بشأنه من خلال الإجابة عن السؤال الذي يقتضي تصديق المعلومة المقتضاة باعتبارها تحصيل الحاصل، فالسؤال (أين بعت الدراجة ؟)³ يقتضي أنك بعتها، أو (متى غادر ؟) يقتضي أنه غادر.

ففي قول الإبراهيمي:

¹ - محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الحجاجي للخطاب، ص 117.

² - الزماني كمال، حاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 314.

³ - ينظر: George Yule, Pragmatics, p 28,29. نقلا عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الحجاجي للخطاب، ص 121.

- " إن كان هذا فَلِمَ لم فعل في الآخرين فعله في الأولين؟ وَلِمَ نرى حفاظه اليوم - على

كثرتهم - أنقى الناس من هذه المعاني التي كان القرآن يفيضها على نفوس حفاظه بالأمس " ¹.

استفهام بـ " لِمَ "، وهذا الاستفهام يقتضي صدق محموله، بمعنى أن مقتضى هذا التركيب

الاستفهامي هو أننا (نرى حفاظه اليوم - على كثرتهم - أنقى الناس)، وهو مقتضى واقعي

متحقق، وانساق الاستفهام إلى السؤال عن سبب الفعل، والفعل مقتضى حاصل محقق لا يقبل

الجدل، ومن هنا تظهر السمات الحجاجية متمثلة في إلصاق صفة النقاوة لحفظة القرآن، فهذا

المقتضى المتحقق من بنية الاستفهام إشادة بحفظة القرآن، ونقاوتهم في الأخلاق والأقوال

والأعمال، وهو في ذات الوقت تشهير بالذين يستغلون القرآن لأغراض دنيوية خارجة عن نطاق

الأخلاق القرآنية.

• التراكيب المؤكدة:

يقول ديكرود: " إن حضور بعض العناصر اللسانية في الجمل يعطيها توجيهًا حجاجيًا

يجعلها تخدم بعض النتائج بدل أخرى " ²، وقد ذكر من ذلك الأفعال الدالة على الرأي، وهي أفعال

إذا " ³ ما قدمت في وضعية معينة، فإنها تكون حاملة لمقتضى يعبر عن تقدير معين لهذه الوضعية

"، على أن ما يهمننا من تلك الأفعال هو فعل التأكيد الذي " يظهر من خلاله المتكلم متيقنا من

الرأي المعبر عنه " ⁴.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 160.

² - Oswald Ducrot, Les mots du discours, op. cit, p 27. نقلا عن: الزماني كمال، حجاجية

الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 315.

³ - Ibid, p 83. نقلا عن: المرجع نفسه، ص 315.

⁴ - Ibid, p 84. نقلا عن: المرجع نفسه، ص 315.

وإذا تأملنا مؤكّدات الخبر (إن، أن، القسم...)، فنجد أنها عبارة عن عناصر لسانية يحاول المتكلم من خلال توظيفها في الكلام تأكيده وزيادة درجة حضوره فيه، وكأنّ العنصر منها يعوض من خلال هذا التوظيف جملة معينة. " فتوظيف هذه العناصر اللسانية هو تعويض لجملة أخرى تقوم مقامها"¹.

وبالعودة إلى كتابات الإبراهيمي نجد أن اللافت للنظر من خلال قراءتنا لهذه الخطابات، أن هناك توظيفا معتبرا إن لم نقل مكثفا للتوكيد بمختلف أدواته (إن، أن، اللام،)، إضافة إلى بعض التراكيب النحوية التي توظف لهذا الغرض كالقسم، والقصر وغيرهما.

ولم يكن هذا الحضور لهذه الأدوات أن يكون اعتباطيا، وإنما كانت مقصودة لطبيعة الظروف التي قيلت فيها تلك الخطابات وكتبت فيها تلك الكتابات، فمن مواجهة مخاطبين متخاذلين عن الجهاد أحيانا، إلى متقاعسين عن مدّ العون، إلى مساهمين في كثير من المشاكل الاجتماعية والتعليمية والدينية آنذاك.

وأمام هذا الوضع فإن الإبراهيمي كان دائما يحاول تأكيد أهمية الجهاد والإصلاح والمساهمة الإيجابية فيما يخدم الوطن، وبيان فضل ذلك وتعزيز حضور كل ذلك في أذهانهم، وكذا استنهاض همهم واستنفارهم. ومن ثمّ فهو لم يكن يلقي إليهم كلامه بشكل ابتدائي كما يلقي لمن هو خالي الذهن من مضمون الكلام، وإنما كان يعتمد في الغالب إلى تأكيد كلامه بمؤكد أو أكثر.

¹ - الزماني كمال، حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 315.

• **حجاجة المقتضى التركيبي الناتج عن تركيب التوكيد بأكثر من أداة (التأكيد * بإن واللام **):**

نوقشت ظاهرة التوكيد بإن وغيرها من أدوات التوكيد في التراث اللغوي العربي ضمن ثنائية المعنى الأصلي أو النحوي والمعنى المقامي، ويفيد هذا الأخير أن لألفاظ التوكيد الزائدة الداخلة على الجملة معاني اقتضاها المقام وأشعر دخولها على الجملة بوجود هذا المقام.¹

إن اجتماع " إن " مع " اللام " في الملفوظ يجعل الخبر إنكارياً ينجم عنه مقتضى يقيني بحت. خاصة إذا كانت الأداتان بمعنى " حققت "،² واللام وإن لم يكن لها عمل " إن " فإن لها معنى التأكيد.

ومن أمثلة ذلك مما جاء في كتابات الإبراهيمي النموذج الآتي:

- " إن نكاية الإصلاح فينا لأهون علينا مما تدعوننا إليه " ³.

يمكن صياغة معنى القول السابق على هذه الشاكلة:

* - ذهب عبد الله صوله إلى اصطلاح مصطلح " العدول الكمي بالزيادة " في مقابل " أسلوب التوكيد " أو التوكيد والإطناب، وذلك أن بعض القدامى اعتبر التوكيد ضرباً من ضروب الإطناب كما فعل السيوطي [راجع: معترك الأقران، ج1، ص 334]. وعلى العكس منه فعل الزركشي إذ درس مظاهر هي من الإطناب في الباب الذي عقده لـ " أسلوب التوكيد " [راجع: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص 3].

** - يقول السيوطي عن التوكيد بإن مع اللام: " إذا اجتمعت إن واللام كان بمنزلة تكرير الجملة ثلاث مرات، لأن إن أفادت التكرير مرتين، فإذا دخلت اللام صارت ثلاثاً " [راجع: جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في علوم القرآن، ج1، ص 255]. وعن التوكيد بصفة عامة جاء في الطراز: " التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته وإزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدد [راجع: العلوي، الطراز، ج2، ص 176]. وبذلك يبرز الأثر الحجاجي للتوكيد بشتى صوره وأشكاله.

¹ - ينظر: عبد الله صوله، في نظرية الحجاج، ص 117.

² - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 304.

³ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 189.

- أنا على يقين تام بأن نكاية الإصلاح أهون علينا مما تدعوننا إليه.

أو

- نكاية الإصلاح أهون علينا مما تدعوننا إليه أمر يقيني محقق.

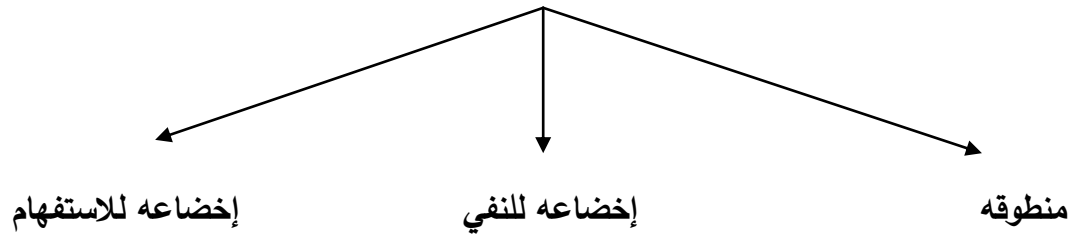
إن صياغة المعنى على هذه الصورة يتكون بموجبها المقتضى " نكاية الإصلاح أهون علينا

من دعوكم " وهو مقتضى ثابت لأن إخضاعه للنفي والاستقهام لا ينال منه.

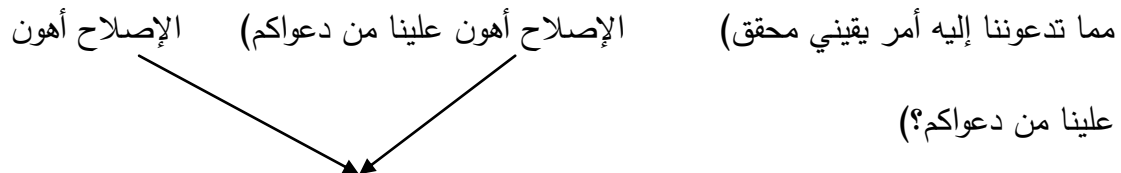
والتخطيط التالي يوضح ذلك:

الخطاب

إن نكاية الإصلاح فينا لأهون علينا مما تدعوننا إليه



(نكاية الإصلاح أهون علينا) (ليس حقيق تماما أن نكاية) (هل حقيق تماما أن نكاية)



المقتضى الثابت

(تحقق نكاية الإصلاح)

أهون من دعوكم)

إن التوكيد في القول السابق والذي أسفر عن خلق هذا المقتضى حول محور الخطاب من " إمكان أن يكون الإصلاح بنكايته أهو من دعوهم " إلى تمام " تحقق نكاية الإصلاح أهون من دعوهم من عدم تمامه " .

أما القيمة الحجاجية لهذا المقتضى القائم بالتوكيد فنجدها، بالإضافة إلى الطاقة التوكيدية المضاعفة التي يضيفها المضمون القضوي للمفوض، تكمن في تفويت فرصة الاعتراض والتعقيب على القضية من قبل متلقي الخطاب بأن أضحت المسألة حقيقة ثابتة لا مجال لردها.¹

إن من شأن مواجهة المخاطب بهذا الشكل من المقتضيات أن تحول معلومات الخطاب الجديدة أو التي هي محل خلاف بين صاحب الخطاب ومخاطبه إلى حقائق تكفي المحاجج مؤنة استقطاب حجج من خارج الخطاب، إنه حجاج لغوي بامتياز.

ومن أمثله كذلك عند الإبراهيمي من خلال كتاباته، ما يأتي:

- " لعمرك إن ناديا هذه أياديه على الأمة، وهذه مكانته في النفوس لحقيق بالحزن لإغلاقه والتطلع لفتحه "2.
- " وإن كثيرا من الغالين في بعضها والتشنيع عليها ليقولون: نشهد إنها لمظلومة "3.
- " وإن كثيرا من الناس حتى من أنصار الجمعية ليستقلون هذه الأعمال في أنفسنا... وإن هذا الذي يريده لعظيم، وإن النفوس المتعلقة به لكبيرة وإنه لمن آمال جمعية العلماء "4.
- " بلى والله إنه لحقيق بكل ذلك "5.
- " أما والله ما كذب العيان ولا أخطأ الحدى إنها - وأبيكم - للأمة الجزائرية المسلمة العربية "6.

¹ - ينظر: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني...، ص 251.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 274.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 278.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص 282.

⁵ - المرجع نفسه، ج1، ص 161.

⁶ - المرجع نفسه، ج1، ص 245.

تشارك هذه الأمثلة بدورها في مقتضى واحد عام ناجم عن تأكيدها بأكثر من أداة واحدة، وتختلف في مقتضيات أخرى تعود إلى طبيعة وخصوصية كل جملة. فأما المقتضى الذي تشارك فيه فيعود إلى أن الخبر الإنكاري الذي يؤكد بأكثر من أداة يقتضي إنكار المخاطب لمضمونه، ويمكن صياغتها والمقتضيات الخاصة بكل قول كما يلي:

المثال	منطوقه	مقتضاه
إن ناديا هذه أياديه لحقيق بالحزن لإغلاقه	متأكد جدا أن ناديا هذه أياديه حقيق بالحزن لإغلاقه	متأكد أن ناديا هذه أياديه حقيق بالحزن لإغلاقه
وإن كثيرا من الغالين ليقولون	متأكد جدا أن كثيرا من الغالين يقولون	متأكد أن كثيرا من الغالين يقولون
نشهد إنها لمظلومة	متأكد جدا أنها مظلومة	متأكد أنها مظلومة
وإن كثيرا من الناس ليستقلون هذه الأعمال	متأكد جدا أن كثيرا من الناس يستقلون هذه الأعمال	متأكد أن كثيرا من الناس يستقلون هذه الأعمال
وإن هذا الذي يريدونه لعظيم	متأكد جدا أن الذي يريدونه عظيم	متأكد أن الذي يريدونه عظيم
وإن النفوس المتعلقة به لكبيرة	متأكد جدا أن النفوس المتعلقة به كبيرة	متأكد أن النفوس المتعلقة به كبيرة
وإنه لمن آمال جمعية العلماء	متأكد جدا أنه من آمال...	متأكد أنه من آمال...
بلى والله إنه لحقيق بكل ذلك	متأكد تأكيدا قطعيا أنه حقيق	متأكد جدا أنه حقيق بكل ذلك

	بكل ذلك	
أما والله إنها للامة الجزائرية	متأكد تأكيذا قطعيا أنها الأمة الجزائرية	متأكد جدا أنها الأمة الجزائرية

• حاجية المقتضى التركيبي الناتج عن تركيب التوكيد بأداة واحدة:

على الرغم من كثرتها في خطابات الإبراهيمي سوف نقف عند التوكيد: بإن*، واللام، والقسم**.

ومن أمثلتها في كتابات الإبراهيمي:

- " إن أعظم مصيبة أصابت المسلمين ... منشؤها من الطرق " ¹.
- "... ليقولن فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر... أما والله ما بلغ الوضاعون للحديث... من هذا الدين عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة " ².
- " إن الرجاء كان ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم " ¹.

* - يقول العكبري: " إنما دخلت (إن) على الكلام للتوكيد عوضا عن تكرير الجملة وفي ذلك اختصار تام مع حصول الغرض من التوكيد " [راجع: أبو البقاء عبد الله العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، تح: غازي مختار، دار الفكر، دمشق، ط1، 1995، ص 222].

فتوظيف " إن " هو إختصار لجملة " أؤكد ". وقد اعتمد عبد الله صوله ليعين أن دخول " إن " على الكلام يفيد معنى وهو: " حققت " أو " أكدت " أو " أنا متحقق كون هذا كذا " [راجع: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن...، ص 302].

** - يرى الزركشي أن القسم يوظف لغاية التوكيد، حيث يقول: " وهو عند النحويين جملة يؤكد بها الخبر، حتى إنهم جعلوا قوله تعالى: (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) سورة المنافقون، آية 1. قسما وإن كان فيه إخبار، إلا أنه لما جاء توكيدا للخبر سمي قسما [راجع: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص 40].

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص170.

² - المرجع نفسه، ج1، ص 171.

- " إن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، ... ولقد - والله - كنت أرى المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله "2.

- " إن للجمعية برنامجا إصلاحيا علميا حكيما "3.

- " إن جمعية العلماء تنبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح المطالعة "4.

تشارك جميع الأمثلة السابقة في مقتضى واحد عام ناجم عن تأكيدها بأداة واحدة دون غيرها، وتختلف في مقتضيات أخرى تعود إلى طبيعة وخصوصية كل جملة. فأما المقتضى الذي تشارك فيه فيعود إلى الخبر الطلبي الذي يكون مؤكدا بأداة واحدة يقتضي دائما تردد وشك المخاطب فيما يحمله هذا الخبر، ويمكن صياغتها والمقتضيات الخاصة بكل قول منها كما يلي:

المثال	منطوقه	مقتضاه
إن أعظم مصيبة أصابت المسلمين منشؤها من الطرق	متأكد من كون أعظم مصيبة أصابت المسلمين منشأها من الطرق	الطرق من منشآت المصائب العظيمة المسلمين
ليقولن فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر	متأكد من كون قولهم فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر	تبرير فعله ذلك بمراعاتهم لروح العصر
والله ما بلغ الوضاعون	متأكد من كون عدم بلوغ	بلغ الوضاعون للحديث... من

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 186.

² - المرجع نفسه، ج1، ص 190.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 191.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص 193.

للحديث... من هذا الدين عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة	الوضاعين للحديث... من هذا الدين عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة	هذا الدين أقل من عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة
إن الرجاء كان ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم	متأكد من كون الرجاء ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم	الرجاء كان ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم
إن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين	متأكد من كون الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين	الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين
والله - كنت أرى المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله	متأكد من كوني رأيت المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله	المسلمون... يجتمعون في حرم رسول الله
إن للجمعية برنامجا إصلاحيا علميا حكيما	متأكد من كون الجمعية لها برنامج إصلاحى علمى حكيماً	الجمعية لها برنامج إصلاحى علمى حكيماً
إن جمعية العلماء تبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح المطالعة	متأكد من كون جمعية العلماء تبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح المطالعة	جمعية العلماء تبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح المطالعة

• حاجية المقتضى التركيبي الناتج عن بنية النعت *

يعد النعت / الصفة من الناحية النحوية عنصرا زائدا أو فضلا، لا يؤثر حذفه كثيرا على معنى المنطوق في الجملة، إلا أن ذلك لا يلغي دوره الحجاجي وأهميته في الخطاب^{**}؛ إذ أن اختيار صفات بعينها لا يخلو من مقصد حجاجي، كما أن النعت يوظف بوصفه من مؤكدات القول، ذكر ابن يعيش أن " الصفة تجيء للتأكيد نحو قولهم (أمس الدابر) وأمس لا يكون إلا دابرا، ومعنى التأكيد هنا أن مدلول الصفة استفيد مما في الموصوف فصار ذكره في الصفة كالتكرار¹."

وقد سجل النعت حضورا معتبرا في كتابات الإبراهيمي توكيدا ونطقا، وتقريرا للمعنى ووقاية له اقتضاء². " فما يربط منطوق الوصف ومقتضاه هو علاقة تحصيل حاصل²، وتقرارا من أجل التوكيد ووقاية للمعنى الاقتضائي من نفي النفاة واستفهام المشككين والمترددین من الخصوم³.

إن تطبيق امتحان النفي والاستفهام على بعض نصوص المدونة المتضمنة نعوتا يجلي الوظيفة الحجاجية التي أسندت للنعت الاقتضائي، وبعرض قول الإبراهيمي:

* - يؤدي النعت من الناحية الاقتضائية دورا مهما في الكلام، فهو إذ يرد في الكلام فإنه يجعل النفي ينصب على النعت دون المنعوت؛ إذ يجعل المنعوت في مأمن من الإنكار. ومثالا على ذلك ففني الجملة " اشترى زيد سيارة جديدة " لا ينصب على كلمة " سيارة " وإنما ينصب على كلمة " جديدة "، حيث يبقى الشراء قائما، لكن الخلاف يكون حول كونها جديدة أم لا. [ينظر: الزماني كمال، حاجية الأسلوب...، ص 315. (الهامش)].

** - من أدوار النعت في الاقتضاء، أنه يجعل النعوت ينجح في الصمود أمام امتحان النفي، ولذلك فإن حذفه من الكلام قد يعرض القضية لإمكان أن تنفى والمقتضى لإمكان أن يزول نهائيا [راجع: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن...، ص 310].

¹ - ابن يعيش، شرح المفصل، ج3، ص 48. نقلا عن: عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني...، ص 252.

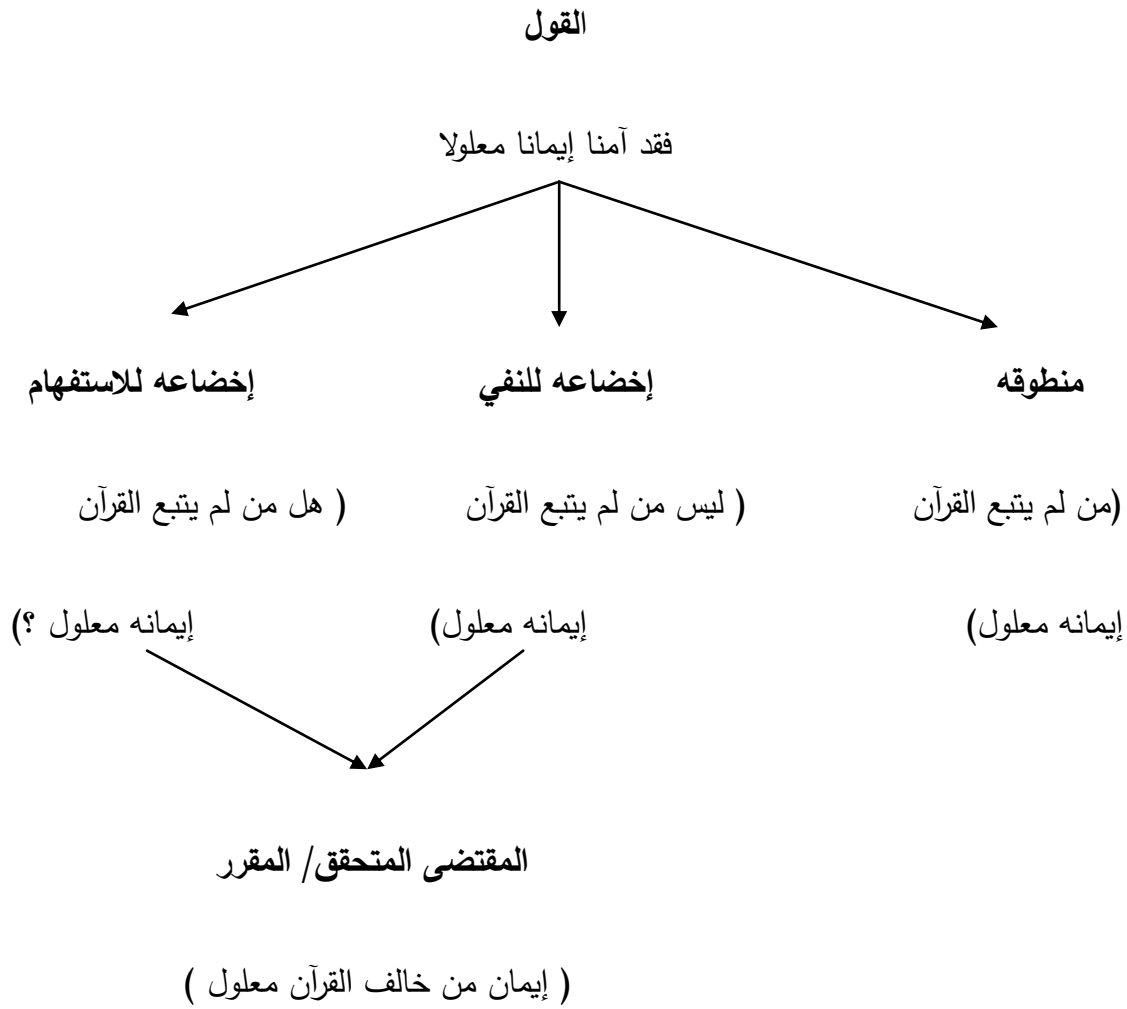
² - ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 489.

³ - ينظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 310.

- " فلو أنهم اتبعوا القرآن وأقاموا القرآن لما سخر منهم الزمان وأنزلهم منزلة الضعة والهوان.

ولكن الأولين آمنوا فآمنوا واتبعوا فارتفعوا. ونحن ... فقد آمنا إيماننا معلولا¹.

على امتحان النفي والاستفهام نلاحظ صمود مقتضى أسهم فيه الملفوظ الوصفي / النعت.



لقد عمل المقتضى على تجاوز الوظيفة التأكيدية للنعت نحو وظيفة أقوى من الناحية الحجاجية، وهي استدراج المخاطب نحو القبول بما يعرض عليه، ترغيباً في إتباع القرآن الكريم، وذلك يجعل كون الإيمان معلولاً لمن لم يتبعه حقيقة فات أوان الاعتراض عليها؛ أي أن علة الإيمان غدت في عداد الأمور المحققة لدى المخاطب.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص158، 159.

• حاجية المقتضى التركيبي الناتج عن بنية القصر:

القصر ضرب من ضروب التوكيد، فهو " ليس إلا تأكيدا للحكم على تأكيد " ¹، ويعد من الأساليب المحوَّلة التي تخرق بنية الرتبة داخل الجملة؛ إذ هو تخصيص الموصوف بوصف دون ثان، أو تخصيص الوصف بموصوف دون آخر ²، والقصر من الأساليب التي تحمل مقتضى دلالية ناتجا عن بنيته التركيبية، وهذا المقتضى الدلالي يوجه الملفوظ نحو تحقيق غايات حاجية عبر استحضار مقاصد المتكلم وأحوال المخاطب.

ومن خلال قول الإبراهيمي الآتي:

- " إذ لا معنى لقلّة الأُميين إلا كثرة المتعلمين ومعه انتشار العلم " ³.

وقوله:

- " لا تتحقق المساواة المطلوبة إلا برفع جميع الأوضاع الخاصة " ⁴.

ففي النموذج الأول حصول قصر، أدى إلى أن المعنى (قصر قلّة الأُمية في كثرة المتعلمين وانتشار العلم)، ويحمل هذا المعنى مقتضى يتمثل في انتقاء أي سبب آخر لقلّة الأُمية عدا هذين السببين. فحاجية هذا القصر تتمثل في حصر الإبراهيمي لأسباب الأُمية في هذين السببين، واستبعاد غيرهما من الأسباب، في خاطبه الموجه للحضور في مؤتمر الأُمية الذي نظمته جمعية العلماء.

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، 403.

² - ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، 400.

³ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 204.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص256.

والشيء نفسه في النموذج الثاني؛ إذ قصر أسباب تحقيق المساواة المطلوبة في توفير سبب واحد والاقتصار عليه دون غيره، وهو (رفع جميع الأوضاع الخاصة)، ويحمل هذا القصر استبعاد أي سبب آخر قصد تحقيق المساواة، ويحمل قوته الحجاجية في التفرد بهذا السبب في مقابل نفي غير دون ترك مجال للمناورة بأسباب أخرى.

ويمكن اختصار مقتضيات المثالين على النحو الآتي:

المثال	منطوقه	مقتضاه
لا معنى لقلة الأُميين إلا كثرة المتعلمين ومعه انتشار العلم	متأكد من كون كثرة المتعلمين وانتشار العلم يقلل الأمية	كثرة المتعلمين وانتشار العلم يقلل الأمية
لا تتحقق المساواة المطلوبة إلا برفع جميع الأوضاع الخاصة	متأكد من كون رفع جميع الأوضاع الخاصة يحقق المساواة المطلوبة	رفع جميع الأوضاع الخاصة يحقق المساواة المطلوبة

يرى ديكره أن أول معيار يبرز حجاجية المقتضى هو أنه " إذا ما تم إخضاع الملفوظ الحامل لمقتضيات معينة للنفي والاستقهام فإن هذه المقتضيات تبقى ثابتة "¹، أي اتخاذ بنيته النفي والاستقهام (التصديقي) معيارين لضبط المقتضى، ذلك أن النفي والاستقهام وإن غيرا قوة الجملة يحافظان على محتواها القضوي موضوع عمل الاقتضاء.

¹ - 18. Oswald Ducrot, Les mots du discours, op. cit, p 18. نقلا عن: الزماني كمال، حجاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 326.

ومعنى ذلك أنه إذا كان من السهل على المخاطب مثلا أن يرفض المنطوق التالي:

(انقطع زيد عن التدخين) باعتباره مما لا يصمد أمام النفي والاستفهام، بقوله مثلا في حالة

النفي: (لم ينقطع زيد عن التدخين)، وقوله في حالة الاستفهام: (هل انقطع زيد عن التدخين؟)،

فإنه لا يمكنه رفض مقتضى هذا المنطوق، لأن هذا المنطوق يبقى دالا على أن " زيدا كان يدخن

" حتى بعد إخضاعه للنفي والاستفهام¹.

ولإبراز ذلك فإننا سنخضع الأمثلة السابقة لمعاري النفي والاستفهام، لنرى مدى صمودها

أمامها، حتى يتحقق مقتضاها بشكل غير قابل للرد:

المثال	منطوقه	إخضاعه للنفي	إخضاعه للاستفهام	مقتضاه
إن ناديا هذه أيديه لحقيق بالحرز لإغلاقه	متأكد جدا أن ناديا هذه أيديه حقيق بالحرز لإغلاقه	ليس نادٍ هذه أيديه حقيق بالحرز لإغلاقه	هل نادٍ هذه أيديه حقيق بالحرز لإغلاقه؟	متأكد أن ناديا هذه أيديه حقيق بالحرز لإغلاقه
وإن كثيرا من الغالين ليقولون	متأكد جدا أن كثيرا من الغالين يقولون	ليس كثير من الغالين يقولون	هل أن كثيرا من الغالين يقولون؟	متأكد أن كثيرا من الغالين يقولون
نشهد لمظلومة	متأكد جدا أنها مظلومة	ليست مظلومة	هل هي مظلومة؟	متأكد أنها مظلومة

¹ - Ibid, p19. نقلا عن: المرجع نفسه، ص 326.

وإن كثيرا من الناس ليستقلون هذه الأعمال	متأكد جدا أن كثيرا من الناس يستقلون هذه الأعمال	ليس كثير من الناس يستقلون هذه الأعمال	هل كثير من الناس يستقلون هذه الأعمال؟	متأكد أن كثيرا من الناس يستقلون هذه الأعمال
وإن هذا الذي يريدونه لعظيم	متأكد جدا أن الذي يريدونه عظيم	ليس الذي يريدونه عظيما	هل الذي يريدونه عظيم؟	متأكد أن الذي يريدونه عظيم
وإن النفوس المتعلقة به لكبيرة	متأكد جدا أن النفوس المتعلقة به كبيرة	ليست النفوس المتعلقة به كبيرة	هل النفوس المتعلقة به كبيرة؟	متأكد أن النفوس المتعلقة به كبيرة
وإنه لمن آمال جمعية العلماء	متأكد جدا أنه من آمال... جمعية العلماء	ليس من آمال جمعية العلماء	هل هو من آمال جمعية العلماء؟	متأكد أنه من آمال... جمعية العلماء
بلى والله إنه لحقيق بكل ذلك	متأكد تأكيدا قطعيا أنه حقيق بكل ذلك	ليس حقيقا بكل ذلك	هل حقيق بكل ذلك؟	متأكد جدا أنه حقيق بكل ذلك
أما والله إنها للأمة الجزائرية	متأكد تأكيد قطعيا أنها الأمة الجزائرية	ليست الأمة الجزائرية	هل هي الأمة الجزائرية؟	متأكد جدا أنها الأمة الجزائرية
إن أعظم مصيبة أصابت المسلمين منشؤها من	متأكد من كون أعظم مصيبة أصابت المسلمين	ليست الطرق من منشآت المصائب	هل الطرق من منشآت المصائب	الطرق من منشآت المصائب

الطرق	منشؤها من الطرق	العظيمة للمسلمين	العظيمة للمسلمين؟	العظيمة للمسلمين
ليقولن فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر	متأكد من كون قولهم فعلنا ذلك مراعاة لروح العصر	ليس تبرير فعله ذلك بمراعاتهم لروح العصر	هل تبرير فعله ذلك بمراعاتهم لروح العصر؟	تبرير فعله ذلك بمراعاتهم لروح العصر
والله ما بلغ الوضاعون للحديث... من هذا الدين عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة	متأكد من كون عدم بلوغ الوضاعين للحديث... من هذا الدين عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة	لم يبلغ الوضاعون للحديث... من هذا الدين أقل من عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة	هل ما بلغه الوضاعون للحديث... من هذا الدين أقل من عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة؟	بلغ الوضاعون للحديث... من هذا الدين أقل من عشر معشار ما بلغته منه هذه الطرق المشؤومة
إن الرجاء كان ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم	متأكد من كون الرجاء كان ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم	لم يكن الرجاء ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء	هل الرجاء كان ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم؟	الرجاء كان ضعيفا في تحقق أمنية اجتماع العلماء من تلقاء أنفسهم

		أنفسهم		
إن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين	متأكد من كون الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين	ليست الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين	هل الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين؟	الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين
والله - كنت أرى المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله	متأكد من كوني رأيت المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله	لا المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله	هل المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله؟	المسلمين... يجتمعون في حرم رسول الله
إن للجمعية برنامجا إصلاحيا علميا حكيما	متأكد من كون الجمعية لها برنامجا إصلاحيا علميا حكيما	ليس للجمعية برنامجا إصلاحيا علميا حكيما	هل للجمعية برنامجا إصلاحيا علميا حكيما؟	الجمعية لها برنامجا إصلاحيا علميا حكيما
إن جمعية العلماء تبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح	متأكد من كون جمعية العلماء تبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح	لا تبث جمعية العلماء في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح	هل جمعية العلماء تبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح	جمعية العلماء تبث في أساتذتها وتلامذتها وجميع أعضائها... روح

المطالعة	المطالعة	أعضائها... روح المطالعة	المطالعة؟	
لا معنى لقلّة الأميين إلا كثرة المتعلمين ومعه انتشار العلم	متأكد من كون كثرة المتعلمين وانتشار العلم يقلل الأمية	ليس كثرة المتعلمين وانتشار العلم يقلل الأمية	هل كثرة المتعلمين وانتشار العلم يقلل الأمية؟	كثرة المتعلمين وانتشار العلم يقلل الأمية
لا تتحقق المساواة المطلوبة إلا برفع جميع الأوضاع الخاصة	متأكد من كون رفع جميع الأوضاع الخاصة يحقق المساواة المطلوبة	لا يحقق رفع جميع الأوضاع الخاصة المساواة المطلوبة	هل يحقق رفع جميع الأوضاع الخاصة المطلوبة؟	رفع جميع الأوضاع الخاصة يحقق المساواة المطلوبة
فلو أنهم اتبعوا القرآن آمنوا فآمنوا ونحن ... فقد آمنّا إيماننا معلولا	متأكد من كون من لم يتبع القرآن إيمانه معلول	ليس إيمان من لم يتبع القرآن معلول	هل إيمان من لم يتبع القرآن معلول؟	إيمان من لم يتبع القرآن معلول

إن حاجية المقتضى في الأمثلة أعلاه، تكمن في استمراره منغرسا في بنية المنطوق حتى بعد إخضاعه لاختباري النفي والاستفهام، وهو ما " يجعله يظهر باعتباره إطارا يصعب الاعتراض عليه"¹.

فقد يسهل على المخاطبين الاعتراض على منطوق تلك التراكيب ورفضه جملة وتفصيلا، " لكونه حدثا يخضع لمسؤولية المتكلم لوحده"². لكنهم لا يستطيعون الاعتراض على المقتضى الناجم عن هذا المنطوق لسببين اثنين:

يتمثل أولهما في أنهم قد فاتهم مبدئيا ساعة رفضه؛ إذ أن عرض الأمثلة السابقة على النفي والاستفهام يبين أنه " قد فات أوان الاعتراض على المقتضى، وكيف أن المقتضى قد غدا معلومة لا جدال فيها وحقيقة لا راد لها"³.

أما ثانيهما فيعود إلى أن هذا المقتضى يكون مسجلا ومدونا ومنغرسا في بنية اللغة نفسها⁴، وشيئا مشتركا بين الإبراهيمي ومخاطبيه ومن مسؤوليتهما معا.

ومن ثم، فإنه لا يمكنهم إلا القبول بهذه المقتضيات وعدم مهاجمتها، لأن مثل هذه المهاجمة لن تكون إلا مهاجمة في الوقت نفسه لما هو مشترك بينهم، ومهاجمة لعنصر واضح في عالم الخطاب، وهو ما من شأنه أن ينقل الخطاب من ساحة المنطق إلى ساحة الخصومة؛ إذ أن "

¹ - Oswald Ducrot, Les mots du discours, op. cit, p 20. نقلا عن: الزماني كمال، حاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 328.

² - Ibid, p20. نقلا عن: المرجع نفسه، ص 329.

³ - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 305.

⁴ - Oswald Ducrot, Les mots du discours, op. cit, p 30,31. نقلا عن: الزماني كمال، حاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 329.

نفي المقتضى يساهم في تحويل الحوار إلى خصومة... فمهاجمة مقتضيات الخصم... لا تكون إلا بمهاجمة الخصم نفسه¹.

• حاجية المقتضى التركيبي الناتج عن بنية العطف:

ينتج تنظيم الوحدات اللغوية وفق تركيب عطفى، في بعض الأحيان مقتضيات دلالية، كما في النموذج الآتي من كتابات الإبراهيمي:

ـ " ولو أنهم عملوا للصالح العام ولو قليلاً، لوجدنا الطريق معبداً ولخففوا علينا هذا العناء الذي نقاسيه، ويا ليتنا خرجنا معهم كفافاً لا علينا ولا لنا، ولكنهم أبقوا من سكوتهم ضجة للمبطلين علينا²."

فالعلاقة بين " لا علينا " و " لا لنا " علاقة عطف، والعطف سوغته الجهة الجامعة بين محتوى الوصفين وهي التضاد³، وقد تم العطف بالواو؛ إذ هي " أم حروف العطف... ومعناها الجمع والتشريك⁴، كما تقتضي الواو المغايرة، " ومقتضى المغايرة ألا تدخل الشيء ونفسه⁵، والمغايرة الحاصلة في النموذج السابق هي أن المعطوف والمعطوف عليه متباينان متضادان ليس أحدهما هو الآخر، وقد حدد التركيب العطفى صفات العلماء الحاليين - في تلك الفترة - بكوهم لا علينا؛ أي لم يضرروا جمعية العلماء فانتفى بذلك أن يكونوا ضدها، واقتضى نعتهم بأنهم لا لنا بأنهم

¹ - Ibid, p92. نقلا عن: المرجع نفسه، ص 329.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 150.

³ - ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 228.

⁴ - وصف المباني في شرح حروف المعاني، ص 410.

⁵ - النجار أشواق محمد إسماعيل، الاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم، دار دجلة، عمان، 2007، ص 274. نقلا عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الحجاجي للخطاب، ص 124.

لم ينفعوها وانتفى بذلك كونهم تابعين لجمعية العلماء، فلا حالة بينهما إلا " المحايدة "، فالمقتضي هنا هو " لا علينا ولا لنا " والمقتضى هو " المحايدة "، ومنشأ هذا المقتضى الدلالي هو التركيب العطفى بين المتضادين.

وعادة ما يكون المقتضى مضمرًا في البنية الاقتضائية فيتم استحضاره من خلال المقتضى، وقد يذكر ليظهر مقاصد حاجية تتوسل بأسلوب الإطناب لإقتضاءات مقامية، فالحجة في الإطناب هي إزالة اللبس والتوضيح، استدعى من الإبراهيمي توضيح موقف الجمعية ورأيها من هذه الفئة من العلماء.

وفي حالات كثيرة يكون التركيب العطفى خاصة في حالة العطف بالواو، قصد الجمع والإشراك كما في النماذج الآتية:

- " ولم يزل التذكير في كل أطوار الإنسانية مددا روحانيا يثير الخامل إلى العمل ويحث العامل على مواصلة العمل "¹.

- " وأن يكون اجتماعكم هذا فاتحة اجتماعات في الخير تنقضي مع العمر، تتأمرون فيها بالمعروف وتتناهون عن المنكر، وتتواصلون بالحق وتتواصلون بالصبر "².

- " لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه، ... ولا تأمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان "³.

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 51.

² - المرجع نفسه، ج1، ص 64.

³ - المرجع نفسه، ج5، ص 70.

- " وفرنسا بعد التهديدات العسكرية الأولى رأت أن عمل الحديد والنار لا ينفع ولا يدوم،
لأنه يمنع القرار والاستقرار " ¹.

- " وأن ما وصله من إخوانه العرب كله نوافل لا تكفي ولا تغني " ².

فجمع بين (إثارة الخامل إلى العمل ويحث العامل على مواصلة العمل)، وكلاهما
يشتركان في مقتضى مشترك وهو ضرورة العمل. وجمع بين (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
(، وهما يشتركان في مقتضى واحد وهو الدعوة إلى الدين.

وجمع بين (لا أمان له ولا إيمان)، وهما يشتركان في مقتضى واحد يجمعهما وهو عدم
موالاة المستعمر الذي لا بد لهم من عدم انتمائه. وجمع في المثال الآخر بين (لا ينفع ولا يدوم)،
وجمعهما يقتضي عدم الاستقرار. وجمع بين (لا تكفي ولا تغني)، فعدم الكفاية وعدم الغنى يقتضي
شبه انعدام للمساهمة العربية؛ أي تشترك في مقتضى يجمعهما وهو القلة.

• حاجبة المقتضى التركيبي الناتج عن بنية الإضافة:

تعتبر التبعية أو الإضافة من العلاقات التركيبية التي تنتج عن اقتضاءات دلالية العلاقة
بين المضاف والمضاف إليه، فالمضاف يستدعي مضافا إليه؛ لأنه فاقد للاستقلال، ولا بد له من
ملحق به يمنحه ما فقده، فيُخصّصه أو يُعرفه أو غير ذلك. ³

وعند اكتمال التركيب الإضافي بين المضاف والمضاف إليه، تظهر سمات اقتضائية
مختلفة توجه القول نحو غايات حاجبة، ففي قول الإبراهيمي:

¹ - المرجع نفسه، ج5، ص 78.

² - المرجع السابق، ج5، ص 220.

³ - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص 236.

. " والشباب المحمّدي أحقّ شباب الأمة بالسبق في الحياة، والأخذ بأسباب القوة، لأنّ لهم

دينهم حافظاً إلى ذلك، ولهم في دينهم على كل مكرمة دليل، ولهم في تاريخهم على

كل دعوى في الفخار شاهد " ¹.

يشتمل هذا النموذج على مضمّرات ناتجة عن التركيب الإضافي " الشباب المحمّدي"،

والحاملة لمضامين حجاجية مختلفة نعرضها في السلم الحجاجي التالي:

– **الضمني:** الشباب المحمدي شباب رباني.

– **المقتضى الثالث:** الشباب المحمدي أحقّ شباب الأمة بالسبق.

– **المقتضى الثاني:** للشباب المحمدي دينه محفّزاً له ودليله.

– **المقتضى الأول:** للشباب المحمدي تاريخه داعماً له وشاهداً له.

حجاجية المقتضى التركيبي الناتج عن بنية الاستثناء:

تعد جملة الاستثناء من البنيات المحولة لدخول أدوات الاستثناء عليها، ويعرف الأصوليون

الاستثناء بكونه " صرف اللفظ بحرفه عما يقتضيه لولاه أو إخراج لأنه مأخوذ من الثني " ¹، وهذا

الصرف يؤشّر على بروز مقتضيات دلالية. فقول إبراهيمي الآتي:

¹ – آثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص 121.

- " أما أسلوب البحث العلمي وبناءه على المحاكمة والنقد فهو ظاهرة الرجل الخاصة به ونعته الصادق، ولا أكتفكم أني ما كنت شديد الإعجاب بالرجل إلا من هذه الخلطة ²."

يحمل عدة اقتضاءات مرتبة من الأضعف إلى الأقوى من زاوية القوة الحجاجية، كما يلي:

- الإبراهيمي شديد الإعجاب بمحمد بن شنب، بسبب أسلوبه العلمي (مقتضى دلالي ناتج عن الاستثناء).

- حصول الإعجاب بالرجل، بسبب علمه أو بسبب أسلوبه العلمي. (مقتضى دلالي ناتج عن الاستثناء: ترتيب العلة [أسلوبه العلمي: المستثنى] على الحكم [الإعجاب بالعلم].

- الإبراهيمي معجب بالرجل. وهذه هي النتيجة الحجاجية التي أراد الإبراهيمي الإقرار بها؛ إذ الرجل ممن خدموا الدين والعلم في هذا البلد وأخلص إليه في أدائه الدعوي.

حجاجية المقتضى التركيبي الناتج عن تركيب الصلة والموصول:

يقوم الاسم الموصول بدور الرابط بين الجملة السابقة والجملة اللاحقة، وتسمى الجملة التي تليه " صلة الموصول "، ويحمل تركيب الصلة والموصول مقتضى دلالي، نمثل له بقول الإبراهيمي الآتي:

- " إن اعتقال الأستاذ العقبي قُوبل في جميع الأقطار بامتعاض عام، وإن ذلك الامتعاظ هو الذي أنطق الألسنة وحرك الأقلام ³."

¹ - شمس الدين بن مفلح المقدسي، أصول الفقه، ج3، ص 889. نقلا عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الحجاجي للخطاب، ص 122.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 47.

³ - المرجع السابق، ج1، ص 268.

- الذي أنطق الألسنة وحرّك الأقلام

وحرّك الأقلام.

- ليس هو الذي أنطق الألسنة وحرك الأقلام.

● وجود نطق للألسنة وتحرك للأقلام.

● أحد ما أنطق الألسنة وحرّك الأقلام.

● انتقاء القدرة على إنطاق الألسن وتحريك الأقلام عن غيره.

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 267، 268.

2 - Levinson, Pragmatics, p183. نقلا عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية،

ضمن: التحليل الحجاجي للخطاب، ص 125.

- انتفاء القدرة على إنطاقها وتحريكها عن غيره.
- أحد ما أنطق الألسنة وحرك الأقلام (الاعتراف بمسببهما).
- وجود نطق للألسنة وتحرك للأقلام.

• **حاجية المقتضى التركيبي الناتج عن البنيات الشرطية:**

- **البنية الشرطية الحاملة لمقتضى واقعي مضاد* :**

ينتج عن بعض الجمل المصدرة بـ " لو " الشرطية اقتضاء دلالي واقعي مضاد، بمعنى أن القضية التي تحملها هذه الجمل الشرطية تقتضي تحقق ضدها في الواقع، فيكون انتفاء طرفيها مقتضى من منطوقها¹ عندما يكون الشرط والجزاء مثبتين، فمقتضى القول " لو كنت صديقي لساعدتني " أنك لست صديقي وأنت لم تساعدني، فلما انتفى السبب (الصداقة) انتفت النتيجة (المساعدة)، أما إذا كان شرطها وجزاؤها منفيين، فإن مقتضاها يكون بضدهما؛ أي متحققا على

* – هو ترجمة للمصطلح الأجنبي (Presupposition Counter-factual)، وترجمه عبد القادر الفاسي الفهري بواقعي مضاد، بمعنى انتفاء وقوع القضية مع وقوع ضدها. [راجع: معجم المصطلحات اللسانية، ص 65]. والفرق بين الاقتضاء غير الواقعي والاقتضاء المناقض للواقع هو أن الأول يرتبط بكلمات تجعل ما يتبعها غير صحيح، أما الثاني فهو لا يجعل مضمون الجملة غير صحيح فحسب، وإنما يجعله مناقضا للحقائق [راجع: جورج يول، التداولية، ص 57].

¹ – ينظر: لايفوف جورج، اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، تر: عبد القادر قنيني، ص (60 – 70). نقلا عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الحجاجي للخطاب، ص 116، 117.

مستوى الواقع¹، فلو حولنا المثال نفسه للنفي: " لو لم تكن صديقي لما ساعدتني "، لاقتضى هذا التركيب أنك ساعدتني لأنك صديقي **، وما يجعل

الاقتضاء متعلقا بالبنيات الشرطية المصدرة بـ " لو " كونها تتعلق بالزمن الماضي *.

ومن خلال أقوال الإبراهيمي الآتية:

- " لو كان لنا أيها السادة جمعيات منظمة تقوم بهذا العمل لما كنّا نحرم هذا الحرمان المؤلم ولشدت عضد هؤلاء المجاهدين "².

- " ولو كنا نعبد الله حق عبادته ونبني العبادة الخالصة على عقيدة خالصة، لكان من آثار تلك العبادة في نفوسنا ما يقيها من شرور هذه العوائد العادية "³.

- " ولو اتسع وقت الأستاذ مؤسسها ** لكتابة مباحث التفسير بصورة واضحة منظمة ومع توسع في طريقته البديعة، لكانت خير خلف للمنار. ولو أعطاها حملة الأقلام العالية ما يجب لها

¹ - ينظر: George Yule, Pragmatics, p 29. نقلا عن: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الحجاجي للخطاب، ص 117، 118.

** - بعض الجمل الشرطية المصدرة بـ " لو " لا تحمل الاقتضاء الواقعي المضاد، ولا تفيد انتقاء الشيء لانتهاء غيره، فتقتضي الاستلزام فقط دون الانتقاء، ومعناه أن الشرط يستلزم الجواب دون حصول الانتقاء من عدمه، وتسمى " لو " هذه بـ " لو " الصهيبية لارتباطها بالمقولة: " نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه " فلو كانت " لو " تفيد انتقاء الشيء لانتهاء غيره، أو تحوي اقتضاء دلاليا واقعا مضادا، لصار المقتضى أن صهيبا خاف الله وعصاه وذلك متناقض. [راجع: مفاتيح الغيب، مج 15، ص 149، 150]. [وينظر: محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن مصنف التحليل الحجاجي للخطاب، ص 118. (الهامش)].

* - باستثناء الحالة التي تكون فيها " لو " متعلقة بـ " إن "، تستعمل آنذاك في الاستقبال مثل قوله تعالى: (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) البقرة، آية 219؛ أي وإن أعجبكم.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 53.

³ - المرجع نفسه، ج1، ص 134.

** - الكلام هنا عن " جريدة الشهاب " الجزائرية الأسبوعية.

من حق لاتسع نطاقها، وكثرت أوراقها، ولو قام أغنياؤنا بما لها عليهم من واجب لشبت عن الطوق الذي هي فيه ¹.

فلو " تقيد انتقاء الشيء لانتقاء غيره " ²، وبذلك فمحمول " لو " يقتضي الانتقاء في النماذج السابقة، ليصبح المقتضى في المثال الأول هو (الحرمان من شد عضد المجاهدين) لأنه (لم تتوفر الجمعيات المنظمة) فلما غاب السبب وهو توفر الجمعيات المنظمة غابت النتيجة وهي شد عضد المجاهدين. وهذا المقتضى التركيبي الناجم أساسا عن البنية الشرطية المصدرة بـ " لو "، يوجه الملفوظ نحو وجهة حجاجية تتمثل في أنه بالرغم من توفر الجمعيات إلا أنه لم تتمكن من شد عضد المجاهدين، ذلك أنه ينقصها التنظيم المحكم وهذا السبب الأخير بإمكانه أن يتوفر في أي وقت، ويقدم هذا المقتضى حجة قوية تتمثل في عمل أصحاب الجمعيات على العمل من أجل تحقيق شرط التنظيم والتنسيق لهذه الجمعيات، وبذلك يتحقق شد عضد المجاهدين.

والشيء نفسه مع المثالين الآخرين على هذا النحو:

السبب (غير متوفر) : عبادة الله حق عبادته. وكذا: العبادة الخالصة.

النتيجة (لم تتحقق) : ظهور ذلك في أنفسنا وانتقاء الشرور.

ويمكن للشرط الأول وهو السبب أن يتحقق في أي وقت، الشيء الذي يقضي بتحقيق النتيجة. وحجاجيته في توجيه الإبراهيمي للناس وترك العمل في الأخذ بالأسباب لهم كشرط لتحقيق طهارة النفوس وانتقاء الشرور.

والمثال الثالث، الذي يشتمل على ثلاث حالات:

¹ - المرجع نفسه، ج1، ص 184.

² - مفاتيح الغيب، ج2، ص 88.

* السبب (لم يتوفر) : اتساع وقت المؤسس.

النتيجة (لم تتحقق) : تحقيق خير خلف.

* السبب (لم يتوفر) : إعطائها حقها من حملة الأقلام.

النتيجة (لم تتحقق) : اتساع نطاقها وكثرة أوراقها.

* السبب (لم يتوفر) : قيام الأغنياء بواجبهم.

النتيجة (لم تتحقق) : تشب عن طوقها أكثر.

فالمقتضى التركيبي هنا بناء على البنية الشرطية المتصدرة بـ " لو " تقتضي تحقيقي الأسباب حتى يتسنى تحقيق النتائج، وقد استمد هذا الخطاب حاجيته من خلال تحديد الإبراهيمي لسبب عدم تحقق تلك النتائج، وتتمثل حجة في أنه ممكن أن تتحقق في أي وقت وتتغير ومن ثم تتحقق تلك النتائج، المتمثلة في تحقيق خير خلف، واتساع نطاق الجريدة وكثرة أوراقها، وتشب عن طوقها أكثر.

• البنية الشرطية الحاملة لمقتضى واقعي من جهة واحدة *

* - هناك في المقابل البنية الشرطية الحاملة لمقتضيين اثنين، وذلك في حالة ما إذا كانت الجملة الامتناعية تقتضي عدم تحقق شرطها وجزائها، فإن بنيات شرطية أخرى تقتضي صدق شرطها وصدق جزائها، ومن بين تلك البنيات، البنية الشرطية المتعلقة بـ " لما "، فـ " لما " ثلاثة مواضع، إما أن تكون جازمة للفعل المضارع، أو تكون بمعنى إلا، أو تكون شرطية وهذا الموضع الثالث هو الذي نقصده بالكلام هنا. [راجع: أحمد بن عبد النور المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، ص 281 - 284]. كما في قوله تعالى: (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) البقرة، آية 100. فـ " لما " حرف يدل على وقوع شيء عند وقوع غيره، فوقع جوابها مقارن لوقوع شرطها، وذلك معنى قولهم حرف وجود لوجود، أو حرف وجوب لوجوب [راجع: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج3، ص 385]. أي حرف يدل على وجود الجواب لوجود الشرط؛ إذ تتعلق المقتضيات الدلالية بتلك الزاوية. [راجع: محمد

إن بعض البنيات الشرطية يتحقق أحد أطرافها دون الآخر، ف " لولا " تفيد " انتقاء الشيء لثبوت غيره "¹؛ أي " ربط امتناع الجملة الثانية بوجود الأولى "، أو تحقق السبب دون تحقق النتيجة. كما في قول الإبراهيمي:

- " فلولا توفيقه ما تمّ عمل. ولولا إعانتته ما ظفر راغب بأمل "².

فالتركيب الشرطي هنا أفاد مقتضى متحققا وهو توفيق الله تعالى وإعانتته للناس، وآخر غير متحقق وهو عدم إتمام العمل ولا تحقيق الآمال أو تحقق الأمل بالأساس؛ إذ إن توفيق الله تعالى وإعانتته لهم جنبتهم عدم إتمام الأعمال وتحقيق الآمال، فهذا التركيب يقتضي أن (انتقاء عدم إتمام الأعمال من لوازم حصول توفيق الله)، وكذا (انتقاء تحقيق الآمال من لوازم إعانة الله)، وأما بالمخالفة فحيث حصل عدم إتمام الأعمال وعدم تحقيق الآمال، وجب ألا يحصل هناك توفيق من الله أو إعانة.

إن التوجيه الحجاجي الذأمنتة أداة الشرط " لولا " من خلال مقتضياتها التركيبية وهو أن توفيق الله وإعانتته أمران حاصلان جنبًا للإنسان عدم إتمام عمله وعدم تحقيق آماله، فالطاقة الحجاجية لهذين المقتضيين هي ضعف الإنسان وشدة حاجته إلى توفيق الله وإعانتته، وهذا ما سعى الإبراهيمي إلى إبرازه وتوجيه الخطاب حجاجيا له.

والشيء نفسه في قوله أيضا:

بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحجاجية، ضمن: التحليل الحجاجي للخطاب، ص 119، 120. فقد عمل

على استخراج تلك المقتضيات الحاملة لمضامين حجاجية في الآية الكريمة. [

¹ - مفاتيح الغيب، ج3، ص 116. وكشف الأسرار، ج2، ص 297.

² - آثار البشير الإبراهيمي، ج1، ص 64.

- " إن كنتم أولئك المستمعين فليست بذلك الداعي لولا هبة منكم نحو التقدّم حرّكتني بعد

السكون وأنطقتني بعد السكوت " ¹.

التركيب الشرطي هنا أفاد:

- مقتضى متحقق: هبة المستمعين نحو التقدم.

- مقتضى غير متحقق: كونه ليس بذلك الداعية.

وهذا التركيب يقتضي: انتفاء كونه ليس بذلك الداعية من لوازم حصول هبة المستمعين

نحو التقدم.

أما بالمخالفة: حيث حصول كونه ليس بذلك الداعية، وجب عدم حصول هبة المستمعين

نحو التقدم.

أما التوجه الحجاجي الذي أمنتّه أداة الشرط هنا " لولا " من خلال مقتضيات التركيب، هو

أن هبة المستمعين نحو التقدم أمر حاصل جنب الداعية ألا يكون بتلك الصورة غير الحركية،

فالطاقة الحجاجية لهذا المقتضى هي فتور الداعية وشدة حاجته لمستمعين جيدين لهم رغبتهم

وعزيمتهم نحو التقدم، وعاملين بذلك.

وفي قوله كذلك:

- " ولولا موانع من الأحكام الإدارية الجائرة في غلق بعض المكاتب، والتضييق في إعطاء

الرخص، وإيصاد المساجد في وجوه الوعاظ لكانت النتيجة اليوم مما تغتبط به الجمعية العاملة

المخالصة، وتغتبط به الأمة المتعطشة المقبلة " ¹.

¹ - المرجع نفسه، ج1، ص 50.

نجد أن التركيب الشرطي أفاد بأن هناك:

- مقتضى متحقق: موانع من الأحكام الإدارية الجائرة.

- مقتضى غير متحقق: كون النتيجة ليست مما تغتبط به الجمعية أو الأمة.

وهذا التركيب يقتضي: انتفاء كون النتيجة ليست مما تغتبط به الجمعية أو الأمة من لوازم

عدم حصول موانع من الأحكام الإدارية الجائرة.

أما بالمخالفة: حيث حصول كون النتيجة ليست مما تغتبط به الجمعية أو الأمة ، وجب

حصول موانع من الأحكام الإدارية الجائرة.

أما التوجه الحجاجي الذي أمنتته أداة الشرط هنا " لولا " من خلال مقتضيات التركيب، هو

أن موانع من الأحكام الإدارية الجائرة أمر حاصل جنب النتيجة ألا تكون بشكل يغتبط به الناس

وتغتبط به الجمعية، فالطاقة الحجاجية لهذا المقتضى هي عدم تحقيق نتيجة مرضية للجمعيات،

سواء للقائمين عليها أو بالنسبة لجميع الأمة، وحاجتها لعدم وجود موانع إدارية مجحفة في حقها

وجائرة لها.

¹ - المرجع السابق، ج1، ص 191.

3/- الاقتضاء واتساق الخطاب:

تسهم جل السمات الأسلوبية لكل كاتب في اتساق خطابه، وتلك السمات إذ تتردد وتتكرر في الخطاب بما تحمله من مقتضيات معجمية وتركيبية، فإن هذا التردد والتكرار يخلق نوعاً من الاتساق الذي يضمن وحدة هذا الخطاب وتماسكه. على أن " تُؤمّن الاقتضاءات للخطاب، من خلال التغطية الاقتضائية لعناصره، انسجامه ونموه الداخليين ¹."

وعلى هذا الأساس تعد الاقتضاءات عنصراً مهماً من عناصر تشكيل البناء الداخلي للخطاب وتحقيق اتساقه، وذلك بالاعتماد على ثلاث عمليات هي:

- التأسيس: وهويشمل جميع المقتضيات باعتبارها معلومات قديمة تضمن التماسك الداخلي للخطاب. " ويقوم على تكرار العناصر الدلالية ذاتها في الخطاب؛ إذ أن هذا التكرار يسمح بالاستمرار الغرضي للخطاب وبالتالي ارتقائه ²". ويشكل قاعدة لبناء المعلومات الجديدة.

- النمو والارتقاء: وتضم المعلومات الجديدة التي يتم تمريرها من خلال هذه المقتضيات؛ إذ يتخذ المتكلم المقتضيات باعتبارها معلومات واضحة ومتفق بشأنها بينه وبين المخاطب، مطية لتمرير أطروحاته الجديدة ودفع المخاطب إلى قبولها. حيث يتم بناء المعلومات الجديدة انطلاقاً من المعلومات التي تمثل المقتضى.

¹ - Catherine Kerbrat Orcchioni, L'implicite, Op.cit, p30. نقلاً عن: الزماني كمال، حجاجية

الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 332.

² - ريم الهامي، الاقتضاء وانسجام الخطاب، ص 140.

- اجتتاب الحشو: يساهم الاقتضاء، من خلال خاصية الإضمار التي تميزه، في تجنب الخطاب مزلق الوقوع في الحشو، فهو إذ يضمن المعاني الواضحة في الكلام والمنغرس في ثنايا ألفاظه، فإنه يؤمن للكلام جانبا مهما من الاتساق والتماسك.¹
- إن هذا الكلام يجعلنا نستنتج أن لكل خطاب مجموعة من المقتضيات يمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين وهما:

- مقتضى كلي: ويمثل المقتضى العام للخطاب أو للنص؛ إذ " الخطاب يُسَيِّرُه مقتضى واحد "² يتم حسابه انطلاقا من مقتضيات جملة وأجزائه.
- مقتضيات جزئية: وهي تتمثل في المقتضيات المنغرس في بنيات الكلمات والتراكيب المكونة لهذا الخطاب، وجمع* هذه المقتضيات وضم بعضها إلى بعض، هو ما يكون مقتضاه العام.

وسنعمل هنا على اختيار بعض النصوص من كتابات الإبراهيمي، من النصوص المدونة في الجزء الخامس من آثاره**، والتي بوضع تلك النصوص في السياق التاريخي الذي قيلت فيه [1954

¹ - ينظر: الزماني كمال، حاجية الأسلوب في الخطابة السياسية، ص 332.

² - ريم الهامي، الاقتضاء وأنسجام الخطاب، ص 140.

* - ظهرت مجموعة من الفرضيات التي حاولت تفسير هذا التجميع، كان - حسب أزيبيط - أعمقها تحليلا واستيعابا الفرضية التجميعية المنطقية. وتقوم هذه الفرضية على ادعاءين وهما:

- ادعاء 1: إن الجمل ترث اقتضاءات كل توابعها المكونة.

ادعاء 2: إذا كانت الجملة (ج) تقتضي (ض) فإن التعابير الجزئية لـ (ج) تقتضي كذلك (ض) [راجع: بنعيسى أزيبيط، الخطاب اللساني العربي، ج2، ص 83، 84].

** - هذا الجزء الذي كتب مقدمته أبو القاسم سعد الله في 27 يناير 1997 بالأردن، مع إيراد مقدمة لأبي القاسم سعد الله نفسه في 18/08/1993 بنيسابور، وهي مقدمة الطبعة لهذا الجزء حين طبع بعنوان " في قلب المعركة " بعدد أقل من المقالات، فقد زيد في هذا الجزء حوالي 15 مقالا للشيخ. وقد صدر هذا الجزء بكلام عن السياق التاريخي الذي كتب فيه، بقلم محمد الهادي الحسني في 06 نوفمبر 1996 بالبلدية - الجزائر.

- [1965]؛ أي في فترة الثورة التحريرية*، فكان شعار كتاباته في هذه المرحلة: الجهاد بكل أنواعه، والثورة وقتال المستعمر وأعوانه.

فالمغزى العام أو فلنقل بأن المقتضى الكلي العام لهذا الجزء من كتابات الإبراهيمي قد خصص للجهاد والثورة؛ أي: ضرورة الجهاد والثورة.

ولمعرفة دور الاقتضاء في تحقيق اتساق خطابات هذه الكتابات سنستخرج المقتضيات الخاصة بكل نص، ثم تبين مدى مساهمة مقتضيات كل نص في تحقيق اتساق تلك الخطابات انطلاقاً من علاقة هذه المقتضيات الجزئية بالمقتضى العام لتلك النصوص؛ أي " الجزء الخامس "، والذي يمكن صياغته - أي المقتضى العام - كما يلي: **ضرورة الجهاد* والثورة****.

ونعتقد أن كل مقتضيات تلك النصوص مجتمعة سوف تصب في المقتضى العام لتلك الكتابات، والتي سنورد نماذج فقط من كل نص على سبيل التمثيل لا الحصر:

* - كتب في السياق التاريخي لهذا الجزء بقلم محمد الهادي الحسني في 06 نوفمبر 1996 بالبليدة- الجزائر، ما يأتي: "إن إيمان الإمام البشير الإبراهيمي بالجهاد وسيلة لتحرير الوطن من الاستعمار هو من إيمانه بربه...، ومن اقتناعه بأن الفرنسيين لا يخضعون إلا للقوة، حيث كتب سنة 1950 يخاطب الشعب الجزائري ويغرس في قلبه هذه الحقيقة: (إن القوم - الفرنسيين - لا يدينون إلا بالقوة، فاطلبها بأسبابها، وأنها من أبوابها، وأقوى أسبابها العلم، وأوسع أبوابها العمل، فخذها بقوة تعش حميدا وتمت شهيدا)، ويضاف إلى ما سبق معرفة الإمام بنفسية الشعب الجزائري الذي فطر على حب الجهاد، دفاعاً عن دينه، وعرضه، وأرضه التي سميت في فترة من التاريخ (أرض الجهاد)، وسمي أحد أبواب عاصمته (باب الجهاد). فمسألة تحرير الجزائر عن طريق الجهاد مسألة مفروغ منها بالنسبة للإمام الإبراهيمي..." [راجع: آثار الإبراهيمي، ج5، ص 17 - 30].

** - تدل كلمة الجهاد في اللغة على القتال مع العدو، جاء في لسان العرب: وجاهد العدو مجاهدة وجهاد: قاتله. والجهاد المبالغة واستقراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء. [راجع: لسان العرب، مادة (جهد)]. و[راجع: تاج العروس، مادة (جهد)].

*** - تدل كلمة الثورة في اللغة على الكثرة والغضب والجدية. جاء في لسان العرب: ثار الشيء ثوراً وثوراً وثوراً وثوراً: هاج. وثور الغضب: جدته. والثائر: الغضبان. وفي التهذيب: ثورة من رجال وثورة من مال للكثير. [راجع: لسان العرب، مادة (ثور)].

النص الأول: نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد: نعيذكم بالله أن تتراجعوا...

" كان العالم يسمع ببلايا الاستعمار الفرنسي لدياركم، فيعجب كيف لم تثوروا، وكان يسمع أنيئكم وتوجعكم منه، فيعجب كيف تؤثرون هذا الموت البطيء على الموت العاجل المريح،... ولو أن تلك العشرات من الآلاف من أبنائنا ماتوا في سبيل الجزائر، لماتوا شهداء وكنتم بهم سعداء ...

احتلت فرنسا وطنكم منذ قرن وربع قرن، وشهد لكم التاريخ بأنكم قاومتوها مقاومة الأبطال، وثرتم عليها مجتمعين ومتفرقين، نصف هذه المدة ."¹

" إن أقل قليل مما وقع على رؤوسكم من بلاء الاستعمار الفرنسي يوجب عليكم الثورة عليه، من زمان بعيد، ... وقد قمتم الآن قومة المسلم الحر الأبى فنعيدكم بالله وبالإسلام أن تتراجعوا أو تتكصوا على أعقابكم... وإنها تنظر إليكم مسالمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي أنها عدو لكم وأنكم عدو لها، ووالله لو سألتوها ألف سنة، لما تغيرت نظريتها العدائية لكم، وهي بذلك مصصمة على محوكم، ومحو دينكم وعروبكم، وجميع مقوماتكم.

...إنكم إن كتبتكم البسمة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي ارث العروبة والإسلام فيكم."²

" أيها الإخوة الأحرار:

هلموا إلى الكفاح المسلح

¹ - آثار البشير الإبراهيمي، ج5، ص 33.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 35.

... كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا واحتقرنا أنفسنا واحتقرنا المسلمين، وخجلنا من الله أن يرانا ويراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبعونه وتوفيقه، إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنين: إما موت وراءه الجنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة ¹.

نلاحظ أن الكلمات الأساسية في هذا النص، هي: الجهاد، الثورة، الكفاح، والمقاومة. إضافة إلى كلمات ذات صلة بالجهاد والثورة كالأبطال، البطولة، والشهداء.

ويضاف إلى ذلك ما استحضره الإبراهيمي من سمات أسلوبية أراد من خلالها إبراز أهمية تلك الكلمات وتصويرها والترغيب فيها: (الشعب الجزائري المجاهد، قاومتوها مقاومة الأبطال، يوجب عليكم الثورة، فاملؤوها بآيات البطولة، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، هلموا إلى الكفاح المسلح، في الجهاد لإعلاء كلمته).

أو تلك التي رهّب وحذّر من خلالها العازفين عنها، أو المترددين: (نعيذكم بالله أن تتراجعوا، فيعجب كيف لم تثوروا، فيعجب كيف تؤثرن هذا الموت البطيء على الموت العاجل المريح، يوجب عليكم الثورة عليهم، وخجلنا من الله أن يرانا ويراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته).

وعليه يمكن القول أن تواتر كلمة الجهاد والثورة والمقاومة، أو ما سار في معناهم في هذا النص، يحمل جملة من المقتضيات الجزئية، التي تصب كلها في خانة المقتضيين الآتين:

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 36.

- المقتضى (1) : التأكيد* على أهمية الثورة والجهاد.
- المقتضى (2) : التأكيد على أهمية عدم التراخي عن اختيار الجهاد.

النص الثاني: موالاة المستعمر خروج عن الإسلام

" إذا قلنا إن موالاة المستعمر خروج عن الإسلام فهذا حكم مجمل، تفصيله أن الموالاة مفاعلة أصلها الولاء أو الولاية، وتمسّها في معناها مادة التولّي والألفاظ الثلاثة واردة على لسان الشرع، منوط بها الحكم الذي حكمنا به وهو الخروج عن الإسلام، وهي في الاستعمال الشرعي جارية على استعمالها اللغوي وهو - في جملة - ضدّ العداوة، لأنّ العرب تقول وَالْيَيْتُ أو عَادِيْتُ، وفلان ولي أو عدوّ، وبنو فلان أولياء أو أعداء، وعلى هذا المعنى تدور تصرفات الكلمة في الاستعمالين الشرعي واللغوي " ¹.

" فالواجب على المسلمين أن يفهموا هذا، وأن يعلموا أنّ من كان عدوّاً لهم فأقلّ درجات الإنصاف أن يكونوا أعداء لهم، وأن موالاته بأي نوع من أنواع الولاية، هي خروج عن أحكام الإسلام، لأن معنى الموالاة له أن تنصره على نفسك وعلى دينك وعلى قومك وعلى وطنك. والمعاذير التي يعتذر بها الموالون للاستعمار كالمداواة وطلب المصلحة، يجب أن تدخل في الموازين الإسلامية،... وموالاة المستعمر أقبح وأشنع ما تكون من الحكومات، وأقبح أنواعها أن يُحالف حيث يجب أن يخالف، وأن يعاهد، حيث يجب أن يجاهد، وأقبح ما فيها من القبح أن يحالف استعمار على حرب استعمار " ².

* - جاء هذا التأكيد اعتباراً على أن إنكار المخاطب لمضمون الكلام يقتضي تأكيد المتكلم لهذا الكلام [راجع: ريم الهمامي، الاقتضاء وانسجام الخطاب، ص 397]. وهو ما فعله الإبراهيمي في هذه النصوص.

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 68.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 69.

" أيها المسلمون أفرادا وهيئات وحكومات:

لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه.

ولا تتوله في سلم ولا حرب فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم.

ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له.

ولا تأمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان.

إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم في زدم في عمره يوما بمولاتكم له.

ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".¹

لقد تواترت كلمة " موالاة " في هذا النص بشكل كبير جدا ومعها كلمة " الاستعمار أو المستعمر "، وإن كانت الأخيرة لا تحمل دلالتها في ذاتها في هذا النص، وإنما تأخذ معناها من خلال ربطها وعلاقتها بكلمة " الموالاة "، وقد وردت في سياق تبين ما معنى الموالاة وخاصة للأعداء وأنها لا تكون لهم لأن فيها غدرا بالوطن ومخالفة للإسلام بل خروج عنه، وهذا من شأنه أن يجعل المستعمر في نظر الموالي ليس عدوا ومن ثمة يساعد هذا على التراخي وعدم القتال والثورة والجهاد على الاستعمار، فورود كلمة الموالاة في سياق توضيحها وتبيينها: (موالاة المستعمر خروج، إذا قلنا أن موالاة المستعمر خروج، أن الموالاة مفاعاة أصلها الولاء أو الولاية، معناها مادة التولي، تقول واليت أو عاديت، وفلان ولي أو عدو).

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 70.

ووردت كلمة " الموالاة " في سياق التحذير من موالاة المستعمر: (وأن موالاته بأي نوع ... هي خروج، الموالاة له أن تنصره على نفسك، يعتذر بها الموالون للاستعمار كالمدارة وطلب المصلحة، وموالاة المستعمر أقبح وأشنع).

ثم انتقل بهذه الكلمة إلى سياق أكثر تشديدا في ربطها بالمستعمر، وهو النهي عن موالاة الاستعمار: (لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله، ولا تتوله في سلم ولا حرب، لا تعاهدوه فإنه لا عهد له، لا تأمنوه فإنه لا أمان له، ولا تحالفوه).

فورود هذه الكلمة " الموالاة " وربطها بالاستعمار في هذا السياق حملت العديد من الاقتضاءات سواء في دلالتها المباشرة أو فيما تقتضيه من دلالات غير مباشرة، نجمل كل تلك الاقتضاءات في الاقتضائين التاليين:

- المقتضى (3): التأكيد على عدم موالاة الاستعمار.
- المقتضى (4): التأكيد على أن موالاة الاستعمار هي امتناع عن الجهاد وتركه.

النص الثالث: الجزائر المجاهدة

" لو قسمت حظوظ الجهاد بين الأمم لحازت الجزائر قصبات السبق، ونطلق الجهاد على معناه الواسع الذي يقتضيه اشتقاقه من الجهد، ولنبدأ بمعناه الخاص وهو جهاد العدو الأجنبي المغير على الوطن، وقد وضع الله الجزائر في موضع يدعو إلى الجهاد وعلى وضع يدعو إلى الجهاد ...إلى معنى روحاني أعلى وأسمى وهو الجهاد دفاعا وهجوما لإعلاء كلمة الله،...

هذا المزاج المتحدّر من الخصائص الفطرية التي زادها الإسلام تثبيتا وأولاهها عناية وغريلة، هو الذي ترك الأمة الجزائرية أمة جهاد بجميع معانيه، وعلى هذا المعنى يجب أن يبنى المؤرّخ تاريخ الجهاد النفسي في هذه الأمة".¹

"... ولكن الجزائريين لم يسكتوا وبدأت المقاومة لأول أمرها قريبة من نظام المراقبة، ثم نظمت على يد الأمير عبد القادر ... تعاونت العوامل في آخرها على القائد عبد القادر فاستسلم مكرها وتحطمت المقاومة الجماعية المنظمة بتسليم الأمير. ولكن هل تحطمت المقاومة بتسليم الأمير؟ لم تتحطم المقاومة إلا في السهول التي مهّد سبلها وفعل فيها الجيش الفرنسي الأفاعيل الوحشية التي يعترف بها القادة مثل القائد سانت أرنو..."²

"أما في الجبال فبقيت المقاومة على أدها في شكل تمرد شامل وفي ثورات متتالية... أكبرها وخاتمتها ثورة الحاج أحمد المقراني ... وكانت ثورة المقراني بعد واحد وأربعين سنة من الاحتلال مرّت كلها في المقاومات والثورات المسلحة ولم تسترح فيها فرنسا، ولا اطمأن لها جنب، فمدة المقاومة المتصلة إذن هي أربعون سنة وهي من أطول المقاومات أمدا في التاريخ. ولو طالبت الحرب السبعينية بين فرنسا والألمان سنتين أو ثلاثة لباءت ثورة المقراني بالنصر والنجاح"³.

"فهذه هي نهاية الجهاد المسلح، أما أنواع الجهاد الأخرى ففيها تظهر قوّة الجزائر وإيمانها وصلابتها، ولا يعرف قيمة هذا النوع من الجهاد إلا من عرف "فرنسا في الجزائر" وما سلّطت فرنسا على الجزائر وما ساقّت إليها من شرور وبلايا.

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 76.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 78.

³ - المرجع نفسه، ج5، ص 78.

إن فرنسا بعد التهديدات العسكرية الأولى رأت أن عمل الحديد والنار لا ينفع ولا يدوم، لأنه يمنع القرار والاستغلال وهي ما جاءت إلا لتستقر وتستغل، ورأت أن ملك القلوب بالإحسان ليس من طبعها ولا من سيرتها، وأن تحطيم المقاومة المادية لا يغني ما لم تحطم المقاومة الروحية، فعمدت إلى وضع برنامج واسع طويل عريض لضمان بقائها في الجزائر¹.

نسجل في هذا النص ورودا غير طبيعي لكلمة الجهاد والمقارنة والثورة، وتمثل هذه الكلمات في ربطها " بالجزائر " بعدا دلاليا يقضي بأن صفة الجهاد والثورة والمقاومة باتت لصيقة أو مرتبطة بالجزائر فذكرها يقتضي ذكر الجزائر حتى باتت الجزائر مقاومة، ثائرة، ومجاهدة، وقد وردت كلها في سياق توصيفي للجهاد والثورة والمقاومة وذكر ما جعل الجزائر هي " جزائر مجاهدة " في سياقات عدة: (حظوظ الجهاد، نطلق الجهاد على، اشتقاقه إلى الجهد، موضع يدعو إلى الجهاد، الأمة الجزائرية أمة جهاد، تاريخ الجهاد، وبدأت المقاومة، هل تحطمت المقاومة؟، لم تتحطم المقاومة، فبقيت المقاومة، في ثورات متتالية، ثورة المقراني، المقاومات والثورات المسلحة، من أطول المقاومات أمداء، الجهاد المسلح، أنواع الجهاد، هذا النوع من الجهاد، المقاومة المادية، المقاومة الروحية).

اقتضت كل هذه السياقات التي وردت في كلمات الجهاد والثورة والمقاومة العديد من المقتضيات، ويمكن إجمالها في المقتضيات الآتية:

- المقتضى (5): التأكيد على أن الأمة الجزائرية أمة مجاهدة.
- المقتضى (6): التأكيد على أهمية الحفاظ على أهمية الحفاظ على موروث الثورات الشعبية.

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 78، 79.

- المقتضى (7) : التأكيد على أهمية الجهاد قتالا ودفاعا.

النص الرابع: شرعية الحرب في الإسلام

" من لوازم لحرب سفك الدماء، والدماء في الإسلام محرمة معصومة إلا بحقها، وليست عصمة الدماء خاصة بالمسلمين في حكم الإسلام بل مثلهم في ذلك ثلاثة أصناف ... دماؤهم معصومة كدماء المسلمين، ولا يجوز للحاكم كيفما كانت سلطته أن يستبيح دم أحدهم إلا بحقه، وأول حق يكتسبه المسلم بإسلامه، أو الذمي ومن معه من الأصناف المذكورة هو عصمة دمه وماله، فإذا سفك دم غيره عدوًا بغير حق، استبيح دمه، ورفعت العصمة عنه بما كسبت يده ...

فالحرب في الإسلام لا تكون إلا لمن آذنه بالحرب، أو وقف في وجه دعوته، يصد عنه المستعدين لتلقيها، والإسلام في أعلى مقاصده يعتبر الحرب مفسدة لا ترتكب إلا لدفع مفسدة أعظم منها ..."¹

" شرعت الحرب في الإسلام أي أذن فيها بدستور كامل للحدود التي تربطها وتحدد أولها وآخرها، وتخفف من شرورها، وتكبح النفوس على الاندفاع فيها إلى الخروج عن الاعتدال وتعدي الحدود.

حرم الإسلام التعذيب والتشويه والمثلة في الحرب، وأوصى بالأسرى خيرا حتى جعل إطعامهم والإحسان إليهم قربة إلى الله، أمر ألا يقتل إلا المقاتل أو المحرض على القتال، أو المظاهر على المسلمين...

هذه آداب الحرب في الإسلام وأعماله".²

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 92.

² - المرجع نفسه، ج5، ص93، 94.

أما الكلمة التي وظفت في هذا المقطع بكامل حملتها الدلالية، فهي كلمة " الحرب " التي كررت بشكل صريح لو بربطها بشرعيتها في الإسلام وضرورة قتال المستعمر: (شرعية الحرب في الإسلام، من لوازم الحرب سفك الدماء، فالحرب في الإسلام لا تكون إلا، يعتبر الحرب مفسدة لا ترتكب إلا، شرعت الحرب في الإسلام، حرن الإسلام التعذيب في الحرب، هذه آداب الحرب في الإسلام).

أو من خلال الكلمات الدالة على الحرب أو أحد مقتضياته كالدّم والقتال: (سفك الدماء، والدماء في الإسلام محرمة، عصمة الدماء، أن يستبيح دم أحدهم، عصمة دمه وماله، سفك دم غيره، استبيح دمه، ألا يقاتل إلا القاتل أو المحرض على القتال).

ويولد حضور هذه الكلمة في الخطاب كما سبقت الإشارة إلى ذلك، عددا من الاقتضاءات، وهي:

- ضرورة وجود سالب ويمثله الاستعمار الفرنسي.
- ضرورة وجود مسلوب يمثله الشعب الجزائري.
- ضرورة وجود ما تم سلبه، ويتمثل في نهب خيرات البلاد وما يملك الناس من أرض أو دين أو حقوق.

أما أهم اقتضاء يمكن استنباطه من كلمة " الحرب " في علاقتها بالحمولة الدلالية السلبية التي صاحبها مع كلمة : الدم : في هذا النص، فهو:

- المقتضى (8): التأكيد على ضرورة القيام بالحرب رغم اقتضاءها سفك الدماء.

والمقتضى الأساس الذي ساقته إليه كلمة " الحرب " هنا، هو:

- المقتضى (9): التأكيد على مشروعية الحرب وقتال المستعمر في الإسلام.

النص الخامس: في الذكرى الأولى للثورة الجزائرية

" هذا المولود الذي ستكون نتيجته أو ثمرته أو بلوغه الأشدّ أن تبلغ الجزائر كل استقلالها، هذا المولود الذي هو تلك الثورة العارمة التي شَنَّاها على الاستعمار الغاشم ولن تكون نتيجتها إلا التحرير إلا بلوغ الحرية التامة للوطن الجزائري بل المغربي كله، هذا الوطن الذي اصطبغ بدم أبنائه وسيظلّ هكذا إلى أن ينتصر الحق.

هذا الوطن الذي يهب أبنائه الآن هبة رجل واحد لنصرة العروبة والإسلام، فلا نرى منهم إلا الثائر أو المهيأ للثورة على الأقلّ والدافع إليها والممهد لها " ¹.

" نعم أيها الإخوة العرب، لِنَمَجِّدْ ثورة الجزائر المقدّسة، لنَمَجِّدْ هذه الثورة التي تحمي الوطن العربي الجزائري المسلم، لنَمَجِّدْها فتمجيدنا لها هو تمجيد للنبيل والشهامة، للحمى والذمار، وستنتصر هذه المثل العليا، وسيخيا هؤلاء الأبطال الذين سينصرونها، هؤلاء الذين يجاهدون جهاد شخص واحد فلا يعترفون بكلمة أنت أو هو أو أنا أو أنتما أو أنتم، فكلها ضمائر في بطون الكتب ليس لها شأن في جهادهم الموحد وقلوبهم الواحد الفرد " ².

تواترت في هذا النص كلمة " الثورة " وحملت دلالاتها الواضحة في اتساق تام حين تم ربطها بكلمة " الجزائر " " الثورة الجزائرية "، ووردت في بعض السياقات دالة عليها كلمة " الجهاد "، من ذلك: (لِلثورة الجزائرية، تلك الثورة العارمة، الثائر، المهيأ للثورة، لنمجد ثورة الجزائر المقدسة، لنمجد هذه الثورة، يجاهدون جهاد شخص واحد، جهادهم الموحد).

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 171.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 172.

لقد حملت كلمة " الثورة " العديد من الاقتضاءات الجزئية خاصة في أثناء ربطها بالجزائر، ويمكن إجمال تلك الاقتضاءات في المقتضيين التاليين:

- المقتضى (10): التأكيد على أن الثورة الجزائرية نتيجتها التحرير والتحرر.
- المقتضى (11): التأكيد على أهمية توحيد صفوف الجهاد.

النص السادس: جهاد الجزائر وطغيان فرنسا

" أما الجزائر فقد أعربت عن نفسها بالأعمال الخالدة التي قامت بها ثورتها، وبالبطولات المجيدة التي قام بها شبابها الثائر، وبما أحييت من شعائر الجهاد...

أعربت الجزائر عن نفسها بذلك كله، وأثبت التاريخ بشواهد أنه لا تحارب فرنسا وحدها، وإنما تحارب كل من يُمدّها بتأييد في الرأي والسياسة ويعينها بالمال والسلاح...

هذا ما قامت به الجزائر وحدها في قسم الجهاد بالنفس، وهو القسم الذي عُلِمَتْ أخباره بالتفصيل، واستفاضت في العالمين إلى حد التواتر الذي لا يماري فيه أحد، وبه دخلت الجزائر التاريخ من بابه وسجلت اسمها في الخالدين..."¹

" وأما النوع الثاني من نوعي الجهاد المادي، وهو الجهاد بالمال، وهو الدعامة المتينة التي تقوم عليها الثورات، فقد قام الجزائريون وحدهم بما تتطلبه الثورة من أموال باهضة، والثائرون - إلى الآن - إنما يعتمدون على الأموال الجزائرية... فإن الجزائر المجاهدة تعتمد على الله وعلى نفسها

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 216، 217.

وعلى ما أبقاه لها الاستعمار من فتات، لأنها علمت أن هذه الثورة هي الموقف الأخير مع فرنسا...¹

"أيها الإخوة العرب:

هذه كلمة طائفة عن ثورة الجزائر... علمتم منها أن الشعب الجزائري بقضه وقضيضه ثائر، وأنه مصمم على الجهاد إلى الموت، وأنه قائم وحده بالعنصر المعتمد في الثورة وهو المال، وأن المال الذي يملكه محدود، وأن ما وصله من إخوانه العرب كله نوافل لا تكفي ولا تغني...²

في النص ورود لكلمة "الجهاد" و"الثورة" في دلالة صريحة لمعانيهما، وقد وردا في سياقات عدة أهمها كان في إضافتها إلى الجزائر أو إضافة الجزائر لهما: (جهاد الجزائر، الجزائر المجاهدة، ثورة الجزائر)، فلقد صارت كلمة "الجهاد" و"الثورة" شديدة الالتصاق والارتباط باسم الجزائر، وكأن ذكر أحدهما يقتضي ذكر الآخر وإن ذهنيا، مع ورود العديد من السياقات أخرى في النص، والتي حملت معها دلالات مشابهة وفي بناءات مختلفة: (قامت بها ثورتها، شبابها الثائر). فهنا ضمير الغائب يعود على الجزائر، فحين لم تذكر الكلمة إلى جانب "الجزائر" ككلمة كان ما يعود عليها ولو ضميرا غائبا.

أضف إلى ذلك باقي السياقات التي وردت فيها كلمتا "الجهاد" و"الثورة": (شعائر الجهاد، الجهاد بالنفس، الجهاد المادي، الجهاد بالمال، تقوم عليها الثورات، تتطلبه الثورة، والثائرون إنما يعتمدون، هذه الثورة هي الموقف الأخير، بقضه وقضيضه ثائر، مصمم على الجهاد، العنصر المعتمد في الثورة).

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 217، 218.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 219، 220.

وقد ارتبطت هذه السياقات الأخيرة بموجبات الجهاد، ومقومات الثورات سواء على الجانب المادي أو البشري، فكان منها ما يعود على الجزائر بحضور مكون منها، وهم: الثائرون (المجاهدون من أبنائها)، والثائر (الشعب الجزائري المجاهد).

وكل تلك السياقات حملت في طياتها مقتضيات عديدة تصب كلها في خانة المقتضيين التاليين:

- المقتضى (12): التأكيد على ن الجزائر ثائرة مجاهدة.
- المقتضى (13): التأكيد على وجوب دعم الجهاد بكل الوسائل المادية.

النص السابع: الذكرى الرابعة لثورة الجزائر التحريرية

" إن المعنى الذي إذن فيكم مؤذنه بالاجتماع فاجتمعتم، وحدا بكم حاديه إلى الإسراع فأهبطتم، هو " ثورة الجزائر " هذا المركب الإضافي غير محدود ولا مقيد، فالأعمال العظيمة كالأشجار، لها موسم واحد يحتفل به الناس وهو موسم إيتاء الثمرات، فيوم الثورة الجزائرية هو يوم النصر الأخير، يوم يفرح المؤمنون بنصر الله ¹

" أيها الإخوة: إن ثورة أربع سنوات لا ندري ماذا خبأ لها القدر المحجوب من نهاية، من شعب لا يملك شيئاً من أسباب القوة وسلاح العصر ... إن ثورة مثل هذه لحقيقة - إن امتد بها الزمن - بأن تنقل ظهور إخوانكم، وقد ترمي حركتهم بالكلال إلا أن يرحم الله ²

" أيها الإخوة: لا تنتزعوا من استمرار الثورة أربع سنوات وهي في عنفوان شبابها، وقوة أسبابها ... على أن ثورة أربع سنوات قد تحيف أمواله* التي غذى بها الثورة في سنواتها الأربع،

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 230.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 231.

وتحيف أقاته الضرورية، وعطلت مكاسبه الطبيعية ... وما كان يقدمه الجزائريون العاملون بفرنسا للثورة عن طوع واختيار تعطل بتضييق فرنسا على أولئك العمال، وبسجن عشرات الأولوف منهم وبمنعهم من الاتصال بالجزائر، حتى يمنع إيصال النفقات إلى أهليهم لتضطر الثورة إلى الانفاق عليهم، فتثقل التبعة ويدبّ الفشل، وهذه كلها وسائل يرتكبها الاستعمار لئلاّ في أعضاء المجاهدين، وكلها - ومثلها - واقعة بالفعل وكلها ذات أثر فعال كلما امتد الزمن في قوة الثورة"¹

"أيها الإخوة: إن من حسنات الثورة الجزائرية أنها كانت سببا في تقريب العرب بعضهم من بعض وجمع قلوبهم حولها ونسخ التجافي بينهم بالتصافي، وأنها كشفت الغطاء عن مخازي الاستعمار الفرنسي، وكشفت بالتبع عن حقيقة هذه الدولة التي تملأ ماضيها فخرا ... فرنسا احتلت الجزائر منذ مائة وثلاثين سنة تقريبا، ولم تستطع تحطيم المقاومة الصادقة من أهلها ... تفعل مع الشعب الجزائري في هذه الثورة ما لم يفعله سلفها في حروب الغزو"²

ما ميّز هذا النص هو ورود كلمة " الثورة " بشكل تكاد كون فيه لوحدها دون غيرها من الكلمات التي تسير في مجراها، ما عدا " الجهاد " مرّة: (في أعضاء المجاهدين)، والمقاومة مرّة: (المقاومة الصادقة)، والحرب مرّة: (حروب الغزو)، وفي غير ذلك ذكرت الثورة في سياقات مختلفة، منها سياقات التأكيد: (إن ثورة أربع سنوات، إن ثورة مثل هذه، أن ثورة أربع سنوات)، وسياقات أخرى مختلفة: (استمرار الثورة، غدى بها الثورة، للثورة عن طوع واختيار، لتضطر الثورة إلى الإنفاق، قوة الثورة، حسنات الثورة)ن وكلها مرتبطة بمعنى استمرار وإيجابيات وقوة الثورة، كما وقد وردت كلمة " الثورة " في هذا النص مضافة إلى " الجزائر " بشكل ملفت وفي سياقات متعددة

* - الضمير هنا عائد على الشعب الجزائري.

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 232.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 233.

ومتشابهة، وقد عبر عنه ذاته بقوله: " هو ثورة الجزائر، هذا المركب الإضافي غير محدود ولا مقيد"¹: (الذكرى الرابعة لثورة الجزائر، هو ثورة الجزائر، فيوم الثورة الجزائرية، حسنات الثورة الجزائرية).

فبورود هذه الكلمة " الثورة " بهذا الشكل الملفت للانتباه في هذا النص، ندرك أن ضمن هذا التكرار عددا من المقتضيات يمكن إجمالها فيما يلي:

- المقتضى (14): التأكيد على أن الثورة الجزائرية قوية مستمرة.
- المقتضى (15): التأكيد على ضرورة دعم الثورة لضمان استمرارها.
- المقتضى (16): التأكيد على أن ثورة الجزائر ختامها التتويج بالنصر إذا استمرت أسباب نجاحها.

النص الثامن: الجزائر الثائرة

" أيها الإخوان:

كانت جمعية الشبان المسلمين - كعاداتها في كل ما تزاول وتحاول - ملهمة إلهاما سماويا في هذا العنوان الذي أطلقته على يوم الجزائر، وهو: الجزائر الثائرة، لأنه وصف صادق على الجزائر، مطابق لحالتها الذاتية الدائمة بمعنييه اللغويين، فهي ثائرة بالصفة المشتقة من الثورة وهي ثائرة بالفهم المشتق من الثأر، والعرب يقولون لكل خارج على مألوف عرفي هو ثائر، كما يقولون لطالب الثأر والآخذ به ثائر، مع اختلاف المادتين في أصل المعنى، لأن من بدائع لغتهم تلاقي المادتين المختلفتين على الوصف مثل: سال وسأل يلتقيان في سائل، وثار وثأر يلتقيان في ثائر .

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 230.

والثورة والثأر كما يلتقيان في الوصف يلتقيان في بعض الحقيقة وبعض الأسباب وبعض النتائج وبعض الوسائل، ففي الثأر شيء من معنى الثورة، لأنه جزاء وانتقام، ولأن فيه طلباً لحق، وفيه إطفاء غيظ وشفاء نفس، وفيه نكاية لعدو وانتصاف من ظالم، وفي الثورة شيء من معنى الثأر لأنها إما سعي في استرجاع حق مغصوب، أو حفاظ على شرف مهدر، أو زياد عن كرامة مهانة، أو دفاع عن عرض منتهك، أو غيرة على حرية مسلوقة، أو نضال عن وطن مستباح، أو حماية لدين مستضام، والجزائر تجمع هذا كله، وثورتها - حين تثور - تجتمع على هذا كله.

الجزائر ثائرة بالمعنى الأول على الاستعمار الفرنسي الذي جثم عليها قرناً وربع قرن وسامها سوء العذاب ورماتها بالمخزيات الثلاث: الجهل والفقر والمرض...

والجزائر ثائرة بالمعنى الثاني، فلها عند فرنسا ثارات تمتد مع القرن سنة سنة، فكم قتلت من أبناء الجزائر مئات وألوفاً وعشرات الألوف...¹

"أيها الإخوان:

إن الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو الذي نوع أسباب الثورة عليه، وكل سبب منها يقضي بثورة مجنونة، فكيف بها حين تجتمع؟ فلو أن أهل الجزائر ثاروا كلهم ثورة رجل واحد، وثأروا لقتلى تلك المذابح التي سمعتم إجمالها بقتل أمثالهم من الأوربيين لما بلغوا إلى ما تقر به العين من الثأر المنيم، والثأر المنيم عند أجدادكم العرب هو الثأر الذي يجلب النوم المريح إلى العيون التي قرحها السهر في طلب الثأر شهوراً وأعواماً حتى إذا أدركته نامت وقرت...

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 236، 237.

ولو أن الجزائر ثارت كلها ثورة رجل واحد غير على ما فعلت فرنسا بدينها وأوقافه ومدارسه ومعابده...¹

نلاحظ أن كلمة " الثورة " في هذا النص تردت بشكل لافت جدا؛ إذ كانت هي وحدها الموظفة في التعبير عن الاقتضاء الدلالي الذي سعى الكاتب إلى إيصاله، وق تكررت هذه الكلمة بشكل ثابت أو من خلال اشتقاقاتها المختلفة، مشتركة في ذلك في أصل الاشتقاق مع " الثائر ":(
من الثورة، من الثَّار، هو ثائر، لطالب الثَّار، وثار وثار يَلْتَقِيَان في ثائر، والثورة والثَّار، ففي الثَّار شيء من معنى الثورة، وفي الثورة شيء من معنى الثَّار، ثارت تمتد، أسباب الثورة، يقضي بثورة، من الثَّار المنيم، والثَّار المنيم، هو الثَّار، طلب الثَّار، كلها ثورة).

كما وقد وردت كلمة " الثورة " مضافة إلى الجزائر أو الجزائر مضافة لها في العديد من السياقات:(الجزائر الثائرة، وهو: الجزائر الثائرة، الجزائر ثائرة بالمعنى الأول، والجزائر الثائرة بالمعنى الثاني). كما ارتبطت " الثورة " بالجزائر في سياقات تركيبية مختلفة، سواء بذكر الكلمتين أو من خلال ضمير أو غيره بما يدل على ارتباط ذكرها بالجزائر:(فهي ثائرة بالصفة، وهي ثائرة بالفهم، وثورتها حين تنثور، أهل الجزائر ثاروا، وثأروا لقتلى، أن الجزائر ثارت).

فلقد وظفت كلمة " الثورة " في هذا النص بكامل حمولتها الدلالية، ويولد حضور هذه الكلمة في هذا الخطاب بالشكل الذي سبقت الإشارة إليه عددا من الاقتضاءات، وهي:

- المقتضى (17): التأكيد على أن ثورة الجزائر ثار من الاستعمار.
- المقتضى (18): التأكيد على أهمية الثورة من أجل استرداد الحقوق والممتلكات.

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 238.

- المقتضى (19): التأكيد على ضرورة استمرار الثورة الجزائرية لأنها الأمل الوحيد للشعب.

- المقتضى (20): التأكيد على أهمية أن يثور الشعب الجزائري كله دون استثناء.

النص التاسع: فرنسا وثورة الجزائر

" إذا كانت النتائج تنتزع من المقدمات فإن النصر محقق للثورة الجزائرية: هذا ما تحكم به العقول الراجحة، وتقتضيه أصول الاجتماع الإنساني وتؤيده العادات الجارية.

إنما نحن في عالم أسباب ومسببات تصطرع فيه سنن لا تبديل فيها ولا تغيير، والثورة الجزائرية دائرة في هذا المدار من أول يوم ...¹

" كانت فرنسا وما زالت ثائرة على الشعب الجزائري ثورة متماسكة الحلقات من قرن وربع قرن، يعني من معارك الاحتلال الأول فلم ينطفئ لها غيظ... هذه جوانب بارزة من ثورة فرنسا المستمرة علينا، وهي حقائق يراها كل جزائري ... ومن أسباب هذه الثورة من فرنسا علينا أننا عرب، وأقوى أسبابها أننا مسلمون...²

" كانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل فيما تحمل من معان أنها ليست ثورة على فرنسا من حيث أنها دولة، ولا على الفرنسيين من حيث أنهم أمة، فنحن أعقل من أن ننثور ثورة مستميتة على حكومة أو على جنس كيفما كانت تلك الحكومة أو ذلك الجنس...

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 243.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 245، 246.

وكانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل فيما تحمل من معان أنها ثورة على الظلم والجور والاستعباد وتلك الشرور التي ضربنا الأمثلة على سائرهما في هذه الكلمة ...¹

" إن هذه الثورة أثارت كوامن الأحقاد الدفينة في صدور الفريقين، وكلما امتد عمر الثورة يوما ازدادت نار الحقد اضطراما، فلا يبقى في قلب واحد من المتحاربين مكان للصفاء ...

ليت شعري هل يقيّض الله لثورة الجزائر ... ففيها في ربط الأسباب بالمسببات، فيؤرخ لهذه الثورة - التي طال أمدّها أربع سنوات وهي تطوي الأشهر من السنة الخامسة - تاريخا لا يقف عند الظواهر والسطحيات كعدد القتلى من المجاهدين وأعدائهم أو مجاوزة ذلك إلى قتلى المستضعفين والنساء والأطفال والعجزة، فكل ذلك من قشور الثورة ... ثم يُجَلِّي مواقع العبر من هذه الثورة المتأججة ... ويجلي الأسباب الحقيقية الكامنة في نفس المسلم العربي الجزائري التي دفعت إلى هذه الثورة ... لعمري لأن وجد هذا الكتاب التاريخي على النحو الذي أتصوره ليكون بدعا في كتب التاريخ كما كانت الثورة التي يؤرخ لها بدعا في الثورات، وإن أكبر أمنية من الأماني التي أتصورها أن تؤرخ الثورة الجزائرية على هذا النحو...²

لقد تكررت كلمة " الثورة " في هذا النص ووظفت بكامل حمولتها الدلالية، فقد أوردتها في هذا الخطاب بشكل جمع فيه كافة التركيبات التي ذكرها سابقا متفرقة عبر نصوص عدة، من أفراد وإضافة وتوكيد وتركيبات أخرى ذات دلالات مختلفة ولكنها متقاربة، بل متطابقة المعنى والدلالة، وما يميز هذه الكلمة أيضا أنها لم توظف في غير معناها الأصلي أو بشكل معاكس أو بحمولة دلالية أقل.

¹ - المرجع السابق، ج5، ص 246، 247.

² - المرجع نفسه، ج5، ص 250، 251.

من ذلك أنها مضافة إلى الجزائر وهذه أصبحت سمة أسلوبية مميزة في كتابات البشير الإبراهيمي، فذكر الثورة عند يستلزم في أكثر الحالات ذكر الجزائر، بأي شكل من الأشكال، وأبرزها الإضافة: (ثورة الجزائر، محقق للثورة الجزائرية، والثورة الجزائرية، كانت ثورة الجزائر، وكانت ثورة الجزائر، يقيض الله لثورة الجزائر، أن تؤرخ الثورة الجزائرية).

كما وقد ذكرت في سياقات أخرى عديدة مختلفة التركيب والبناء، ومطابقة في المعنى والأداء: (وما زالت ثائرة، على الشعب الجزائري، ثورة متماسكة، جوانب بارزة من ثورة، أسباب هذه الثورة، ثورة على فرنسا، أن نثور ثورة مستميتة، أنها ثورة على الظلم، إن هذه الثورة أثارت، امتد عمر الثورة، من قشور الثورة، هذه الثورة المتأججة، هذه الثورة، الثورة التي يؤرخ لها بدعا في الثورات).

يخدم تكرار كلمة " الثورة " بكامل حملتها في هذا النص بالأشكال التي ذكرنا مقتضى أساسيا وهو:

- المقتضى (21): التأكيد على أن النصر محقق للثورة الجزائرية.

النص العاشر: صفحات مشرقة في تاريخ الثورات

" سجلت الجزائر بثورتها التي سلخت فيها أربع سنوات وخمسة أشهر من صفحات مشرقة في تاريخ الثورات، وستكون هذه الثورة يوم تنتهي إلى غايتها وهي تحرير الجزائر من درن الاستعمار، ويوم يأذن التاريخ يتنسيق أحداثها وترتيب فصولها مرجعا للجائرين يأخذون منه الزواجر عن ظلم المستضعفين ويعلمون أن لهم ربا يبعث فيهم من القوى الروحية ما يقل الحديد ويطفئ النار، ومرجعا للثائرين بالمعنيين لكلمة الثائر، يتعلم منه الثائرون والطالبون للثأر كيف يكون الثأر

المنيم، ويتعلم منه الثائرون على العتو والطغيان كيف يرمونه بالمقعد المقيم، وكم للجزائر عند فرنسا الطاغية من ثارات وتارات.

كانت ثورة الجزائر بدعا من الثورات منذ كانت تقوم قبل أربع سنوات على ثلاثة آلاف مجاهد ...

إن في الثورة الجزائرية المشتعلة نارها اليوم لمشابه من حروب الإسلام في فجر الإسلام وإن في رجالها لخصائص من رجال تلك الحروب، فكم نصرت فيها الفئة القليلة على الفئة الكثيرة...

والجزائريون في هذه الثورة يقاتلون الاستعمار، فيقتلون عدوين لدودين، يقتلون المستعمر ويقتلون معه طبع الذل والخنوع والخور والفسولة التي ركبت الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا...

... إنها ثورة التهمت الأخضر واليابس من جنود فرنسا وثروتها وأموالها المخزونة وأوقفتها على حافة الإفلاس، كما التهمت ثروة الجزائريين على تقاهتها ... وإن أخوف ما نخاف على ثورة الجزائر هو أن يجوع الشعب الجزائري فققوا عند هذه النقطة وقرأوا لها ألف حساب، إنكم أيها العرب والمسلمون من ورائكم تتالون القسط الأوفر من غنم هذه الثورة فمالكم لا تشاركون بكل ما تملكون في غرمها؟ ...¹

في هذا النص تكرر حضور كلمة " الثورة " بشتى الأشكال الاشتقاقية لها، وفي بنيات تركيبية مختلفة، على النحو الذي رأينا مثله في النصوص السابقة بشكل متماثل في كل نص، إلا أنها سجلت حضورا كليا في هذا النص، كما وردت بصيغة الجمع وهذا لأول مرة تسجل سواء ما

¹ - المرجع السابق، ج5، ص (252 - 255).

تعلق بكلمة " الثورة " أو " الثائر "؛ أي ما اشتق منها: (في تاريخ الثورات، الجزائر بثورتها، هذه الثورة، ومرجعا للثائرين، وكلمة الثائر، يتعلم منه الثائرون، والطالبون للثأر، الثأر المنيم، منه الثائرون على العتو، من ثارات وتراث، ثورة الجزائر، من الثورات، إن في الثورة الجزائرية، في هذه الثورة، إنها ثورة، على ثورة الجزائر، هذه الثورة).

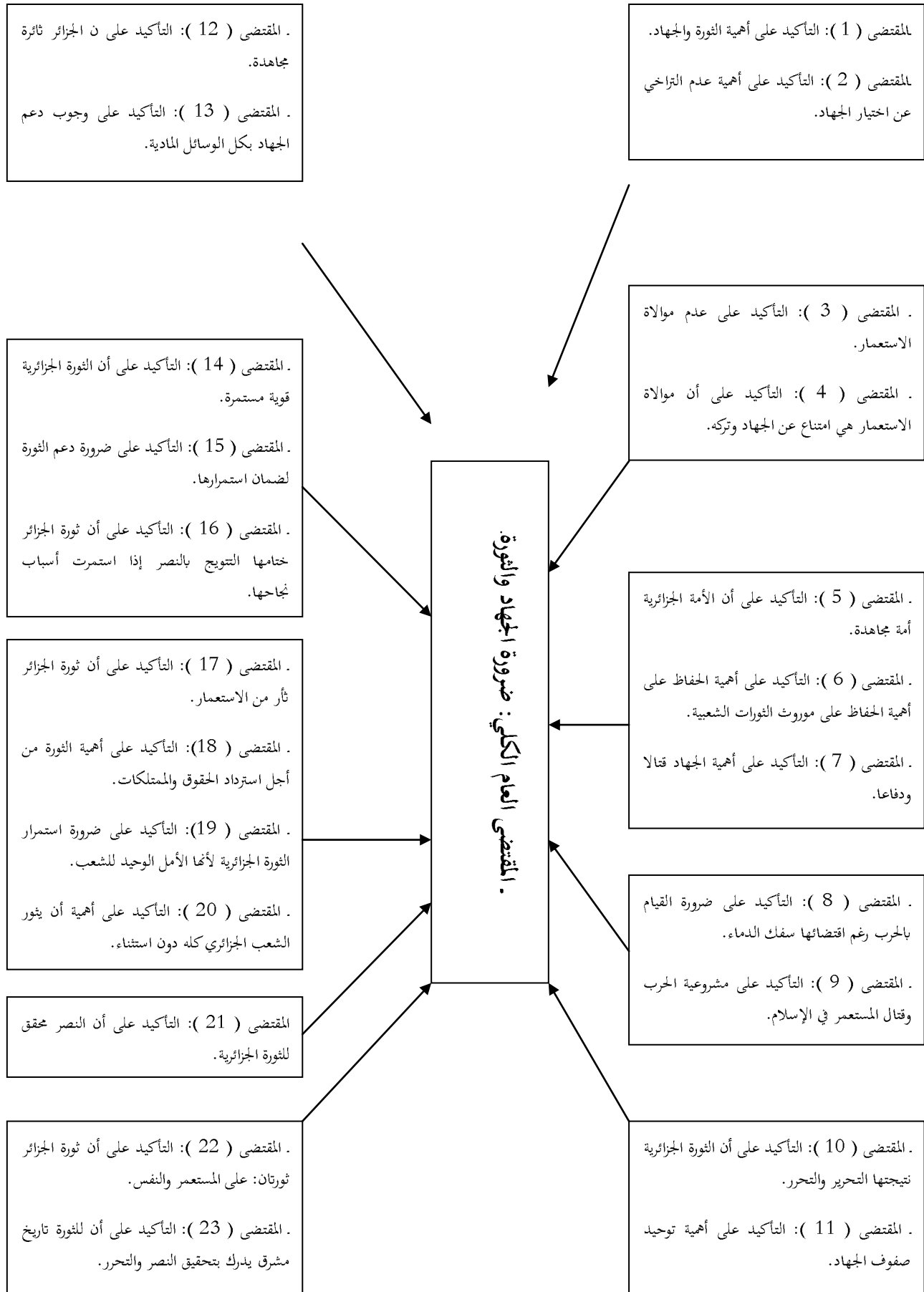
ولقد كان حضور كلمة " الثورة " هنا في هذا النص بكامل حملتها الدلالية، وقد سجلت العديد من الاقتضاءات يمكن إجمالها في المقتضيين الآتيين:

- المقتضى (22): التأكيد على أن ثورة الجزائر ثورتان: على المستعمر والنفس.
- المقتضى (23): التأكيد على أن للثورة تاريخ مشرق يدرك بتحقيق النصر والتحرر.

وفي الخير إذا تأملنا هذه المقتضيات جميعها، وحاولنا ضمّ بعضها إلى بعض فإننا سنجد أنها تصبّ كلها في اتجاه واحد، ألا وهو دعم المقتضى الكلي الذي مفاده:

المقتضى العام الكلي: ضرورة الجهاد والثورة.

ويمكن إجمال وتوضيح كل ذلك في:



وبترتيب تلك المقتضيات في السلم الحجاجي بدءاً من الأقل حمولة دلالية إلى الأقوى في ضوء خدمة المقتضى الكلي العام، وهو: ضرورة الجهاد والثورة. الرامي إلى مقصد واحد، وهو: تحقيق النصر والتحرير. فإننا نحصل على:

ضرورة الجهاد والثورة [تحقيق النصر والتحرير]

- المقتضى (21) : التأكيد على أن النصر محقق للثورة الجزائرية.
- المقتضى (23) : التأكيد على أن للثورة تاريخ مشرق يدرك بتحقيق النصر والتحرر.
- المقتضى (10) : التأكيد على أن الثورة الجزائرية نتيجتها التحرير والتحرر.
- المقتضى (16) : التأكيد على أن ثورة الجزائر ختامها التتويج بالنصر إذا استمرت أسباب نجاحها.
- المقتضى (22) : التأكيد على أن ثورة الجزائر ثورتان: على المستعمر والنفس.
- المقتضى (14) : التأكيد على أن الثورة الجزائرية قوية مستمرة.
- المقتضى (15) : التأكيد على ضرورة دعم الثورة لضمان استمرارها.
- المقتضى (19) : التأكيد على ضرورة استمرار الثورة الجزائرية لأنها الأمل الوحيد للشعب.
- المقتضى (11) : التأكيد على أهمية توحيد صفوف الجهاد.
- المقتضى (6) : التأكيد على أهمية الحفاظ على أهمية الحفاظ على موروث الثورات الشعبية.
- المقتضى (5) : التأكيد على أن الأمة الجزائرية أمة مجاهدة.
- المقتضى (12) : التأكيد على أن الجزائر تائرة مجاهدة.

- المقتضى (20) : التأكيد على أهمية أن يثور الشعب الجزائري كله دون استثناء.
- المقتضى (17) : التأكيد على أن ثورة الجزائر ثار من الاستعمار.
- المقتضى (18) : التأكيد على أهمية الثورة من أجل استرداد الحقوق والممتلكات.
- المقتضى (13) : التأكيد على وجوب دعم الجهاد بكل الوسائل المادية.
- المقتضى (2) : التأكيد على أهمية عدم التراخي عن اختيار الجهاد.
- المقتضى (4) : التأكيد على أن موالاة الاستعمار هي امتناع عن الجهاد وتركه.
- المقتضى (1) : التأكيد على أهمية الثورة والجهاد.
- المقتضى (7) : التأكيد على أهمية الجهاد قتالا ودفاعا.
- المقتضى (8) : التأكيد على ضرورة القيام بالحرب رغم اقتضائها سفك الدماء.
- المقتضى (9) : التأكيد على مشروعية الحرب وقتال المستعمر في الإسلام.
- المقتضى (3) : التأكيد على عدم موالاة الاستعمار.

نخلص في نهاية الكلام عن الاقتضاء إلى مجموعة من النتائج نصوغها على الشكل

التالي:

- إن الاقتضاء حاصل في جميع المستويات اللغوية، فهو حاصل في بعض الكلمات في كتابات الإبراهيمي، والتي تحوي سمات اقتضائية تؤثر في التركيب الذي نُظمت فيه، وتتفاعل داخله مع باقي الوحدات اللغوية الأخرى، مخلفة بذلك مقتضيات دلالية وتداولية.

- يؤشر الحامل المعجمي لبعض الكلمات في كتابات الإبراهيمي من خلال آثارة مقتضيات معجمية توجه الملفوظ نحو وجهة حاجية ما، ويتجلى " هذا التوجيه الحاجي أيضا على مستوى الحركة التي يقوم بها هذا المقتضى المعجمي على المحورين التركيبي والاستبدالي، فالحركة التركيبية سواء حركة التوافق الدلالي أو حركة الانقلاب الدلالي"¹، تؤشران على توافق الوقوع للكلمة في خطابات الإبراهيمي داخل التركيب من خلال سماتها الاقتضائية والحاجية، أما الحركة الاستبدالية فيتم بموجبها استبدال كلمة غير حاملة لهاتين السمتين بأخرى حاملة لها.
- يؤشر الحامل التركيبي لبعض التراكيب في خطابات الإبراهيمي على بروز مقتضيات ناتجة عن بنية تركيبية مخصصة، فبنيات الشرط والاستفهام والإضافة والعطف والصلة والموصول والاستثناء... تنتج مقتضيات مختلفة، وتقوّه بعض هذه المقتضيات التركيبية بوظيفة حاجية تجعل الملفوظ ذا طاقة حاجية مؤثرة.²

¹ - محمد بريم، الاقتضاء في سورة البقرة ووظائفه الحاجية، ضمن مصنف التحليل الحاجي للخطاب، ص 126.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 127.

الخاتمة

أفضت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج حاولت أن أفي ببعضها، خاصة ما رأيته مهما من بين ما استخلصته، وقبل ذكر بعضها في إجابة على الإشكال الأساس المطروح في المقدمة، نقول بأن المقاربة التداولية والحجاجية لتلك المظاهر الأسلوبية في الخطاب تمتلك من المقومات والأدوات ما يؤهلها لتحليل كافة أشكال الخطاب، كما يُمكنها من مقارنة الخطابات مقارنة معاصرة. على أن تلك السمات الأسلوبية ذات علاقة وطيدة بمجال اشتغالها. فهي تؤدي وظيفتها الإقناعية من خلال خصائصها التي تتبع مما تنطوي عليه من مقتضيات معجمية وتركيبية وغيرها.

ومن أهم تلك النتائج نذكر:

- إن الخطاب وسيلة للحجاج وهو في الوقت نفسه منتهى تلك الوسيلة، وأن الخطاب الحجاجي فيما هو متداول موجه للتأثير على آراء وسلوكيات المخاطب، وهو خطاب يهدف إلى الإقناع؛ إن بتبني أو ترك سلوك أو معتقد معين، وما الخطاب الحجاجي إلا طريقة في الاتصال غايته الاستمالة والتأثير، والحجاج لا يتصل بضرب من الخطاب مخصوص؛ وإنما يشمل كافة ضروب الخطاب الشفوي والمكتوب، كما قد تختلف مجالات الحجاج ولكن لا تختلف ضوابطه؛ فهي في الأدب كما في السياسة أو الفلسفة وغيرها.

- أن الشكل الحجاجي المتواتر في كتابات الإبراهيمي هو نفسه في النص الحجاجي العربي، وهو الشكل القائم على هذا الترتيب: مقدمات، دعوى، تبرير، تدعيم، وهذا الشكل يتسم بالمنطقية التي تعد من أسس الحركة الحجاجية؛ إذ تعطي ترابطا منطقيا بين العلاقات الدلالية العامة للخطاب. وهي بذلك ذات طابع حجاجي وباعثة على التأثير والإقناع، مما يجعلها نصوصا حجاجية بامتياز لتركيزها على غاية الإقناع والتأثير في الآخر.

- لعبت الروابط الحجاجية التي وظفها الإبراهيمي دورا مهما في الانسجام التلفظي والتداولي؛ إذ اضطلعت بدور استمرارية النص والحفاظ على انسجامه وإسهامه في الاتساع والتدرج والاتساق الشامل للخطاب، مما سمح بتدرج وتسلسل القضايا، الشيء الذي يسند لكل قول دورا حجاجيا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة، والنزعة الحجاجية بادية في البناء اللغوي لكتابات الإبراهيمي، بتضمينها تلك اللوازم والروابط الحجاجية، وتوجيهها من البداية توجيهها حجاجيا خاصا.

- إن سيروية التدرج في السلم الحجاجي يتجه نحو الارتفاع، ويأتي من أجل التسليم بالنتيجة من خلال الانسجام في هذه الحجج عبر مساراتها التصاعدية، وصولا إلى النهاية (النتيجة).

- نجاعة أسلوب كتابات الإبراهيمي في إيقاع مضامينه وفحواه في نفس متلقيه واستمالاته، فأسلوبه كان مقنعا وحاز العديد من العناصر التعبيرية التي تحمل شحنة حجاجية إقناعية في السياق الذي وردت فيه. كما تضافرت سبل الحجاج ومستوياته فيها، فيعضد بعضها البعض الآخر، ما يخلق تنوعا أسلوبيا وخطابيا تشدد به شوكة الخطاب وتقوى طاقته الحجاجية الإقناعية.

- إن حجاجية الأسلوب تتعلق بالخصائص الاقتضائية للسمات الموظفة، فهذه الخصائص لا ترتبط بالمعطيات المقامية، وإنما هي خصائص ذات طبيعة لسانية منغرس في بنية اللغة نفسها. إن هذه الطبيعة هي ما يجعل هذه الخصائص تكون في التصور الحجاجي في منأى عن الدحض أو الإنكار، ويجعلها تدون في اللغة باعتبارها إطارا غير قابل للإنكار.

- إن خطاب الإبراهيمي قد مارس من خلال الاستعارة التأثير والإقناع؛ إذ تصب الاستعارة الحجاجية في دمج جهتين (المستعار له والمستعار منه)، وبذلك يتم التأثير في المتلقي وبالنتيجة

إقناعه، من خلال خروجها إلى المتداول، فتتجم عنها الحجة في أعلى درجة من الإقناع على المستوى الجديد الذي ظهرت بها.

- يحرص خطاب الإبراهيمي على حضور الأفعال الكلامية المباشرة في مخاطباته، وخاصة أن هذه الأفعال مما يتضمن في سياقها توجهات وانتباهات، ويعود إلى غايته التبليغية التي لا تتم إلا بالحجاج، فلأفعال الكلام في كتابات الإبراهيمي إنجازات تعطي بعداً دلالياً.

- الاستفهام أكثر أفعال الكلام دورانا في كتابات الإبراهيمي، باعتباره أساساً مهماً يبنى عليه الخطاب في العملية الإقناعية، فكم من الأجوبة التي ينشئها المُحاجج استفهاماً إيماناً بقوته الإنجازية، وبفعله التأثيري، فتتحكم فيه عنده أغراض تداولية، تولّد معاني يحددها السياق الذي ورد فيه الاستفهام، وللغرض الانجازي الذي يقصده المتكلم.

- إن معرفة الإبراهيمي بالقوة الحجاجية لبعض الألفاظ الحاملة لاقتضاءات معجمية، أو معرفته بحجاجية بعض التراكيب الحاملة لاقتضاءات تركيبية، هي ما جعلته يوظف تلك الألفاظ والتراكيب ويوتر تكرارها أكثر من غيرها في خطابه. فتلك الألفاظ والتراكيب إذ ترد في عالم الخطاب وتحقق انسجامه وتماسك مكوناته، فإنها توجّل بإنتاجها لمقتضى ما لحظة إنكار المخاطبين لما هو معروض عليهم، وتساهم في بناء النظريات الجديدة وزيادة درجة قبولهم لها من جهة، وتبعثهم على التصديق من جهة ثانية.

وربما تبقى من بين أهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال هذه الدراسة، هي ثراء النص العربي الحجاجي الحديث، وإثبات مدى قدرته على إعطاء أرضية خصبة لمثل هذه الدراسات الحجاجية اللغوية والتداولية واللسانية النصية والأسلوبية، مما يستدعي السعي أكثر إلى قراءة هذه

النصوص قراءة جادة وجديدة في ظل ما تم التوصل إليه في ضوء النظريات اللسانية واللغوية الحديثة، وكشف أغوارها.

المصادر والمراجع

📖 القرآن الكريم .

أولاً: المصادر العربية:

- أبو البقاء عبد الله العبكري، اللباب في علل البناء والإعراب، تح: غازي مختار، دار الفكر، دمشق، ط1، 1995.
- أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1936.
- أبو الوليد بن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، تح: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998.
- أبو نصر الفراء، كتاب في المنطق: الخطابة، تحقيق: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (د ط)، 1976.
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت، ط1، 1995.
- إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، طباعة ونشر جامعة بغداد، ط1، 1967.
- الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، لبنان، (د ط)، 1980.
- ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر، تح: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الرياض، ط2، (د ت) .

- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، (د ط)، (د ت) .
- ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، (د ط)، (د ت) .
- ابن علي الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تح: عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د ط)، (د ت) .
- ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط)، (د ت) .
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994.
- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط5، 1979.
- ابن يعيش، شرح المفصل، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001.
- الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، ط2، (د ت)، ج1، 1949.
- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: مكتب الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، ج1، مكتبة نزار مصطفى للنشر، (د ط)، (د ت) .
- الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس، دار ليبيا، بنغازي، 1966.
- الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د ط)، (د ت) .
- الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، (د ط)، (د ت) .

- _____، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، ط2، (د ت).
- السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وشرح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.
- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د ط)، 1988.
- الشريف علي محمد الجرجاني، التعريفات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2003.
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991.
- _____، دلائل الاعجاز، تح: أحمد مصطفى المراغي، المكتبة المحمودية، القاهرة، ط2، (د ت).
- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تح: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طبية للنشر، الرياض، ط1، 2006.

ثانيا: المراجع العربية:

- أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط1، 2010.
- _____، اللغة والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، (د ط)، 2009.
- أحمد السيد الصاوي، الاستعارة في بحوث اللغويين والنقاد والبلاغيين _ دراسة تاريخية فنية _، منشأة المعارف الإسكندرية، (د ط)، 1988.

- أحمد قادم، وسعيد العوادي (إشراف)، التحليل الحجاجي للخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن، ط1، 2016.
- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2011.
- ابن عسي أزييط، الخطاب اللساني العربي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012.
- جميل حمدان، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2014.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العلمية للكتاب، دار الكتاب العالمي، بيروت، (د.ط)، 1994.
- حافظ إسماعيل علوي (إشراف)، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.
- حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2003.
- حسن بدوح، المحاوره مقارنة تداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2012.
- حمادي صمود (إشراف)، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، سلسلة آداب كلية الآداب منوبة، تونس، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية (د.ط)، (د.ت).
- حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1999.

- خليل برادة وعبد المجيد جحفة، الاستعارة والمعرفة، منشورات المختبرات - مختبر اللسانيات والتواصل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك - الدار البيضاء، ط1، 2011.
- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009.
- ذهبية حمو الحاج، التداولية واستراتيجية التواصل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015.
- _____، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، (د ط)، (د ت).
- الزماني كمال، حاجية الأسلوب في الخطابة السياسية لدى الإمام علي - كرم الله وجهه-، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016.
- سامية الدريدي، الحاج في الشعر العربي القديم - من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنياته وأساليبه -، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2008.
- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص : المفاهيم والاتجاهات، لونجمان، القاهرة، ط1، 1997.
- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2004.
- شكري الطوانسي، البلاغة العربية والأسلوبيات الحديثة، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 2004.

- صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أوكسفورد، دار التنوير، بيروت، ط1، 1993.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس / آب 1992.
- طه عبد الرحمن، التواصل والحجاج، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، (د ط)، 1993-1994.
- _____، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006.
- _____، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005.
- _____، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000.
- عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013.
- عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، ط3، (د ت) .
- عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولي دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2014.
- عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ط)، 1991.

- عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني - دراسة في نصوص الترغيب والترهيب-، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016.
- عبد الجليل العشراوي، آليات الحجاج القرآني دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016.
- عبد الرزاق بنّور، جدل حول الخطابة والحجاج، الدار العربية للكتاب، تونس، (د ط)، 2008.
- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير - مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل -، إفريقيا الشرق، (د.ط)، 2006.
- _____، عندما نتواصل نغير مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحاج، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2012.
- عبد العزيز لحويديق، نظريات الاستعارة في البلاغة العربية من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015.
- عبد الله حسن المسلمي، أفلاطون: محاوره متكسينوس أو عن الخطابة، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ط1، 1972.
- عبد الله صولة ، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ميسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011.
- _____، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، إدارة المناهج، مملكة البحرين، مؤتمر مناهج اللغة العربية، أبريل 2004.

- _____، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات كلية الآداب، منوبة، 2001.
- _____، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية - الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004.
- عزيز لديه، نظرية الحجاج: تطبيق على نثر ابن زيدون، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط1، 2015.
- علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010.
- علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، مكتبة رحاب، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
- عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2009.
- العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني - من وعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها -، دار الأمان، الرباط، ط1، 2011.
- مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي - تنظير وتطبيق على السور المكية -، دار الأمان، الرباط، ط1، 2015.
- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط1، 2005.

- محمد العمري، البلاغة أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (دط)، 1999.
- _____، في بلاغة الخطاب الإقناعي- مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية - أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002.
- محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وغربية وعربية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2005.
- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- محمد عبد المطلب، جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، ط2، 2004.
- محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط5، 2006.
- محمد مهران رشوان، مبادئ التفكير المنطقي، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، 1994.
- محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي- دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية -، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2010.
- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005.
- مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، القاهرة، ط1، 1997.
- نوازي سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009.

- نور الدين أجييط، الوظائف التداولية للتخاطب السياسي وأبعادها الحجاجية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2016.
- هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
- هدى وصفي، في فن الحجاج والجدل، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، (د ط)، 2002.

ثالثاً: المراجع المترجمة:

- أرسطو، الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986.
- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 2001.
- بول ريكور، نظرية التأويل، تر: سعيد الغاني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006.
- جاك موشلر، وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولي، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين، إشراف: عز الدين المجذوب، دار سيناترا، تونس، (د ط)، 2010.
- جان سيرفوني، الملفوظية، تر: قاسم المقداد، مطبعة إتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د ط)، 1998.

- جورج بول، التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، الرباط، المغرب، ط1، 2010.
- دومينك مانغينو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 2008.
- ديان مكدونيل، مقدمة في نظرية الخطاب، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001.
- رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط)، 1994.
- سارة ميلز، الخطاب، تر: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004.
- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2005.
- هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائي لتحليل النص -، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط)، 1999.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

- C. Plantin, Essais sur L'argumentation, Paris, Éditions Kimé, 1990.

- C.Golder, le développement des discours argumentatifs, lausane Delachaux et Niestlé, 1996.
- Dictionary of language teaching applied linguistics, Second Edition, 1992.
- Emile Benveniste: Problèmes de linguistique générale. Editions Gallimard, 1966.
- J.M.Adam, les textes: types et prototypes, nothan, Paris, 1992.
- Moreau (Joseph): Platon devant les sophistes ou chop: qu'est ce qu'un sophiste? Paris 1987.
- O. Ducrot, J.C. Anscombe, L'argumentation dans la langue, Pierre Mardaga, Bruxelles, 1980 .
- Op: Alain Baissinot, les textes argumentatifs, CRDP, Toulouse, 1996.
- Oxford dictionary of linguistics, O.U.P, 1997.
- Philippe Breton, L'argumentation dans La communication, 3..édition, La découverte. Paris, 2003.
- Richard D.Rieke, Malcolm.O.Sillars – argumentation and the Decision Making Process, John Wiley, Sons, Inc . USA–1975.

خامسا: الدوريات:

- أبو بكر العزاوي، الحجاج والشعر _ نحو تحليل حجاجي لنص شعري معاصر، دراسات سيميائية أدبية لسانية، صدر عن دراسات سال، ع7، 1992.
- إيف جانري، نظريات المحاجة، اكتشاف جديد خصب، ترجمة محمد يحياتن، مجلة اللّغة والأدب لمعهد اللّغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 1997، ع 11.
- حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري، عالم الفكر، الكويت، مج 30، ع1، يوليو - سبتمبر 2001 .
- الحسين بنوهاشم، آليات الحجاج في كشف ما هو في الحقيقة لجاج، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 40، أكتوبر - ديسمبر 2011.
- الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم - سورة النمل نموذجاً - ، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع 12، شعبان 1418هـ، ديسمبر 1997.
- رشيد الراضي، الحجاجيات اللسانية عند أنسكومبروديكرو، عالم الفكر، الكويت، مج 34، يوليو - سبتمبر 2005، ع 1.
- سامية بن يامنة، الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، مجلة دراسات أدبية، العدد الأول ماي 2008، الجزائر.
- عادل فاخوري، الاقتضاء في التداول اللساني، عالم الفكر، مج 2، ع 3، الكويت، 1989.
- عباس السوسوة، أداة العطف " بل " و " في العربية (مقال)، مجلة علوم اللغة، ع4، 1998، مج1.

- عبد الحليم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم - سورة الأنبياء نموذجا - مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع102، السنة السادسة والعشرون - نيسان 2006.
- عبد القادر بوزيدة، نموذج المقطع البرهاني أو الحجاجي، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والدب العربي، جامعة الجزائر، ع 12.
- علي حميداتو، أثر التفاعل الحواري، والنزعة الكلامية في توجيه متلقي الخطاب - قراءة تداولية في كشف الزمخشري -، دراسات أدبية، ع12، نوفمبر 2011.
- الغرافي مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 40، يوليو - شتبر 2011.
- فاتح زيوان، مصطلح الخطاب في الثقافة الغربية، مجلة كتابات معاصرة، تونس، مج18، ع70، تشرين الأول - الثاني 2008.
- محسن بن عامر، البعد الحجاجي في مرزبان نامه لابن عربشاه" الباب الثالث نموذجا " (مقال)، مجلة كلة الآداب واللغات- جامعة بسكرة، ع 10-11، جانفي - جوان 2012.
- محمد اخريف، التداولية الترنسندنتالية: إيتيقيا المحاجة، مجلة كتابات معاصرة، تونس، مج18، ع70، تشرين الأول - الثاني 2008.
- محمد السويرتي، اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، عالم الفكر، مج28، ع3، "يناير - مارس 2000"، الكويت.
- محمد العبد، النص الحجاجي العربي: دراسة في وسائل الإقناع، فصول، مجلة النقد الأدبي، ع60، صيف - خريف 2002.

- محمد الولي، من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات، فكر ونقد، السنة الأولى، ع 8، أبريل 1998.
- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة (مقال)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج28، ع يناير - مارس 2000.
- محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، عالم الفكر، الكويت، مج 28، ع3، 2000.
- محمد عبد الرحمن محمد الريحاني، واو الربط وظائفها ودلالاتها (دراسة)، مجلة علوم اللغة، ع4، 1998، مج1.
- نعمان بوقرة، نظرية الحجاج، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع407، آذار 2005.
- هادية فضل الله، السوفسطائية من وجهة نظر منطقية، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ع99، السنة21، شتاء 2000.

سادسا: الرسائل الجامعية والمخطوطات:

- عز الدين الناجع، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، (بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة)، إشراف د. عبد الله صولة، جامعة منوبة، كلية الآداب بمنوبة، السنة الجامعية 2004/2003 (مخطوط).

- علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج - رسائله نموذجاً -،
معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، 2007، (405
صفحة).
- عمر بلخير، الخطاب الصحافي الجزائري المكتوب- دراسة تداولية - كتاب
(مخطوط)، (394 صفحة).
- غازي فتحي محمد سليم، الروابط في الكتابة العربية الحديثة _ دراسة تطبيقية _ (
أطروحة دكتوراه)، إشراف د. محمد العبد، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم اللغة
العربية وآدابها، القاهرة، 2000، (510 صفحة).
- محمد سالم ولد محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، معهد البحوث والدراسات
العربية، القاهرة، أطروحة دكتوراه (مخطوط)، 2002.

Resume

Argumentation, as a communicative and persuasive mechanism, is widely studied in the light of the theory of argumentation in order to activate it in the research of the modern Arabic linguistics. Pilgrimage is not verbal or written. The argumentative discourse can be both verbal and written; it is not related to a specific discourse, but it includes all types of the oral and written discourse.

The examination of the argumentative text stylistically and pragmatically is the most appropriate way to read the discourse of Elbachir Al-Ibrahimi, because the argumentative discourse does not include only a communicative message, but it aims at persuasion, influence and change, that is extremely intended in the pragmatics and the context which requires reading the text stylistically and pragmatically.

The Stylistic approach is a methodology designed to approach the most important stylistic phenomena that distinguish a writer from another. However, The argumentative approach is useful in the study of linguistic phenomena in use, it is also useful for discourse events from which phrase or utterances are taken.

In the pre-view of the argumentative principles of Al-Ibrahimi through his writings - or the so-called introductions according to *Chaim Perelman*—His arguments were based on facts, facts, assumptions, values, and concrete and abstract hierarchies in order to increase the level of compliance and submission.

Most of the stylistic features of each writer contribute to the coherence of his speech. These features are repeated in the discourse to have lexicological and syntactic needs .

There are many stylistic characteristics in the writings of Al-Ibrahimi, which made it an argumentative discourse, and made the argumentation to be linked with its linguistic elements, such as words and syntax. These features are repeated to the extent that they become features of his style.

The discourse of al-Bashir al-Ibrahimi tries to integrate the direct speech acts in his discourses, especially these acts, including in their context, tendencies, and he turned again to his communicative purpose which is based on argumentation.

The speech acts in the writings of Al-Ibrahimi provide a semantic aspect which has a speech influence that aims at persuasion, and that this theory examines the text

according to the discursive and linguistic level, and the hidden level through the
context.